غُرْبَةُ حُلْمٍ

بقلم / هاجر عبد الباسط

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : غُرْبَةُ حُلْمٍ

المؤلف : هاجر عبد الباسط

تدقيق لغوي : عبد الحميد سعيد ابراهيم

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم ايداع: 2020/3330

ترقيم دولي: 978-977-6807-00-6



دار مسار للنشر و التوزيع



01020439639



massar.pub1@gmail.com



ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

هاجر عبد الباسط

غُرْبَةُ حُلْمٍ



إهداء

إلي أولئك الذين تأخرتْ أحلامهم و لم يتنازلوا عنها ، وإلي أولئك الذين اختاروا أحلاماً علي مقاسهم فخرجتْ عن طور حياتهم ، متَّخذاهم معها نحو أملٍ يحيِّ نفوساً ، وليس زيفاً بل لا يشبه بريق العالم الخادع .

فإهداء مني إلي أطفال يصنعوا حاضرهم بدون ثقافة التقيُّد بالأحلام .. بدون ثقافة القدرة علي التحقيق وتقليل الخيال ، بل بثقافة الثقةِ في الله و في الذات ، في أنَّ السعيَّ لا يضيع هباءاً منثوراً .

الفصل الأول :-

- ما بين العشقِّ والماضي -

ربما اختفيت عن الأنظار ولم أرسل لكَ أي رسالةٍ تطمئن بها ، ولا حتي كلمة وداعٍ فلا وجود للوداع بين قلبين تعاهدا أنْ يقفا بجانب بعضهما .. تعاهدا أنْ يعشقا عشقاً يليق بطاعة الرحمن .. عشقاً يذوب فيه أيُّ حزنٍ وألمٍ .

كنتُ أستشعرُ أنينَ آهاتِك وسؤال قلبك لعقلك ، أين ذهبتْ ، وماذا بها ، وكيف تكون ؟! سأردُّ عليك .. كنتَ تسألني دائماً عن سبب ضحكاتي وكنتُ أقولُ في نفسي لو علم السبب لكنتُ سبب بكائه .. أنا يا صديق دربِّي لم أخُنْ أيَّ عهد تعاهدت عليه معك أمام الله ، حتي عهدي الحديث إليك لم أخنه ، ولم أنقطع عنه ، ربَّما اعتزلت فترةً عهد اللقاء ، ولكنِّي كنت أعلم أن صورتي لا تغيب عن عينيك ، ولم تُحْجَبْ عن قلبك .. كنت تستحضر صورتي كطفلة مولودة لم يقطع الحبل الذي بينها و بين أمها بعد ، كأنك تريد أن تسمو بروحي ، فكانت عينيك بالنسبة لي أشبه بمصفاة لا أري فيهما سوي محاسني ، فكنت أشعر بهما أني ملكت الطيبة والهدوء والسكينة .

كنت أشعر بالحيوية عندما أري صورتي من خلالهما فبعدتُ قليلاً لأجل هذا وكان البعد صعباً بل مؤلماً علي نفسي و كأنَّ

أجزائي تنفصل عني ؛ لتلتهبَ بدون مسكن يداويها ، ولكن كان يجب عليّ أن أنهض بتلك الروح التي تعبت من الدنيا لأرجع لك طفلتك البريئة التي تهواها هوي الجنون يا عشقي المَصون ، وها أنا ذا أرجع إليك بفرحٍ يعادل فرحة تلك الأم تألمت وتأوهت حتي أمسكت سعادتها بين نظراتها في كائن قابل العالم بصرخةٍ وقابلتْه بضمةٍ ، وأنا سعادتي في نظراتي إليّ - التي ما كانت لتكون لولاك - التي احتوتني ، فأرسل لكَ رسالتي التي ربما تكون مبلَّلة قليلاً بدموع الحب لدرجةٍ لا تليق بحبي لكَ بل بحبك لي ، ففي حبنا لا وجودَ للدموع وإن كانت دموع فرح ولكن أعذرني فقد خانتني مشاعري ، فأنا كنت أشعر أني بعيدة عن نفسي .. عن متعتي ، ولكن يا طموحي المنتظر وهوايا المغتفر .. ها أنا قد عدتُّ إليكَ لأعاود من جديد الاختفاء بين أحضان نظراتك ، فيتملكني شعور لا أستطيع وصفه وإن كنت أود أن أقول أعجز عن وصفه ، ولكن أَعلمُ علم اليقين أنك لا تريد أن تراني عاجزةً أبداً ، حتي لو كان عجز عن وصف شعورٍ مزيجٍ من كلِّ شيء جميل ، كأنْ أري طفلاً صغيراً فيضحك لي ويبتسم فأبتسم له فيحمَّرَ وجهه خجلاً ويمسكني من يدي ويجري وأنا معه في أرض خضراء بل لامعة الخضار ، وفيها من الورد ما يبهج النفس .

شعور من الراحة والهدوء والسكينة .. شعور من الارتياح ! لا أعرف ماذا أقول ! فأنا لا أجد كلماتٍ معبرةٍ عما بي ولكن قلبي

يرفرف من السعادة ، عدتُّ إليك فكما جعلتني أعشق رؤيتي في عينيك أصررّتُ أنْ أكوِّن من هذه الصورة التي هي انعكاس لي في رَوح قلبك ، فزادني حباً أنْ أكوِّن هذه الصورة بمحاسنها ، فما هي إلَّا انعكاس لطيبتك وحبك الذي يزينها .

أنا أعشقُ نفسي لكَ .. حقاً لكَ فأنا أعشقها لأنك عشقتني عشقاً ليس له مثيلٌ ، حتي جعلتني أشعر أن تلك النفس جديرة بالحب فأحببتها .. أنت مرآةُ هذا الكون لعيني ، تجسيدٌ للمودة والعشق ، لحنٌ يجعل الطيرَ ترقص عليه ، صوتٌ عذبٌ يريح النفس ويحتويها من برودة الدنيا وما فيها ، يدفئها بأملٍ وطموحٍ بالمستقبل يجعلها تزهد في الهموم وتعشق الضحك والفرحة والبراءة في العيون .

عندما أراك تسيطر عليَّ حالةٌ تشبه حالةَ طفلٍ صغيرٍ يكادُ يستطيع التحدث في مشهدٍ يفاجأُ بأبيه بعد غيابٍ طويلٍ ، يدخل إليه ومعه لعبة يتمناها ، شعور أمٍّ بمولودها الأول فتتحول فرحتها التي كانت في أحشائها لمدة تسعة أشهر إلي سعادة ملموسة بين يديها .

هكذا يكون كلُّ لقاء معك ، بداية وولادة لطيبة داخلي ، ولكنْ أنا أريد أن تغفر لي غيابي الغير مبرَّر .

كان مصطفي يقرأ رسالة محبوبته رضوى وكانت عينيه تذرف الدموع فقرر أنْ يكتب لها كل ما يخالج خاطره ..

- محبوبتي .. أنتِ لم تبلغي بعد العشرين ، ولكنْ بقلبك حبٌّ لا يوصف .. حبٌّ عمَّره الكثير من الطيبة والحنين والرحمة التي تليق بك وبحبك لي ، فلكِ أنْ تعلمي أن عيناي ليست مصفاة لمحاسنك ، بل محاسنك هي التي تطغي علي كل من حولك حتي أنها تطغي علي المكان فتلونينه كما تشائين بالسعادة والسرور ، أنت تسيطرين علي العشق والهوي بابتسامة منك فتجعلين مَنْ أمامك فخورٌ أنه قابل مثلك ، ولكن هيهات لوجود من يشبهك! أنت يا رضوة قلبي كبلسم يخفف الألم بل يمحيه ، فأنا وإن كنت أعشقك فهذا كرم منك وشرف لي أن أحب إنسانة مثلك فأنا أفتخر بهذا العشق ، ولكن أخبريني كيف تكونين الآن ؟! وأين أنت ؟! أنا أود أن أري فرحتي وبهجتي ولكن أخاف إن رأيتك أفقد السيطرة علي نفسي وأظلُّ أبكي تلك الدموع التي أخفيتها بين جفني عين لم تغفل عن رؤية وجهك حتي في غيابك ، ولكني لن ألوم نفسي حينها فأنت لا تعلمين كيف مرَّت عليَّ تلك الفترة ، أنا شعرت أن روحي تفتقد للحياة كأنَّ الدنيا صارتْ بلونٍ واحدٍ وهو اللون الرمادي ، ذلك اللون الذي هو اختلاط ما بين الأبيض والأسود ، هكذا كان حالي .. كنت أظلُّ أفكر فيكِ ، فكنتُ أقلق عليك ، وفي هذا الوقت كانت الدنيا حالكة السواد يا بصيص النور ، بل أنتِ مصباح النور ولكن صدقيني الأبيض لم يكن أبيضاً وحده بل كان أبيضاً لأنه كان أرحم نسبياً من السواد الحالك ، ففي هذا الوقت

كنت أدعو لكِ أن تكوني بخير والآن أنا أريد أن أراك ، فأخبريني كيف السبيل لرؤياكِ . -

كتب مصطفي الرسالة وأرسلها ، وذهب لبيت رضوى ودق الباب ففتح والدها الباب ، وما إن فُتح الباب حتي تسمَّر مصطفي وظل واقفاً مندهشاً للحظةٍ ، ثمَّ قطع هذه الدهشة و سلم علي زوجته رضوى و ظلَّ ممسكاً يدها كمن يمسك بشيءٍ يخاف أن يفقده ، ودمعتْ عيناه حتي أنه نسي وجود أبيها وأمها ، وظل يقول رضوة قلبي أين كنتي هل أنت بخير ؟! ولماذا اختفيت عني؟! فخجلت رضوى فكان أبيها يقف في وجهها وأمها بجانبها ، فلاحظ مصطفي فسلَّم علي حماته وجاء ليسلم علي أبيها فقال أبوها متبسِّماً :

- أنا فخور بكما وبحبكما ، وكما كتبنا كتابكما وأصبحتما زوج وزوجة ، أتمني أن نقيم الفرح ، ولكن حقاً أود أن أقول لكما شيئاً ، ولكن أولاً أنا أشكرك يا مصطفي ، أشكرك علي تلك السعادة التي أغمرت بها طفلتي وتلك النظرة المعطرة بعطر التفاؤل وحبٍّ للمستقبل ، أنا أدعوا الله لكما أن يديم بينكما حبل المودة والحب ، وأتمني أن تقضيا علي أيِّ حزنٍ أو ابتلاء ، فصدِّقاني ليس هناك دنيا خالية من الأحزان والابتلاءات ، ولكن هذه الابتلاءات قد تكون سبباً للحب والود إذا ساندتما بعضكما البعض ، واعلم أنه علي الرغم من أنَّ ابنتي قد تظهر عليها ملامح الصلابة ولكنها

في الحقيقة داخلها لين ، لن أقول لك أنها تحزن بسرعة ولكنها تصون مشاعرها حتي تستطع أن تصون مشاعر الآخرين .. حبيبة قلبي قد تضحك ولكن مكنونها يبكي ولا تنطق ببنت شفة ، أو تحرك ساكناً وبداخلها أعاصير بل داخلها يُعصف به بشكل قد لا تتخيله من جبل الكتمان ، فهي تتحمل ما فيها بكل ما أوتيت من قوةٍ وجلدٍ ، أنا أعلم جيداً أنك لا تحتاج لهذا الكلام ، ولكن يا بني صدقني أنتما ما زلتم صغاراً قليلي الخبرة حتي وإن أعجبت بتصرف رضوي قبل كتابة الكتاب عندما طلبتك وسألتك عن شعورك ، وطلبت منك أن تعاهدها أمام الله أنك ستعاملها معاملةً تليق بدخولك الجنة ، ستصونها ولن تغضبها وإذا أغضبتك يوماً ستقول لها وستصبر عليها .. أتذكَّر جيداً حين قالت لكَ - وبشر الصابرين - ، كنت أري قلب ابنتي يتكلم في ذلك الوقت فكنت حامداً لله علي هذه النعمة وكنت فخوراً بتربيتها ، فأنا أريدكما مع بعضكما دائماً فرحين .

نظر الأب لابنته رضوي وشعر أنها تريد أن تتحدث ، فأشار لها فقالت وعينيها في الأرض :

- أبي أنا سعيدة بكلامك هذا ، ولكن لا تخف .. نحن لن نختلف فمصطفي هو ظلُّ سعادتي ، أملُ طموحي ، فخرُ كبريائي ، ثقتي بأنَّ الدنيا أجمل رفيق درب كتبه الله علينا ، حتي وإن كان فرض كفاية ، وجعل فيه الثوابَ والخيرَ والمودةَ والسكينةَ دربَ الزواج،

يا أبي هو أجمل من أن نصفه ببعض كلمات وأعرف أنك تقلق عليَّ من المسئولية ولكن هذا لأنك لا زلتَ تراني صغيرتك ، طفلتك التي كانت تلعب أمام عينيك في أحضانك ، فلا تقلق فنحن لا نكبر في عيون أهلنا ، وفي الزواج أيضاً لنا أن نتمازح و نمرح ، لنا أن نري أنفسنا في عيون ذوينا ابتسامةً علي الشفاه ، أنا أحب الزواج .

صمتتْ رضوى التي تحب الزواج ، وتركتْ المجال لقلبها ، وعينها تتكلم عندما رأت مصطفي ينظر لها بنظرته تلك التي تستميل قلبها ، بل كل حواسها فابتسمت فظلّا ينظران لبعضهما البعض حتي قطع أبيها لحظة السكينة هذه وعلي وجهه ابتسامةٌ من الرضا قائلاً:

- كلا يا ابنتي .. لا أريده ظلك وحتي إن كان ظل سعادة ، فالظلُّ يكون معتماً في وقتٍ تكون الدنيا كلها نور ، صدقيني هذا الظلُّ يتلاشى في الظلام ، فاجعليه رفيق دربك دائماً ، معاً تشدان عَضُدَ بعض وتبتهجان للدنيا وما فيها .. افهما جيداً أنكما شخصان وبروحين حتي إن تآلفت فستظلان روحين ، لكلٍّ منكما مسافته الخاصة حتي في الزواج ، تحترمان بعضكما ، وتحترمان تلك المسافة التي تهيئ النفس لتلك السكينة التي تتكلمين عليها ، وتلك المسافة تعطي الكثير من الثقة والحب والراحة .. علي سبيل المثال : هل تريدين أن يعلم مصطفي سبب عدم ردك

عليه ؟! بالتأكيد لا .. فإذا احترمتما تلك المسافة هو لن يظل يسألك وسيعرف أن الأمر ليس له علاقة به ، وأنكِ ستلجئين إليه في الوقت الذي تحبينه لتخبريه أو تستشريه ، ولكن اعلمي أنه من حقه أن يسأل إذا ظهر عليك الحزن أو أستشعر منك التيه ، من حقه أن يطمئن علي قرة عينه ، أوليس تقولين لي أنكِ قرة عينه ورضوة قلبه !

فضحكتْ رضوي خجلةً ، وهمتْ لتذهب عند أمها ، ولكنَّ أباها أوقفها قائلاً لها:

- أنظري يا ابنتي ! كثيراً من الناس يا صغيرتي سيعتقدون أنك صلبة كفاية أنك لم تحزني يوماً ولم يذرف لكِ دمعاً ولم تنجرحي ولو لحظة ولم يضجر ما بداخلك من كثرة أنينك ولو لساعة بل ولو لثانية ، وأنك لم تسطيعي النوم ولو لجزءٍ من ليلة ، كأنَّهم يا صغيرتي يستكثرون عليك صلابتك الهشة المهمشة ، يستكثرون صوت ضحكك ، أتعلمين وإذا حزنتي سيتكثرون عليك حزنك ! فانتقي من تريديه معك حتي يكون سندك وعونك ، لا ليكون ظلك كلا ، بل ليكون هو وبقلبه جزء منك .. احفظي هذا الكلام جيداً ، وأنا أقوله أمام زوجك حتي يذكرك به عندما تتزوجين ، وحتي لا يتكرَّرَ ما حدث الأسبوع الماضي أنا ... .

استوقف الأب كلامه حتي لا يثير فضول مصطفي ، وحتي لا تغضب ابنته التي طلبت منه أن تستأذن لتذهب إلي أمها ، ففهم

أنها لا تود أن تتكلم فيما حدث أمام مصطفي ، فأذن لها أبيها ، فقال أبيها لزوجها:

-اسمع يا بني .. أقسم لك أنك ابني ، ولكن عليك أن تفهم أن لدي رضوى عيب صعب تحمله ، ألا وهو أنها تكتم بداخلها حتي لا تُحزن أحداً غيرها ، ولهذا يأتي عليها وقت وتنفجر فيه وانفجارها في صمتها وكأنَّها فقدت القدرة علي فهم ما أوصلها لهذه الحالة ، رغم أن الكتمان يقتل صاحبه ، فهو ينتقص من حلاوة روحه و براءته ويشعر بأن قلبه قد أُطفأ .. كيف أنا لا أعلم ولكني أشعر بابنتي .. أراقب نظراتها فأري أن عيناها فقدت المرح الذي كان يظهر عليها ، وملامح وجهها أشعر أنها ليست بعادتها ولكن ليس هذا فقط ، أنا أظن أن قلبها يشيخ فأظل أفكر لماذا هي بتلك الحالة ! وهل هي حزينة من أحد ؟! ولكني أتساءل هل الشخص الذي أغضبها يستحق ، وهل هو أيضاً حزيناً ، لن أقول بقدرها ولكن هل هو فقط حزينٌ ؟! وهي يا بني لا تتكلم ولا تناهد في هذا الوقت وكأنها سافرت بقلبها وفكرها إلي مكان الضيقة والخنقة والعتمة ، وهذه كانت حالتها طيلة الأسبوع الماضي فيجب عليك أن تطيل بالك عليها ، فبعد سنتين ستكون في بيتك وأنا لن أتحمل فكرة أن تُغضب ابنتي وأنا سأحاول أن أجد حلاً لهذا الموضوع حتي لا ترهق روحها وقلبها الصغير أكثر من هذا ، مع أنِّي حاولت كثيراً ولكن سأحاول وسأدعو الله لكما

أن يوفقكما لصالح الأمور دائماً ، وأنا أعلم أنك ستصونها بقلبك وفكرك ، ولكني أخبرك أنه حينما تكون غاضبة تكون هكذا حتي تتفهم هذه الحالة ، ولكنها ستقول لك في النهاية ماذا كان بها فاصبر عليها وأنا سأستأذن الآن وأتركك معها .

قال الأب هذا الكلام ونادي علي ابنته لتجلس مع مصطفي ، فجاءت ضاحكةً سعيدةً وقالت مندفعةً :

-مصطفي لدي خبر سيفرحك وسيؤثر في نفسيتك ، لقد تمت الموافقة علي طلبي لسفري حتي أدرس في الخارج كما كنت أتمني وأحلم .

-لما تقولين أني سأتأثر وكأنك تقولين أني سأغضب !! صدقيني أنا أفرح بكِ و أفرح لنجاحك ، أنت من ضمن شروط زفافك أن يتم بعد سنتين ، أي أنك كنتي تطمحين لهذا فكيف تتخيلين أني سأغضب !! أنت زوجتي ، صديقة روحي ، ورفيقة قلبي .. أنا لا أنكر أني قلق من أن تأتي لكِ تلك الحالة وأنت تعيشين لوحدك فلا يلحقك أحد فتعانين حتي تسترجعي حالتك الحقيقية .. هذا ما يقلقني .

قال هذا الكلام وكان فرحاً حقاً ، ولكن كان يستولي علي قلبه شعور رضوى الأسبوع الماضي ، كيف كانت وماذا حدث لها !! لدرجة عمه الذي كاد يبكي ولكنه قرر أن يفرح لفرحتها فكان فرحاً لأنها سعيدة الآن ليس لأنها قبلت في المنحة ، وكانت

الابتسامة تزين وجه رضوى وقالت :
-لا تخف ، أعرف أن توقفي عن التنفس شيءٌ ليس هيناً ، خصوصاً عندما أتشقلب وأظل أقوم بحركات ليست مفهومة ، هي حقاً تخيف من أمامي ... .
تنهدت رضوي وهي تنظر للأرض ثم رفعت رأسها وأكملت حديثها بنبرة المتذكر الذي يتأوه علي ماضيه قائلةً :
- لا أنكر أن حالتي صعبة ولكن أتعرف ؟!
أنا أتذكر أني طردت من فصلي في مدرستي وذهبت لمدير المدرسة بسببها ، وفي مرة أتُّهمت بالجنون وأنني ممسوسة أو ملبوسة بسبب تلك الحركات التي تكون في حالتي الشديدة ، ولكن لا تقلق فإن الله معي يراني وسيدبر لي أمري ، ربما أنت لا تقلق من حالة كحتي وتقلق من حالة ضيق التنفس ، ولكن أيضاً لا تخف .
أرادت أن تغير الموضوع فقد تحولت ملامح زوجها من فرح لإلي حزن فقالت :
- أريد أن أسألك سؤالاً .. كم عمري ؟ أنت تقول لي في جوابك أني لم أبلغ العشرين بعد ... .
صمتتْ رضوى ولم تتحدث عندما رأت لمعة في عين مصطفي ، فكان بداخله ألم لم يستطع أن يخفيه فهي من تعابير وجهها ، وتنهيدتها قد نقلت له شعور الألم الذي شعرت به خلال تلك المواقف في السنوات الماضية ، فكان قلبه ينفجر لشعورها ، فسألته

ما به ، ولكنه لم يتكلم وبكي فصدمت من بكائه ، وحاولت أن تهدأه ولكنها لم تستطع بل أحتضنها مصطفي ، فتعجبت ولم تفهم لما يبكي ، ولكن أمها دخلت عليه بعدما سمعت صوت البكاء فوجدته علي هذه الحالة فخرجت بهدوء ، لأن مصطفي لم يكن منتبهاً لها فلم تُرد أن تحرجه وأصدرت صوتاً بعد خروجها ، ونادت ابنتها وهنا رضوى حاولت أن تكسر تلك الحالة التي فيها مصطفي فمدت يدها إلي الطاولة وأحضرت زجاجة المياه وربتت علي كتفه فبعد عنها وأعتذر علي ما فعله ، فلم تتكلم رضوى ولكنها أعطته الماء فشرب وقرر أن يمشي .

تعجبت منه ولكنها لم تتكلم فحالته كانت غريبة لا تسمح له بالكلام ، وبعد أن رحل ظلَّت رضوي في مكانها وكأنها تخشبت ، حتي دخلت عليها أمها فقالت:

- رضوي ! هل أنت بخير ؟!

فردت عليها رضوي هائمةً:

- لا أعرف هل هو بخير ؟!

-أنا أعرف انك تتحدثين عن مصطفي ، أنا لم أكن أنوي أن أقول لك إني رأيته ... .

لم تكد تكمل كلامها حتي فهمت رضوي قائلةً:

-صدقيني يا أمي أنه لم يقصد .

- لا تكملي كلامك .. أنا ما كنت لأقبل زواجك سوي علي من

ائتمنه عليك ، ولكن أنا رأيته يبكي سأقول لك الحقيقة .. أنا رأيت طفلاً يبكي في حضن أمه ، كأنه كان يزيح همّاً من علي قلبه .
لم ترد رضوي ، أن تستكمل أمها الكلام بهذه الطريقة ؛ لأن الكلام سيتجه لما كان في الماضي الذي لم تتجاوزه أمها بعد ، وهم يعرفون كلهم أنها لم و لن تتجاوزه ، ولو أُعطيَ لها عمراً فوق عمرها المقدَّر لها أو حتي ضاعفوه آلاف المرات ، لهذا قالت :
- أنا يا أمي شعرت بالقوة .. شعرت بخوفه وقلقه عليَ كأن الحزن المعشش في العالم كله اختفي بين ذراعيه .. أنا لمست دقات قلبه ، كانت تتصارع ، تتزايد وكأنها تقول لي ستبعدين عني يا صديقة دربي ، وهو كان خائف عليَّ في سفري .. كيف تتضارب المشاعر يا أمي !! كيف يكون فرحاً لسفري وخائفاً عليَّ وحزيناً لبعدي عنه !!
- هل هو قال لك هذا !! لأني أظن أن زوجك أظهر اليوم ما كان يخفيه منذ أيام ، هذا الألم الذي كان في بكاؤه كان ينُم عن وجع قديم ليس وليدَ اللحظة أو اليوم .. أنا لا أريد أن أقلقك ولكن ربما بُعدك عنه زاد ما به .
كانت أمها تشعر بأن به شيئاً يبكيه غير سفرها ، و لكن ابنتها ردت عليها قائلةً خجلةً :
- أنا يجب أن أبعد لأحقق حلمي فكما هو حلميَّ الكبير الذي أملكه ، لدي أحلام أخري لنفسي .. هو الذي شجعني أن أحلم ،

أن أعلوَ بطموحي ، والآن تقولين لي أنه حزين لبعدي عنه !!

- أنت كما أنت لا تفكرين في كلامي كله ، بل تأخذين بعضه ، أنا قلت لك أنَّ الوجع لم يكن وليد اليوم .

- ماذا تقصدين يا أمي ؟!

أرادت الأم أن تجعل ابنتها تفهم ما زاد ألم زوجها فهو بطبعه خجل ، وكونه احتضن ابنتها وبكي ، ثار هذا بداخلها شعور أنَّ به مكروه يؤلمه فقالت لها :

- غيابك عنه دون أن تخبريه .

تبدلت نبرة الأم واستكملت حديثها بملامح غضبٍ :

- أنا أخاف أن أتجادل معك حرصاً علي مشاعرك ، ولكن أخبريني أين كنتي طيلة الأسبوع الماضي ؟! أين كان قلبك وروحك وفكرك ؟! إذا كنتي تظنين أنك متواجدةٌ معنا ، فكلا .. أنت لم تكوني معنا لا أعلم ولكن أحياناً أخاف عليك من أن يتمسك قلبك بالحزن فلا تستشعرين بنفسك إلا وقلبك به هم كبير ، ستكونين في عزلة مُوحشة وأنيسك الوحيد فيها سيكون حزنك ، أنا لم أسألك عن السبب خلال الأسبوع ولن أسألك الآن وصدقيني لا أريد أن أعرف سوى أنك ستكونين بخير ، لا أريد أن أفقدك يا رضوي ...

الفقدان ليس بالموت ولكن الفقدان قد يكون فقدان روحك الحلوة المرحة بكثرة الأحزان التي دون أن تدري تكون أوهام تنساقي ورائها ، افهمي أنَّ لكلِّ حزن حدَّه ، إذا لم تساندي عقلك

وتمدي له يد العون ليخرج من تلك الحالة التي كافية لتقضي علي عقل في ريعان شبابه ، فأنت يا بنيتي لا تظلمين نفسك فقط ولكن تظلمين من يحبك ، فما ذنب زوجك الذي بعدتي عنه ولا يعلم السبب .. ألم تؤرقيه من حياته كلها ليس من نومه فقط ، بل حتي من فكره !! ألم يتساءل لماذا غبت !! ألم تأتي الأفكار علي ذهنه أنك مريضةٌ غاضبةٌ منها !! أيعقل أنك اقتنعت بكلامي بدون أن تجاوبي ؟! أنت لا تفكرين سوى ... .

استوقفت أمها حديثها فقد لانت لتلك الدموع التي لمعت في عيني ابنتها ، فأخبرتها بهدوء أنه عندما تكون غاضبةً لا تفكر بأحد حتي بنفسها ، فسالت دموع ابنتها فقالت لها أمها :

- يا بنيتي أنت زهرة عمري ، فحافظي علي الزهرة يا عمري ، وحصيلة صبري ، ومنايَّ أن تحافظي علي ضحكتك دائماً .

احتضنت رضوي أمها لأنها تعرف كم الوجع الذي تعانيه ، وتعرف أنها لا يمكن أن تحدثها فيما مضي بل يجب أن تساعدها علي تجاوز ما فيه .. كانت تعلم أنها لا تستطيع أن تحكي ما حدث ؛ لهذا احتضنتها لعلها تخفف عنها وتعوِّض عنها ، ولكنها لم تنفك تفكر في كلامها وعن مقدار الألم الذي تسببت به للجميع وخصوصاً هناء .

أقلعت رضوي عن التفكير ، وشعرت بدموع أمها التي تسيل في صمت ، ومن داخل هذا الصمت بل من عمقه يحدث انفجار

هائل ، بركان فيما قبل الثوران ، إنه قلب أمها .. تلك الأم التي لم تنسَ ولا تستطع أن تنسي وتتجاوز ، بل هي لم تستوعبْ بعد كل تلك المدة ، فكيف لها أن تتجاوز ؟! بل كيف لعقل أن يتجاوز شيء لم يستطع بعد أن يستوعبه ؟! فما بالكم بعقل الأم!! فقررت رضوي أن تتكلم علها تصحح خطأها وتمنع نزول مزيد من الدموع .

- أمي أنت قلتي أنني زهرة عمرك ، وأنا أعدك أني لن أفعل هذا ثانيةً حتي أحافظ علي عمرك من أن يذبل ، وسأحافظ عليه حتي آخر رمق ، ولكن يا أمي حضن الأم قد يكون تخفيفاً للألم ليس للابن فقط ولكن للابن والأم ، بل إنه قوة للأم فعندما يحتضن الابن أمه يعطيها قوةً ، هذا بذرةُ حبها وثمرةُ حياتها وأملُها ، كذلك نحن قوتك يا أمي .. استمدي صبرك منا وطموحك للحياة منا ، صبراً يا أمي .. صبراً والله هو المعين .

هنا أجهشت الأم بالبكاء وأسرعت الأم إلي غرفتها ، ظلت رضوي تبكي علي حالة أمها ، ولكن في صمت وأمها تنفجر داخل غرفتها حتي رجع أبوها إلي البيت ، وما إن فتح الباب حتي ارتمت في حضنه ، فتعجب أبيها !! فظل يمسح عن وجهها الدموع و يهدأ فيها ، وأخذها من أمام الباب و ذهب إلي الغرفة وأعطاها مياهاً وبدأ يهدأ فيها ، ولكنها كانت ترفض أن تهدأ ، وبدأ الأب يسمع صوت بكاء يأتي من غرفته ، ففهم فقال لها :

- إنها أمك ثانيةً .. صحيح ؟!
فانهارت قائلةً :
- بل أنا هذه المرة يا أبي ، أنا التي لم أعد أشبه ابنة أمي ولو قليلاً ، أنا التي تعتزل العالم كله عندما تحزن حتي نفسها ، فعندما أرجع لنفسي أجدني لا أعرفها ، فقد تغيرت كثيراً عن سابق عهدي يا أبي ، فكنت أنا سبب البكاء و ليس أمي .. أنا السبب في ألمها وصغيرتي هناء .. أنا التي تبتعد دون أن تفكر في مشاعر سوى مشاعرها .. أبتعد دون أن أُعلم الآخرين لماذا ابتعدت ، حتي أني لا أخبرك أنت سوى في نهاية الأمر ، حقاً إن الحب قد يجرحك أحياناً ويكون سبب شقائك ، وهذا ما فعلته لزوجي الذي جعلته يبكي اليوم ، لا أعرف لماذا وصلت الأمور لهنا ، وهل كان يبكي حقاً بسببي ، أمْ أنَّها تراكمات أتيتُ أنا لأزيدها ، ربما مع أمي .
حقاً إنَّ الأمور لن تحل بجواب أرسله له ، فماذا عن مشاعره في الفترة الماضية !! ربما أمي كانت متألمة لماضينا ، لهذا قالت لي هذا الكلام ، ولكنه كان حقيقةً ، كان معها الحق في كل كلمة قالتها لي .. أنا المخطئة يا أبي .. أنا و ليس أحد سواي ، والآن عاجزةٌ عن تصحيح وضع اختلقتُه دون علم نفسي حتي !!
صمتت رضوي و لكن دموعها لم تصمتْ ، كانت تتكلم بقهرٍ ، فقال لها أبيها الذي يعلم أن الماضي هو من قسا على العائلة كلها وليس هي أو أمها ، فهدَّأها وأخبرها أنه لا يحب أن يراها تثور

علي نفسها وتحملها فوق قدرتها .. أخبرها أنه عليها أن تعالج أمورها التي تحزنها في وقتها ، لا تجعلها تتمكن منها فتسكن قلبها وعقلها ، فتتمسك بها وتفسد عليها عيشتها ، فزادت دموع رضوي وعلا صوت بكائها ، فقال لها مستعطفّاً إياها :

- أمك يا ابنتي لم تكن تعرف ماذا بك ! وأنت لا تحكين لها شيئاً فخوفها عليك أكبر من أن تتفهميه ، وأكبر من أن تستوعبه هي بداخلها وألا تخرجه وهي تراكِ وأنت تتمادي في حالتك ، كأنها أصبحت واقعاً مفروضاً عليك ، كأنَّه فرض عينٍ وأنت الوحيدة التي تقومين به ، حقاً ليس هي فقط بل أنا ... .

صمت الأب قليلاً ؛ لاستشعاره أنه بدأ يعبر عن مكنونه وحزنه علي ابنته ، فأخبرها أنه لا يمكنه أن يترك أمها تبكي هكذا وطلب منها أن تكلم زوجها ، وتتحدث معه ولكنها شعرت بما به ، وهي كانت قد كرهت أن يستمر النقاش فيما فعلته أكثر ، فقالت له :

- أعلم أنك قلق عليها ، ولكنك تريد أن تذهب حتي لا تشعرني بشيءٍ ، ولا حتي تريد أن تقول لي عما بداخلك .. اذهب وأنا سأكلم زوجي .

ذهب الأب إلي زوجته فوجدها تبكي ، وكانت رضوي في الخارج تحاول أن تتماسك وتكتم ما بداخلها وتطمئن علي زوجها ، فاتصلت به ولكنه لم يرد ، وكيف له أن يرد عليها وهو مازال لا يفهم كيف بكي !! كيف عندما رأي حماته تدخل ظل محتضنها!!

فهو يعرف أنها ظنت أنه لم ينتبه ، ولكنه يعرف أنه كان منتبها لهذا الألم الذي يأكل ما بداخله ، ربما يكون تمسكنا بالحزن في بعض الأوقات يأكل من قلبنا وعقلنا ، يسيطر علي مشاعرنا ، كأنَّ هذا الحزن هو المهيمن .. هو المتحكم بصاحبه ، ولكن ربما نحن لا نتمسك بالحزن ، بل هو الذي يهجم علينا هجمةً مباغتةً فيأتي ليجعلنا عبيداً للخوف والقلق .

كان كل ما يدور في ذهن مصطفي كلام حماه عن الصلابة المهشهشة المهمشة ، وكأنَّ حماه يقول هذا الكلام له .

كانت الكلمات لها صدى كبير علي مصطفي ، حتي أنه أعتقد أنها المتسببة ببكائه ، فليس للجميع أب فهناك من مات أباه وهكذا كان مصطفي لم يكن معه أباه ليوصي أحداً عليه ، أبٌ مستعدٌ أن يحارب العالم أجمع من أجل أن يرى ضحكته وبسمته ، أو أن يسانده في تلك الظروف التي يمر بها ويكتمها بين ضلوعه حتي قربت ضلوعه أن تنفجر من الضيق ، فقرر ألا يرد لأنه لا يعرف ماذا سيقول لها ، وهو لن يستطيع أن يخبرها لأنه لا يعرف كيف آلت الأمور إلي ما حدث عندها ، ولكنه بسبب أنه لم يرد عليها ظلت تفكر في كلام أمها ، فبدأت تدرك أن الأمور أصعب مما كانت تعتقده ، فتذكرت صغيرتها هناء - أختها الصغيرة - فذهبت إلي الغرفة ولم تكن تعرف كيف تبدأ بالكلام معها وتبرر لها بُعدها وهي تعلم أن هناء مرهفة الحس فقالت :

- ما أخبار دراستك والامتحانات ؟!
نظرت لها هناء نظرةً تنم عما بداخلها من غيظٍ وغضبٍ ، وقالت:
- أنت تشبهين تلك الفتاة التي يتكلم عنها الدرس في كتابي ، فهي كانت جميلة و لكن عندما يحدث لها شيء كانت تبتعد دون أن تحكي ، ولكن ما لم يذكره الكتاب هو أنها لم تكن تشعر بأختها وهي تعرف جيداً أن أختها تعتبرها صديقتها ورفيقتها ، بل إنها لا تخطو خطوة دون أن تأتي وتأخذ رأيها ؛ فتقول لها كلَّ شيءٍ صغيرٍ كان أم كبيرٍ .
رضوي أنا لم أطلب منك أن تقولي لي شيء .. أنا أعرف أنك تعتبريني صغيرة ، ولكن سأقول لك شيء أخير في نهاية هذا الدرس ، كان هناك سؤال إجباري علينا أن نجيب عنه .. وهو لو كانت الشخصية التي في الدرس حقيقية ماذا ستقول لها ؟! وكأنَّ الدرس كان يتكلم عنك وأنا سأجيبك عنه .. سأقول أتمني ألا تبعد عن أختها ، أن تراها ، ولكن ربما هذه الشخصية لم يكن لها أخت فليس الجميع يمتلك أمَّاً ثانيةً يا رضوى !
شعرت رضوي بألم أختها ، وكانت عاجزة أن ترد علي أختها ، وظهرت عليها علامات العجز حتي نطقت قائلةً:
- أنا أعتذر عن كل ما حدث ، وأنا أعدك ألا يتكرر إطلاقاً .
و هنا قامت هناء واحتضنت أختها ، وقالت لها :
- هذا سيكون عهدك لي .

كانت الأحداث التي حدثت مع أمهما كفيلة لتبعد الأم عن ابنتها الصغيرة ، فكانت رضوي تراعيها و تتولي أغلب أمورها فنشأت علاقة مختلفة عن علاقة الأخوة بين رضوي وهناء ، فهناء لا يمكنها أن تبتعد عن رضوي ولو حتي فكرياً ، فكانت تكفي كلمة آسفة واحدة لتراضي أختها ، ولكنها لا تعرف كيف تصل لزوجها الذي كان يعلم أنها قلقة عليه ، ولكنه لو رد عليها يعلم أن قلقها سيتزايد ، فلم يَنَمْ أحدٌ هذه الليلة ، فالجميع كان ما بين بكاء ومواساة عدا صديقتها ندي المنفردة بذاتها وبما بها دون أن تشاركه لأحد ، حتي لا تشارك إلا بكائها مع ليلها ووحدتها التي تتغذي علي دموعها وصمتها المقهور ، وفي الصباح بعث مصطفي إلي بيت رضوي جواب بورد تحبه .. يعتذر فيه عما حدث ، فغضبت رضوي وكانت أمها معها في الغرفة فلاحظت تغير ملامح وجهها ، فسألتها إذا ما كانت الأمور بخير ، فردت عليها:

- هو يرسل لي جواب ليعتذر عما فعل وكأنه لا يعلم أني قلقة عليه .. أنا لم يغفل لي جفن طيلةَ الليل .. أنا قلقة عليه .. لا أعرف ماذا أفعل !!

فقالت أمها بنبرة تُنَفِّسُ فيها عن غضبها :

- أنت تظنين يا بنيتي أن الجواب كان الحل الأمثل بالنسبة لك عندما أرسلتِ له الجوابات ، وعندما يفعل هو تشيطين من الغيظ!!

صمتت الأم مندهشةً من طريقتها ، وكأنها تواجه ابنتها لا تناقشها ، فوضعت يدها علي كتفها ، وقالت هادئةً:

- ربما زوجك لديه مشاكل .. اصبري عليه .. امهليه من الوقت حتي يخرج عن حالته تلك ويتكلم معك .

فقالت رضوي مندفعةً :

- أتركه هكذا وأنا أعلم أن به شيء !

- اسمعي يا رضوي ، تكلمي معه ، حاولي أن تراسليه ، وربما يكون مُجهد ولا يريد أن يزعجك .

- يزعجني !! مصطفي لا يفكر هكذا يا أمي ؛ لأنه يعرف أني سأقلق عليه وهو يعرف هذا الآن ، إذن لابد أن به شيء ليس بالجيد .

ولم تكمل رضوي كلامها حتي قرع الباب ، فذهبت أمها فوجدته هو فأدخلته وذهبت لابنتها تقول لها ضاحكةً :

- لقد جاء الذي لم يهُن عليه أن يزعجك .

فنظرت لها رضوي ضاحكةً فلبست وخرجت له ، فما إن رأته حتي سألته بنبرة تعجبٍ :

- هل أنت بخير ؟!

نظر لها مصطفي و كان قبل أن يخرج من بيته جاهز للرد عليها ، ولكن اندفاعها في سؤالها عنه جبر خاطره ، وأدخل عليه الرغبة لأن يتحدث فقال لها :

- أعرف أن هذا ليس ما تودين أن تسألي عنه .. أنا سأخبرك لماذا أنا هكذا الآن !! لك أن تتخيلي أن تنقلب حياتك رأساً علي عقب بمكالمة تليفون !! هل بإمكان تخيلك البريء أن يصل لهذه المرحلة ؟!

ردت عليه رضوي ولم تكن تعلم عما يتحدث عنه قائلةً:

- إذا عجزت مخيلتي فأتمني ألا يعجز فهمي ، فليتني أفهم .

فأخبرها أنه طوال الأسبوع الماضي الذي لم ترد فيه علي اتصالاته ، هناك من رن عليه ليخبره أن أمه في المشفى ، فاتصل بها لتطمئنه عليها وأن تذهب إلي أخته لتجلس معها ، فكان في دوامة .. كان صعب عليه أن يتخيلها - في حياته كلها - لتضحي .. واقعٌ عليه أن يشرحه لها الآن ، وما زاد الأمر صعوبةً أنه ما كان بمقدوره أن يرجع إلى البلد ، حيث لم يتوفر حينها تذاكر، فكان ردها بمثابة طوق النجاة ليطمئن ، فحاول أن يأتي بطائرته الخاصة ولكن الدولة رفضت ، فما إن توفرت التذاكر ورجع ذهب إلي المشفى فوجد أمه في الرعاية المركزة ، فأخبره الطبيب أن حالتها غير مستقرة ، وبعد يومين وحتي الساعة الرابعة فجراً من اليوم الثالث أعيدت لروحه الحياة ورُدت إليّه أمه بعد يومين من الغيبوبة .. يومين منقطعة فيهما عن الدنيا ومن فيها حتي عن ابنها .. عن ابنتها التي تنام كل يوم مسنودةً علي ركبتيها تاركةً مدرستها وكل شيء ، وجالسة بجانبها .. بدأ يشعر انه سيبكي فنظر إلي عينيها وقال

بهدوءٍ :
- كنت في هذا الوقت لا أعرف كيف أتنفس .. كنت أريد من يمسك بيدي ويخرجني من المشفى ، وهذه اليد ستكون يد أمي فقط .. كل هذا أرهقني ، وزادني إرهاقاً حالةُ أختي الصغيرة .. كانت تزيدني وجعاً ومهما حاولتُ أن أطمئنها كانت تشرد بنظرها إلي أمي فظللّتُ قلقاً .
بدأ يحمر وجهه و تلمع عيناه ، وأخبرها أنها تعافت وأن الغيبوبة كانت بسبب تناول خاطئ لعلاجها ، فنظرت له و كأنها لا تصدقه ، فقالت له بنبرةٍ حزينةٍ:
- ما هو سبب بكائك يا مصطفي ؟! نحن تعاهدنا علي الصدق .
فقرر حينها أن يفضفض بكل ما به عله يزيح هذا العبء ، فأخبرها أنه كان بسبب كلام أبيها ، بل بأبوة أبيها الكريمة ، فرأي رضوي تنظر له لا تفهم ، فقال لها هادئاً شارداً بعينيه :
- الأب هو معني كلمة الصديق والسند .. معني المسئولية والاهتمام .. معني أن يكون لي أب !
صمت مصطفي ، وتأوه بحرقةٍ واستكمل حديثه قائلاً :
- واااااه يا رضوي من هذه الكلمة .. لقد اشتقت لقولها .. هذه الكلمة التي تثلج نار العالم كلها ولهيبه .. الأب هو الحب بدون مقابل ، فعندما تكونين علي حافة الانهيار قد تكون أمك تموت عليك ولكن من يستطيع أن يتماسك ليخفي ما بداخله ويستحضر

روح الهدوء التي بداخله التي مرت بآلاف من جزيئات الحب المتناثرة من الأهل والتي مرت بآلاف الأطنان من الأحزان وقاومت لترفع من شأنك هذه الروح تكون الأب ، الذي لن يتركك لتصلي لحافة الهاوية وكأنك علي شفا حفرة من السقوط من علي أعلي جبل ، حتي إذا حدث ووقعتي ستجدينه يقع ورائك ليتلقفك ويصعد بك من جديد .. قد ينتظرك آلاف الأشخاص ليتلقفوكِ ولكنه وحده من يخاطر بنفسه لينقذك من فوق ليس لينتظرك من أسفل ، وعندما نفقد الأب من حياتنا يا رضوي تأتي الأم لتتحمل مسئوليته بجانب مسؤوليتها ، ولكنها لا تعلم أن قلوبنا تحملت المسئولية دون أن ندري بها ، حتي نظراتنا وهمساتنا وضحكاتنا وكأنها تقول اثبت وقف علي قدمك وليحترق قلبك ناراً ، ولكن لا تظهر بخارجك سوى الفرح ، فمن كان سندك ويفهمك قد مات .. من كان يرمي بنفسه للهاوية لينقذك قد غادر للأبد .. فتبدئين تخشين الهاوية وتخشين المرتفعات من المشاعر والتعلق ، فتبدئين تعشقين الذكريات والعزلة مع صورة أبيك ، ليس شرطاً أن يكون عزلة بمعناها الفعلي ولكنها يا عزيزتي عزلة القلب عن كل ما حوله ، ولا يوقظك إلا الأنين المتفجر في صوت أمك وخوفها عليك من العزلة ، فتبدئين تعيشين مرحلة جديدة لم تعهديها من قبل ، وما زاد الأمر كلام أبيك البارحة عن الصلابة المهمشة الهشة ، فقد انفجر ما بداخلي ولكني بخيرٍ الآنَ .

كانت رضوي تسمع كلامه وتشعر بألم ما فعلته بغيابها عنه ، ولكنها تذكرت كمّ الآهات في صوت أمها وحالتها البارحة وهناء وأبيها ، وكلام مصطفي عن العزلة علي أن النوع الذي عاشه مصطفي من العزلة مختلف عن النوع الذي عانت منه ، فحاولت أن تُصمت ذاك التفكير الذي يمثل وحشاً يسيطر علي فكرها ، ويشرِّد كل شيء يأتي علي خاطرها إلا فكرة واحدة وهي تأنيبها ، فيأخذها فريسته نتيجةً لغلطةٍ دفعت ثمنها إلي الآن ما يكفي أن يرجعها إليها مرة أخري لتعتكف على نفسها وعلى ألمها ، وتنتكس .. فحاولت أن تقتله لتعطف علي عقلها ، وكانت رضوي تجيد طريقة هلاكه وهي الكلام والفضفضة ، فقالت بنبرة يملأها الحزن والألم :

- سأقول لك أنا منهكةٌ من تأنيب نفسي .. منهكةٌ من دفعكم كلكم ثمن غلطتي ، ولكن أنتم كُثُرٌ وأنا واحدةٌ ، حقاً لا أعرف ماذا أقول !! هل أنا الوحيدة المتسببة بألمكم هذا ، أم أنني وغيابي كنت السبيل لخروج ألمكم منكم ؟! لا أشعر الآن سوى بدماغي تؤلمني وكأنها قطعة قماش ينكمش كل جزء منها علي حدة دون مراعاة الجزء الأخر ، فأتألم في صمت ، لا أعرف ماذا أقول سوى أني آسفة وألف سلامة علي والدتك !! ولكن صدقني أنَّ الذي بحاجة ماسة إلى الاعتذار والمؤازرة هو أنا .

صمتت رضوي ظنَّاً منها أنها تسلب حق مصطفي في حزنه ، و

كأنها تزيد ألمها بألمه فأشار لها أن تكمل ، فقالت بنبرةِ شخصٍ تلقَّفته الأحزان حتي أوجعته :

- أنا بحاجة إلي أن يمسك بي أحد ليخرجني من بؤرة تفكيري وشعوري بالذنب علي كل من حولي ، فنسيت نفسي تماماً لأؤلمها مرةً أخري ، ولكن هذه اليد ستكون هذه المرة وعدٌّ أقطعه أمام نفسي وأمام الله ألا أدخلها وأرهقها في حالة من العزلة التامة حتي من نفسها ، وأنا حقاً آسفة لكَ ولي ولكل من يعرفني ، سوى واحدةٌ فقط لا تستحق سوى الابتعاد عنها فهي السبب فيما حدث خلال هذا الأسبوع كله .. هي التي تلام كل اللَّوم ، كل البكاء الذي ذرف في هذا البيت خلال الأسبوع الماضي كان بسببها ، أتمني لو كنت لم أرها في حياتي من قبل !! كيف لمن تعتبرها أختاً لك تجرحك وتقول كلام يهينك ؟! لا أفهم شيئاً حتي من كل تلك المعاناة التي في البيت من كل شيء .

أراد مصطفي أن يفهم منها ماذا حدث ؟! ولكنه أرادها أن تحكي هي ، مُظهراً علي ملامحه رغبةً أنه يود سماعها ، ولم يكتفي بل قال لها :

- أنا أفهم معاناتك ولكن لماذا كل هذا الغضب من شخصٍ ؟! لا يعقل أن تكرهي أحداً كنت تعتبرينه أحد من عائلتك في ظرف أسبوع !! لا يعقل بل إنه يعدُّ انتهاك لعلاقة الصداقة في الأزمان كلها .. ربما كنتما أنتما الاثنان فريسةً لسوء تفاهم طريدٍ لمواجع

تخفونها بداخلكما ، إما أن تكون علاقتكم هشة لدرجة لا تتحمل سوء تفاهم فلا تلوميها .

أنا أقول هذا خوفاً عليك ، لا أريد مواساتك في شيء لست متأكد من صحته ، وكما قلت أنت يجب عليك أن تواسي نفسك وتخرجيها أقوي ومستفيدة من كل ما حدث ، وإذا كنتي حقاً تريدين أن تتخلصي من سوء التفاهم و تخرجي من تلك الحالة ، حاولي أن تري صديقتك لربما يكون بها شيء ، أو لربما يكون لديك حق فتتخلصي من ذاك الفكر الذي يقتل المتعة في حياتك ويفرض عليك العزلة وكأنها الوضع الطبيعي ... .

- رضوي ! رضوي !

كان صوت هناء تصرخ تنادي علي أختها وتقول أمي ، فهرعت رضوي إلي أختها تاركةً ورائها زوجها لا يفهم شيء ، فلم يكن يعرف ماذا يفعل !! أيذهب معها ، أم ينتظر ؟! ولكن إذْ به بعد ثوانٍ قليلةٍ يسمع صراخ رضوي تنادي عليه ، فأسرع مصطفي فوجد حماته على الأرض قد أغمي عليها ، فرفعها معها ووضعاها علي السرير ، فطلبت رضوي من أختها هناء إحضار الحقنة واستأذنت مصطفي أن يخرج .

خرج ولكنه حقاً كان قلق وربما هذا القلق كامن في قلبه بسبب ما حدث مع أمه ، فكانت حالة أمه مازالت في عقله كأنها الآن ، فكان قلق لدرجة جعلته يتصل بأمه ويطمئن عليها فاطمئن عليها

، ولكن أمه شعرت بخوفٍ في نبرةِ صوته فسألته ، فأخبرها أنه بخير .
تذكر بعد أن اطمئن علي أمه حادثة حدثت مع أمه و أخته الصغرى ، حيث سُرِقَ هاتف أمه منهما في الشارع فظلت أخته تبكي ومنهارة من البكاء ، فلاحظ الناس ولكن حينما كانوا راجعين إلي البيت وهما في الأتوبيس إذ بسيدة يشدها بكاء أخته ، فسألتها فأخبرتها أمه أن هاتفها قد سرق فإذ بهذه السيدة تقول لفتاة بجانبها بتلقائيةٍ - هل معك هاتفي ؟! تأكدي منه !! - أخبرته أمه أنها فهمت أن الفتاة ابنتها الصغرى ، ولكن هذه السيدة كانت قلقة حقاً ليس علي أخته بل علي هاتفها ، ثم أتت إلي أخته وأمه فحاولت أن تواسي المرأة أخته ، ولكن إذا بأمه بعد أن رأت ما فعلته السيدة تشير لها أن تصمت وملامح أمه مليئة بالغضب ، فحاولت المرأة أن تتكلم فأخبرتها أمه أن تصمت .
كان حقاً ناقماً علي هذه المرأة ، وكان يري أن سؤالها لابنتها عن الهاتف جبروت منها !! تعجَّب من فعلتها وكانت أمه غاضبةً من طريقة كلامها مع المرأة ، ولكنه كان يري أنها لم تفعل شيء مقارنةً بما فعلته المرأة مع دموع أخته وقهرها علي هاتفها ؛ لتذكرها أن هاتفها ضائع .
كان يمازح أخته ويخبرها أنه ربما كان يوم السرقة العالمي ، ولكن بعد قلقه علي أمه بسبب أم رضوي التي تركها طريحةَ الفراش

موجِّهاً كل قلقه علي أمه ، جعله هذا يدرك أن الأمور أعقد بكثير مما يراها .

كل هذا دار في عقله ، وما أوقفه هو صوت حماه الذي سلم عليه ويسأله لماذا يجلس وحده ! فأخبره أنها مع أمها لأنها مرهقةٌ قليلاً فأسرع الرجل إلي زوجته مع أنه كان يعلم جيداً ما بزوجته ، وأن هذه حالتها المعتادة التي أصبحت جزءاً من حياتها الطبيعية ، بل من روتينها اليومي ، وطلب من رضوي أن تخرج ولكنه أمرها بأن تغسل وجهها حتي تمسح ما علي وجهها من دموع ، مع أنه كان يعلم مقدار الدموع التي تكتمها ابنته ، ليس بين جفني عينيها فقط بل في قلبها ، وأخذ هناء بعد أن هدأها إلي غرفتها ، وخرجت رضوي إلي مصطفي ولكنها لم تكن في حالة تهيء لها الكلام ولا حتي أن ترد ، بل كانت في حالة من التوهة والفكر المشرد ، وليس هي وحدها بل أختها أيضاً ، كلاً منهما لديه أسئلته المختلفة بسبب إغماءات أمهما اليومية .. إلا أن زوجها كان يشعر بمقدار الألم الذي يتضاعف أضعافاً لا حصر لها قبل أن يغمي عليها ، وكان يسأل نفسه دائماً ما إن كان يغمي عليها حقاً ، أم أن مخها يحاول أن يرفق بنفسه من كثرة تعبه ووجعه علي حالة قلب صاحبته ؟! فكان يأخذ القرار الذي لا تستطيع العين أن تأخذه فيغمي عليها ؛ ليرغم تلك العيون التي لا تكاد تغفل في الليل ولا في النهار إلا بالإجبار تارةً وبالإغماء تارةً

وبالمنومات تارةً أخرى ، وكأن تلك الأعضاء أضحت تضج مما بها فتحاول أن تخفف عن صاحبتها ، حتي ولو كانت ستقع وتتألم فإنها تعلم أنهه مهما كبُر حجم الألم الجسدي ومهما عظُم فلن يأتي ولو عُشر مثقال ذرة من ألمها النفسي التذكُّريّ .. كان كل هذا يدور في خاطر زوجها وهو ينظر إلي زوجته ويتحسس شعورها بالقهر الكامن بين ضلوعها ، ثم قال لها هامسًا :

- أعلم أنك ستسمعينني وستشعرين بوجودي بيدي تلمس وجهك ؛ لتمسح دموع الماضي التي تسيطر علي حاضر عائلة بأسرها .. دموع تأبي أن تجف و أنت حتي مشردة الفكر ، حائرة البال .. أنا لدي ما أقوله لك وأتمني لو أن هناك جزء من عقلك لم يطوله الحزن ويتملكه القهر؛ لتشعري بما سأقوله ، وتستمعي لي .. أنا أحبك .. ربما أخطأت في حقك وساهمت في أن أصل بك إلي هذه الحالة ولكن صدقيني أنا أيضاً أحاول أن أوضح لك أنني آسف ، أنَّ بداخلي جزء يقتل بالإكراه يومياً برؤيتي لحالتك تلك ، ولكن أكتم دائماً بداخلي الكثير من غضبٍ وبكاءٍ فأبكي في صمت علي حب الحياة ، علي كل آهة تنطقها روحك فلا يسمعها أحد في العالم .. ليختلط نفسك بالهواء فيحملها ، لتلاطف الدموع المسجونة بين ثنايا تفكيري لتقول لي أنك تموتين ألما .. أنَّ الألم يأكل ما بداخلك ، وتتآكل كل الذكريات وتتلاشي من الوجود ، كأنه قد حدث لك فقدان ذاكرة شامل لحياتك كلها إلا ذكري

واحدة تعيشين عليها هذا الألم الجم !!
لا أعرف ما أقول .. أأقول لك أن الحياة لا تتوقف علي شخص !! ولكني أشعر بروحك تقول لي كل عقارب الساعة قد توقفت ، كل شيء قد توقف ، صوت حبك ، صوت نبضك ، بناتك ، وأنا ! ماذا أكون أنا بغيرك أنت ؟! من أنا سواك ؟! أنا العاجز الباكي الصارخ في وجه ذكري تأبي الرحيل .. كل الذكريات هي ضيوفٌ في حياتنا لتبهجنا مرةً وتبكينا مرةً ، ولنتعلم منها دروساً للحياة ، ولكن هذه الذكري أضحت كالضيف المقيم ، كالسيف الذي يُنهش به جزء من فرحتك كل يوم .. لماذا تظلين هكذا من أجل ذكرى؟! أنا أتساءل متى ستنفجرين ؟! متى ستخرجين عن طورك ؟! متى ستحركين ساكناً بمشاعرك القاتلة ؟! تلك هذه الذكري تقتل فيك كل شيء يمكن للإنسان أن يفرح به ، الذكري التي إن كانت بمثابة سيف عليك فهي كذلك ، ولكنها لا تنهش من فرحتنا بل تنهش من وعينا وإدراكنا للدنيا .. ما عدنا أنا وبناتك ندرك شيء كأنها تقتنص من مشاعرنا ، من يومنا ، تجعل بناتك لا يتمنون إلا شيئاً واحداً وهو أن تذهب تلك الساعة التي تفقدين فيها وعيك فيرون أمهم بهذه الحالة فيبكون .. ابنتك هناء لم تفهم بعد ماذا يحدث لكِ ولماذا أنت هكذا !! ورضوي ابنتك التي تعمل لتجني مصاريف إقامتها في الغربة ، وتهتم بهناء أختها عندما تسألها لماذا يحدث لأمي هكذا ، فتخبرها أنه ابتلاء و الابتلاء لا يعالج

إلا بالصبر !! فما بالك بشعوري وسماعي لآهات ابنتك الصغرى في سؤالها ، ووجع ابنتك الكامن في إجابتها ، أما أنا فأستشعر بالذنب علي ما فعلت ولربما لم أفعل شيئاً .. لا أعرف إذا كنتي ما زلتي تشعرين بشيءٍ ، أمْ أن ذهنك وحدسك وكل مشاعرك ما زالت عالقة في هذا اليوم بمكنونك ووجودك !! أنا حقاً أشتاق إليك ، ودموعي التي تسيل الآن كانت تشتاق لك ، تلتهب من أجلك حتي إنها سالت لأجلك و كانت بداخل عيني سجينةً ؛ لأنها كانت تأبي أن تنزل و أنت صاحية حتي لا تحزني ، ولكن أيُّ حزن آخر ستحزنينه ! وهل يوجد حزن بعد الذي أنت فيه !! ولكن صدقيني أنا أشتاق لك .. أشتاق لنفسي .. فمن أنا بدون ضحكتك وهمسك في أذني إن الله معنا ، بتُّ أحن لتلك التفاصيل التي كنت تقولين لي أني أستهون بها وأنا كنت لا أرد ، سأرد عليك الآن .. هذه التفاصيل كفيلة لتبني بيوت من السعادة العامرة التي تغمر قلبين تعاهدا أن يحاربا الدنيا معاً ، وأن ينصرا حبهما علي الظروف يا حبيبتي.. ربما تعتقدين أن الصمت هو الحقيقة اليقينية كالموت ويوم القيامة .. ربما ترين في الصمت باب من حياة أفضل بالنسبة لي أنا ، أو ربما رأيت أنَّ البعد عن الدنيا هو أفضل سبيل لما عانيته ، ولكن الأكيد الآن يا معشوقتي الأبدية أنني بدأت أهذي في كلامي ، فكيف يكون الصمت أفضل لي !! أوَتعلمين ؟! لما لا .. ففي اعتقادي أنا أول من سيُصبُّ عليه غضبك

صبَّاً ، حتي لن تستوعب دماغي ما أنا فيه حينها .. أنا أعلم أنك ترينني الملام وبعد كلامي هذا ربما يُسخَّرُ شعور بداخلك ؛ ليعتقد أنني ألومك الآن فيراني ويشير لي مستهزءاً ، قائلاً - هذا اللائم والناصح ، كيف؟! - ، فأسمعه يضحك عليَّ ، لا أمانع بل اجعلي حزنك ينتظر و أخرجي ذاك الشعور ليضحك عليَّ ؛ لأسمع صوت ضحكك مرةً أخري حتي إن كان عليَّ .. لا أهتم و لن يفرق معي سوى صوت ضحكتك وإن كنت أتمني وأن أقول ملامح ضحكتك ، ولكني أعلم أنها ستكون ضحكةً حزينةً متعفنةً برائحةِ ذكرى كريهةِ الرائحةِ ، خانقةٍ للروح ، قاتلةٍ للنفس لأيِّ شعورٍ بالجمال ، ومع ذلك أريد رؤيتها لعلها تكون البادئةَ لضحكةٍ تُفرح النفس وتنعشها .

أنا أشتاق لمن كانت تقول لي أني ابنها في ألمي ، وأنها ابنتي في ألمها ، وأني كنت ألعب دور الأب في وقاية مشاعرها من التوجع ففشلت وصرت أشتاق لك ، أشتاق لأمي وابنتي وزوجتي ، أشتاق لجزء مني ، تحنُّ روحي لسماعك ، للبقاء معك .. فنحن تعاهدنا علي البقاء معاً وأنا لم أفِ بوعدي فحدث ما حدث .

لا أعلم ماذا أقول لترجعي لي !! ولكني قد قلت كلاماً في قلبي ، وهذيت بكلامٍ أستفزُّ به عقلك ؛ ليخرج عن صمته ، ولكن لكِ أن تعلمي أنني أَلوم نفسي قبلك ، وأنني أصبحت عاجزاً ، لا أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول !!

لم يكن الأب هو الوحيد العاجز ، بل كانت فئة الرجال في هذه الشقة عاجزة ؛ حيث كان زوج ابنته عاجز أمام وجه زوجته الذي يحكي أشياء مبهمة لا يستطيع أن يسأل ، وإن صح التعبير لا يعرف كيف يبدأ أن يسأل ؟! فهو يعرف أنها لو كانت تريد أن تتكلم لتفوهت من تلقاء نفسها وأفصحت عما بداخلها ، ولكنه كان علي يقين أن بها شيئاً فقرر أن يختلف مع نفسه ، لربما اعتدلت عن صلابة كتمانها للأمور وستتكلم فسألها :

- أميرتي الصغرى !! كيف حال حماتي الآن ؟!

فردت عليه رضوي ، ولم تكن منتبهةً له :

- هي بخير .

- ماذا بها ؟!

- فقط لا شيء .

كانت في قرارة نفسها تعلم أنه شيء صعب أن يُفهم .. كانت تري أن حزنها يجب أن تشاركه مع أحد ، فبهذا تفعل ما لم تفعله أمه التي قررت أن تكتم بداخلها ، فقررت هي أن تشارك حزنها مع دموعها وكأن الحزن بات أمراً محتَّماً عليها خلال اغماءة أمها الروتينية ، وخصوصاً وهي تري ملامح التساؤلات علي وجه أختها الصغرى ، وكأنها تسألها لماذا كل هذا ؟! ولكن إذا كانت رضوي لا تعرف ماذا تخبرها فكان لسان حال وجهها يصرخ ليقول .. لا أعرف ، فتصمت هناء فيكون من في الغرفة جميعاً يتساءلون في

صمت ، حيث كان إغمائها ليس إلا أن عقلها كان يطلب قليل من الراحة والرحمة الذي لا يعرف لها سبيل ، فيترك ابنتها رضوي لتساؤلات أختها الصامتة ، ولنفسها لتتساءل .. متي سينتهي هذا الوضع وسيخرجون من هذه الحالة ؟!
كانت رضوي تتساءل في قرارة نفسها دون أن تتكلم كلمة واحدة .. وكيف لها أن تتكلم !! حتي وإن تكلمت ماذا ستقول ؟! و من سيسمعها ويفهمها دون أن يُجهدها باستفسارات عن الماضي !! وإن حكت عن ذلك الماضي فهل يملك ردَّاً سويَّاً أنه ليس علاقة بالأمر ، وأنه ليست المذنبة الأولى ، وأن أبيها ليس المذنب الثاني ؟! كانت كل هذه الأسئلة تتوارد علي ذهنها ؛ لأنها تريد أن تخرج ما بداخلها ، تفضفض لأحد ، أو ربما تريد أن تُحكِّم أحداً علي أمها ، فهي صعب أن تُفهِم أمها كم من الصعب عليها رؤية أختها الصغيرة وهي تراها هكذا باستمرار ؛ لعل أمها تتحرر من كونها أسيرة ذكرى ، ولكن رضوي كانت تنظر لهذه الذكرى كشيءٍ معظَّمٍ ، يستحق أن نقف عنده فكانت مقدِّرة لحالةِ أُمِّها ، ولكن أيضاً لا تعرف كيف تقول لأمها .. كفاكِ حزناً لهنا ولتبدأي الفرح ! فتُخرجها من بوابة الماضي ، و لكن هي حتي لا تعرف إذا كانت أمها فرحة من أجل سفرها أم لا ؟! أو إذا كانت أمها تعي أن بنتها ستبعد عن أحضانها سنتين كاملين ؟! أم أنها أضحت مرهقة لدرجة جعلتها لا تفكر في شيء ؟!

كل هذا و أكثر كان يتوارد علي عقل تلك المسكينة في صمت ، حتي دموعها التي بدأت تسيل علي وجهها كانت في صمت ، حتي إنها لم تشعر بها وظلَّتْ تفكر ، وكان مصطفي يري دموعها ولا يستطيع أن يقول لها شيئاً ، فهو كان يستشعر أن دموعها نابعةٌ من حزن ، وهو يعلم أنها لن تتكلم ، فتركها تسيل ؛ علها تستريح ولكن لم تستطع عيونه أن ترى انيستها هكذا ، فكانت لغة العيون هي التي تتكلم .. فظلت عيون مصطفي علي رضوي حتي أنه قام وربت علي كتفها ، وهنا تنبهت رضوي لنفسها ودموعها ، فاعتذرت من مصطفي دون أن تمسح دموعها ، بل تركتها تجف علي وجهها ؛ علها تلطف لهيبها ، فكان رد مصطفي :

- أتعتذري لدموع قد سالت .. أم عيونٍ رفضت رؤية سواك ؟!
أم لقلبٍّ يأنس غريباً في وحدته .. وهو قاتله الحزن الفتاك ؟!
عزيزة القلب ومؤنسته .. قد هام العقل بوجهك الخلاق !!
فرفقاً يا صغيرتي الصغرى .. وابنتي الفضلى بنفسك الحسناء !!
فوالله إن تكالبت الدنيا عليكِ .. ستجدين الله ينصرك علي الأحزان !!
ستجديني في كل دربٍّ لأحزانك بالمرصاد .. يا حبُّ أحيا بقلبي طاعة الرحمن !!
يا نفسٌ أطهر عن الأحزان .. فيا نفسُ صبراً جميلاً يليق بخالقي

الجبار !!
فليجبر الله خاطركِ .. في كلِّ حينٍ وكلِّ زمانٍ !!
قال هذا ، ويظل ينظر إلي تلك البسمة التي رسمتها علي وجهها ، فقط لتظهر له امتنانها عن كلامه ، فقال لها :
- كنتي دائماً تريدين أن أقول لك شعراً .. أعترف بأنه قد لا يمت للشعر بصلةٍ ، ولكني حاولت لأجل أن أراكي سعيدةً ، وسأرد اليوم علي سؤال أنت لم تسأليه ولكن ليكون في قلبك دائماً الجواب على .. من أنت بالنسبة لي ؟!
أنت ابنتي حينما تبكين ؛ لأن أكثر ما يُحزن الأب هو رؤية ابنته تبكي فيتماسك قدر المستطاع ، ويخفي ما فيه من حزن ليطمئن علي ابنته .. قد يجن جنون الأب لرؤية ابنته هكذا .
أنا أمك في فرحتك لأن الأم تبرع في الفرح بأولادها .. تفتخر بهن لدرجة تزيد الفرح ملايين المرات .
أنا أبوك عندما أري نجاحك لشيءٍ كنتِ تريدينه ؛ فتحققيه وتأتي لترتمي في حضني فأشعر بكل لحظة كافحتِ فيها لتحقيق الحلم ، فأري ثمرة صبري فيكِ وتدمع عيناي علي رؤيتك سعيدةً ، وأحتضنك وأرفعك عن الأرض مع أني رفعتك من علي الأرض من سنين ووضعتك في قلبي وحفظتك في عقلي .
أنا أختك فكما أنه لا يوجد في مثل حنيَّة الأب والأم ، فلا يوجد مثل طيبة الأخت وصبرها وقلبها البريء الذي يتراضى بكلمة

أختك ، التي تكون أقرب المقربين إلي قلبك ، التي تتحدثين معها وتمازحينها فتكون هي رفيقة دربك وسندك .
أنا أخوك في أن أتخذ مهمة إسعادك ، ورؤية الضحكة تملأ عينك من أولوياتي ، وأن أكون ناصرك علي أي حزن تواجهيه ، وفي الفرح ، وفي الكفاح .
أنا زوجك الذي عندما تنظرين له يرتمي في حضنك ، فتكونين أنت صديقتي في هذه الدنيا ، وصاحبتي التي تشدد بي ، أنتِ أعفُّ من أن توصفي بكلمات .. أنتِ أطهر من أن يقترب لبابك أيُّ حقدٍ أو حسدٍ .. أطهر من أن يغضبك أحدٌ متعمِّداً إغضابك ، ربما أنت تقولين في خاطرك أنني قلت من أنا بالنسبة لك ، ولكن كلا أنا قلت من أنت بالنسبة لي .. أنت التي ستشعرينني بمعنى الحياة ، أنا سأكون عائلتك وسأحب عائلتك كما أعشق عفتك وطهرك .. أنا يجب أن أكون لكِ أولاً حتي تكونين ، فأنتِ فتاةٌ بغريزةٍ تمتلكينها كلها مشاعرُ مودةٍ وألفةٍ وحنينٍ ، أنتِ لا تتقلبين تبعاً للظروف ، بل أراكِ تثورين على نفسك لمحاربة الظروف ؛ لتحافظي علي ضحكتك وبراءة قلبك حتي وإن كانت الظروف تتغلب عليك أحياناً ، وأنا أفهم أنك تبتهجين لأبسط الأشياء ، فأنا يبهجني أن أكون لك جزء مما يسعدك ، أن أشارك في كل ما يسعدك وإن كنت أعرف أني في حياتي كلها مهما عشت لن أكون مثل والدكِ ، وكيف أكون وحنان الأب لا يعوض !! ولكني أخبرك

أني سأكون معك ، وأني لن أحزنك قط ، وأني أموت الآن برؤية دموعك التي تنزل علي وجنتيك ، فلماذا تبكين ؟!

قال مصطفي هذا الكلام و بدأت دموعها تسيل مرةً أخري ، فلم يستطع أن يخفي توجعه لدموعها وظنَّ أنه لن يستطيع أن يخرجها من حالتها تلك ، حتي ردت عليه قائلةً :

- أبكي لأني لن أجد سواك يحبني مثل هذا الحب .. أبكي لفرحتي بك ؛ لأني الآن بت أمتلك عائلتان أهلي وأنت ، وإن كانت دموعي تتمختر علي وجنتي وهي متساقطةٌ من عيني ، فهذا من فرط سعادتها و قلبي بداخلي يرقص ولا يفعل شيء غير أنه يحمد الله علي أنه رزقني بك ، و لسان حالي يخبرني أنك فرحتي الكبرى .. أتعرف ربما حقاً يتغير مزاج يومي برؤية أبي ورؤيتك !!

صمتتْ رضوي ، وحاولت أن تلملم شتات مشاعرها علي أمها وحسرتها عليها محاولةً أن تتخطي الحزن الذي مقدر لها - علي الأقل أمام مصطفي - ، وأن تضحك كما تفعل كل يوم فهي تخبأ ما بداخلها بين ضلوعها ؛ لتتركها تتآكل مما بها وتخرج للعالم لتداعبه وتتعايش معه كما تفعل أمها ، ولكن أمها لا تضحك فحاولت أن تتكلم مع مصطفي ، حتي لا تترك نفسها لفكرها ، يتفرَّد بها كما يفعل كعادته ، ولكنها لم تستطع وظلَّتْ تفكِّر .

- أتعلم ؟! كنت أود أن أقول لك أشياء كثيرة ، اشتقت لك .. أتمني أن ارتمي في حضنك ؛ فتتشرَّد أحزاني التي اتخذت من عقلي

سكناً مقيماً لها ، لدرجة أنها بدأت تخفيني من أن تكوني صديقة روحي ، أتمني رؤيتها تتناثر وتحل محلها السكينة والأحلام وتتوالي الطموحات علي عقلي ، ويرغب قلبي في الحياة برفقتك ثانيةً .. يرغب أن يلمس شخصيتك المرحة الرحبة ، ولكني لا أعرف كيف ؟! لا أعرف كيف وأنت تقضين وقتك إما مشردة في الذكريات وإما متصنعة الحياة ؟! لا أعرف إذا ما كنت متمسكة بالدنيا بنا أم متمسكة بما فقدتيه ، ويكأنَّك نسيتِ أن لله حكمة في قدره أم نسيتِ أن كل شيء مقدر بقدر !!

لا أعلم سوى أني وكل ما أملك يشتاق إليك ، لنظرة حنان منك ، لقلب يضمه بصدق .. أعلم أنك تحاولين قدر المستطاع ولكن المستطاع يا أمي لم يعد كافياً ، بل لم يعد شيء .. لم يعد أي شيء كافٍ سواكِ أنتِ ، لم يعد الكون يتسع لي عندما أراك مغشيَّاً عليكِ ، ولكني في نهاية المطاف لا يسعني سوى العجز ، فماذا أفعل ؟! أعرف أنك تحسنتِ عن ذي قبل وبدأتي تتكلمين معي ولكن يا أمي لم أعد أكتفي بكلماتك فقط ، بل أريد حضنك لينتشلني من عالمي الموجِع هذا ، ومن طبيعة الأمر أن يكون مُوجع ، فرؤية أبي وأختي وأنت هكذا تنغِّص عليَّ ألمي لتزيده أضعافاً مضاعفةً ، و يقتنص شيئاً من طفولة هناء .. تلك الطفلة التي تعيش بين جدران بكائها العازل للبسمة ، ويقتنص روحي من جسدي ، فوالله إني مشتاقة يا أمي ، وإن للشوق نار تلهب قلب المشتاق ،

وتأكل من روحه ما يجعلنا نرفق بقلبه رفقاً فطرياً ، فرفقاً بقلبي يا أمي ورفقاً بروحك التي تشتاق للحياة !

لم تكن تعلم رضوي بأن صوتها عالي ، فهي كانت كل ما تدركه هو أن قلبها قد نفد صبره عن كون حالة أمها هكذا ، وهي مسافرة دون أن تتلاقي مع الفرحة في عيون أمها .. دون أن تحتضنها كحضن الأم الذي هو قوة البنت وحنان العالم كله ، ولكنها أيضاً لم تكن مدركة لوجود مصطفي ، كانت فقط تعي للألم الذي يملأُ قلبها ويشغل بالها ، وماذا ستكون حالة هناء من غيرها !! والتي بدأت بالفعل حيث تولد عندها حالة نفسية متقمِّصة هيئة الصمت إلا سؤالها ، لماذا يحدث لأمها هذا من أسبوع ؟! فكيف ستتصرف مع أمها وحدها بهذا السن ؟! فقبل هذا كان حزنها يتخذ شكل داخلي فقط ، فكانت هناء لا تشعر به ، ولم تكن رضوي تواجه سوى شعور أمها التي كانت تتصرف بطبيعيةٍ قاتلةٍ لحزنها ، حتي انفجر علي هيئة إغماء ، فمن هنا بدأ الحزن يتفشى في البيت مرةً أخري .. فما ذنب أختها هناء !! كانت في الأول لا تأخذ القدر الكافي من الحنان فتعوضها رضوي ، ولكن بعد تصارع أمها مع ذكراها وسفر أختها ، فكيف لها أن تتعايش مع أي شيء ؟! فقررت رضوي قرار وحل لكل هذا دون أن تراعي أن حديثها مع نفسها بصوت عالٍ ، ومن ثم تفكيرها في صمت يقابله جلوس مصطفي أمامها في صمت دون أن ينطق

ببنت شفة ، بل لم يكن هو الوحيد الصامت فأمها أيضاً صامتةٌ ، تجهل كيف تخبر زوجها أنها تسمعه !! وأن الإغماء لم يكن بسبب ما يتصوروه بل ليس له علاقة به !! ولكن كيف لها أن تخبرهم !! فكان الصمتُّ سيد الموقف حتي رأى مصطفي ابتسامةً باهتةً علي وجه رضوى ، فقال لها :

- ماذا بكِ ؟! أنا ظللت صامتاً استمع لكِ بحرصٍ ؛ علّني أفهم شيئاً ولكني لم أفلح ، فماذا بك ؟! كنت في بادئ الأمر أشعر بأن أفكارك متشرِّدة ، ولكن بعد سماعك شعرت أنك فريسة فكرةٍ واحدةٍ كانت قادرةً علي إعجازِ عقلك عن استيعابها ، فأرهقته حتي أنها جعلتك تتكلمين دون أن تدري لوجودي ، فماذا بك ؟! وهل هذا بسبب أمك ؟!

- لا أستطيع أن أجيب ولا يمكنني التكلم فهل لك أن تغير الموضوع؟!

فظلا صامتين ، حتي قالت له علي استحياء :

- هل لي أن أجلس بمفردي قليلاً ! فإني أقسم لك بربي أن قلبي يحتاج خلوةً مع نفسي ، فيتطهَّر من كل ما مرَّ عليه منذ خمس سنوات ، أريد أن أستشعر وجود راحةٍ فعليةٍ كاملةٍ متكاملةٍ في قلبي ، فرحةٍ ترقص منها عيني فتتلألَأَ تَلألُأً تختال به علي كل لحظات عمري التي كانت تدمع أو تحزن فيهم ، راحةٍ تريح العقل من الفكر الذي يتوالى عليه في أوقات متقطعة فيرهقه

ويكاد أن يخنق تلك الروح التي تأبي الاعتراض وقررتْ أن تتخذ من الصبر منفذاً لها مما فيه .. فهل تريد إجابة أخري ؟! فأنا منهكة تماماً وأتمني أن أتمدد علي فراشي فتتمدد معي تلك النقطة المتناهية الصغر من الفرح ، فتكبر وتتسع وأفرح وتمتلأ الدنيا سعادةً ، فأنا أستأذنك أني أود أن أجلس مع نفسي قليلاً !

كان يعلم أن الكرب شديد عليها فقال لها :

- حسناً سأذهب ، ولكن أعلمي أن الثقة بالله هي طوق النجاة والمنفذ مما تتكلمين عنه والذي لا أفهمه !

رحل مصطفي ورحلت معه حيرته علي صغيرته ، رفيقة عمره . . ولكن الضيف المقيم في هذا البيت الذي ينهش من قلب كل من فيه بالتدريج وكأنه مسلط عليهم ظل مع رضوي طيلة الليل ، فأبعدها عن سكينتها وراحتها وهدوءها النفسيّ الذي فقدته لِما حدث مع أمها ، وما هو يحدث ؛ فتكفَّل الحزن بعزلها عن نومها الذي يمثل راحتها العظمي ، فظلت تفكر حتي دخلت أمها غرفتها لتطمئن عليها وعلي هناء ، ولكن وجدتها بوجهٍ باكٍ حزينٍ ضائعٍ في حالة من التشرُّد الفكري فنادت عليها ، ولكنْ رضوي لم تنتبه لها ، فنادت مرةً أخري فردتْ قائلةً - نعم - بكل فتورٍ ، فسألتها أمها قائلةً :

- رضوي ! ماذا بكِ ؟! هل أنتِ بخيرٍ ؟!

شعرت رضوى أنه حان لها أن تتفوه بما يقلقها .. أن تكمل

مسئوليتها تجاه أختها الصغيرة ، و أن تطمئن علي أمها فتسافر هادئةَ البال فقالت :

- هل يمكنني أن أتحدث بصراحة يا أمي ؟!

علمت أمها ماذا تريد ابنتها ، و لكنها أرادت أن تجعلها تتحدث بما تكنُّه في قلبها ، فردت عليها قائلةً بنبرةِ ودٍّ :

- وهل منعتك يوماً عن التحدث بصراحة ؟! فأنا اعطيكِ مطلق الحرية في النطاق المسموح لك ، فقولي ما تشائين .

- اسمعي يا أمي .. سأتكلم اليوم من أجل قلبي وعقلي و راحة بالي ، و لك أن تعلمي يا أمي أن قلبي وعقلي عمادهما بعد الله و رسوله هو أنت ، و بمعني أدق هو النسخة القديمة منك ، و أنا أعتذر عن هذه الكلمة و لكن أنا أشعر أني يجب أن أتكلم ، فإن لم يكن من أجلي فمن أجل تلك الصغيرة التي تنام بجانبي وهي تضحك ببراءة الأطفال .. صدقيني يا أمي نحن نفقد جزءًا من براءتنا بتحمل المسئولية ، والجزء الآخر نحتفظ به بداخلنا نخبئه خائفين عليه من الضياع وكأنه سيُنهب منا رغماً عنا ، ولكن هل نحن مُكرهين علي هذا الوضع الذي يحدث في البيت منذ شهور؟! لماذا يا أمي لا تتعايشين مع ما حدث كما فعلتي في الخمس سنوات الماضية وإن كان يتضح عليك الألم وتغير جزء من معاملتك ؟! ولكن لماذا تتجدد جراحك الآن يا أمي ؟! لماذا أشعر بأنك عالقة في الماضي ، بل تصرين أن تعيشي فيه وتنسينني

وأختي ، وكأن ليس لديك شيء في الدنيا ؟! أأقول لكي يا أمي هناك بعض من الناس من فقد كل شيء لديه في الدنيا من منظور الناس ولكنه يعيش براحة ويضحك فيتعجب الناس منه !! ولكن في منظوره هو الأمور تختلف .. هو لم يفقد كل شيء في الدنيا بل لديه أمل .. لديه رغبة أن يفعل شيء لنفسه .. هو في قرارة نفسه موقن أن نفسه تستحق الأفضل ، وأن من ذهبوا و تركوه كانوا يريدون رؤيته أفضل ؛ فيجتهد من أجل نفسه .. أنا أعتقد بل أعترف أنه قد يدخل في صراع مع نفسه وعقله وقلبه ووحدته ، صراعٌ من طرفٍ واحدٍ ، صراعٌ يوميٌّ كفيلٌ بخنقه ولكنه من أجل أن يتعايش فإنه يحاول .

أتتخيلين أنه بعد كل هذا الصراع يحاول أن يتعايش يا أمي وليس ليعيش ؛ فيحارب نفسه ويرتقي بعقله ويربط علي قلبه ومشاعره ويترك وحدته ؛ آملاً أن ينتقل من مرحلة التعايش إلي مرحلة العيش فيزدهر عمره ويضحك قلبه وتتلاشي عزلته .

ولكي تعيشين في هذا الصراع لتنتصري بدلاً من أن يخنقك ، حتي تجعلي نفسك ترغب في العيش من جديد ، عليك بالرغبة فكل شيء قد تكون بدايته بالرغبة أو الصدفة ، ولكن في الحياة لا تأتي الأمور إلا بالكفاح ، فالصدف و الرغبات من غير كفاح ليس لهم معني .. فأين ذهبت رغبتك في العيش ، بل أين ذهبتي أنت ؟! أنا لا أعرف من أمامي حقاً يا أمي أين اختفت ضحكتك التي

تعمر بيتنا بالسعادة ؟! أين اختفيت يا أمي ؟! أين ذهبتي أنت؟! ظلت رضوي تبكي وهي تتكلم وكأنها خارجة من صراع فكري مع نفسها هُزمت فيه أشر هزيمة فأنهكت كلياً ، ولكن أمامها أمها التي كانت تنظر لها نظرات تعجب طيلةَ حديثها ، وأحست أن ابنتها ما زالت تريد أن تتحدث فقالت لها :

- هل انتهيت ؟! ماذا بك ؟! أنت لم تجاوبي عن سؤالي ... .

-أتسألين ماذا بي ؟! سأقول لك ماذا بي .. بي أنتِ فقط !

قالت رضوي هذا غاضبةً ، و كأنها تصرخ علي أمها التي ردت عليها قائلةً :

- أنا بخير تام ، والآن أنا سعيدة أن أري ابنتي محاورة جيدة ، ولكن يا ابنتي إلي ماذا تنوِّهين ؟! ألم نقفل هذا الباب نهائياً ؟! واتفقنا أنه لا مساس به للنقاش ؟! أما عن الرغبة في العيش ، أنا أتفهم أدبك في الحديث وأتذكر ما كنت أقوله لك والذي تريدين أن تعيديه عليَّ ، ألا تريدين أن تذكريني بالفتاة ابنة العامين التي مات كل ما لديها في لحظة قصف ، وكانت هي الناجية الوحيدة لتكْبُر بدون أهل ولا صاحب ، فلا مأوي تسكنه ولا مال تملكه ؛ فتعاني معاناة تدمع لها العين ، ألا تريدين أن تقولي لي أين أنا من هذه ؟! ولكن سؤالي حقاً ماذا بكِ ؟!

كانت أمها تقصد شيئاً معيناً من السؤال ، وهذا ما جهلته رضوي فاستمرت في غضبها مجاوبةً :

- قلت لك ماذا بي ! وأنا أعلم أن الله رحمنا من ابتلاءات كثيرة ، وأنا لم أتكلم عما يحدث في حالات القصف ولا أحب أن تغيري الموضوع ، فالجميع يعلم معاناتهم أنا تكلمت عنك أنت ، وما هو الباب الذي لا تودين فتحه وهو قُفِل وأنت بداخله ، تعيشين فيه حتي وصلت حالتك لدرجة الإغماء ! أتعلمين ؟! عندما تراكِ هناء هكذا ، تظلُّ تسألني و تبكي حتي تفيقي ، وأنا ما عدت أحتمل بكاءها ، أشعر أنها عندما تبكي تتساقط قطرات من راحة بالها و كذلك براءتها ، أنا أعترف أن بداخلها تنشأ حالة هيسترية برؤيتك هكذا وهي لا تستطيع أن تسيطر عليها فتبكي ، أنا في البداية كنت أبكي و كان داخلي عاصفة تعصف بي تشل أفكاري ، تجعلني أقف جامدةً فلا أعرف ماذا أفعل معك وأنا أراكِ علي الأرض !! فإذا كانت هناء تفقد قطرات من راحة بالها ، فلكِ أن تعلمي يا أمي أني كنت أفقد نهراً منها ، نهرَ حنانك وطيبتك .

حتي وإن كنتي غير واعية بالكامل ومدركة بما يحدث حولك يكفيني أن أشعر بنفسك في أركان الشقة .. ما أشقى أن أتخيل أن أفقد نظراتك التي تحتويني وتزيل ما بقلبي من أسي ؟!

سأقول لك شيئاً كاد أن يخنقني ويؤرق عليَّ حياتي .. عندما كان يغمي عليك كانت تتسارع ضربات قلبي ويصفرُّ وجهي ، ومن بعد يحمر وجهي ، وكأن دمي يغلي بداخلي ، كان جسمي ينتفض بأكمله في كل مرة و مع هذا كان عليَّ أن أتماسك أمام

أختي وكنت أفعل إلي أن يأتي أبي فأرتمي بحضنه و أبكي فيهدأني ، وبعدها يبعدني بهدوء من حضنه قائلاً - لا تخافي سيكون كل شيء بخير ، ولكن دعيني أساعد أمك فما كنت أحزن قدر هذه اللحظة وأنا أري عائلتي بأكملها مهشهشة تفقد سر تماسكها - .
ولكني في ظل هذا كله كنت أسأل نفسي سؤالاً .. هل أنا خائفة عليك أم خائفة علي فقدانك ؟! فأفقد بهذا راحة بالي وهدوءي ، وكأن الوسوسة تستقل بحزني فتأتي لتفسد عليَّ وقتي بأكمله ، فبعد أن تستفيقي تبدأ الأفكار الجهنمية تأتي إليَّ فتتسلى بي و لكني لا أستسلم لها ، ولكني أيضاً ما عدت أحتمل تساؤلات نفسي ، كما أشفق علي عقل أبي ونظراته لنا ولك ؛ فيطلب مني أن أخرج من الغرفة وآخذ هناء معي ، أتعرفين أنها كانت لا تعي بوجود أبي ، بل كانت تتمسك بكِ وتبكي ، فكنت آخذها لأهدأ تلك الطفلة الصغيرة التي تخرج عن السيطرة في كل اغماءة لكِ ، فلو كنتِ أنتِ مكاني ، ماذا كنتي ستقولين لها ؟! سأرد يا أمي أنا ... .
فما كادت أمها تحرك شفتيها ، حتي أشارت لها رضوي و قالت باكيةً مندفعةً :
- ما كنتي ستتركينني من الأساس لأصل لهذه الحالة ، كنتي ستمسكين يدي ولن تسمحي للعزلة أن تنهش من قلبي الصغير فرحته وبراءته ، ما كنتي ستسمحين أبداً لي بهذا وكنتي ستعدِّدين

لي مواقف الصمود وقصص الذين صبروا ، وعن الفرص وكثرتها في حياتنا .. ألم تكوني لتفعلي هذا !! ولكنك يا أمي في حالتك هذه أعطيتي نفسك الحق و الصلاحية المطلقة لنفسك أن تعيشين حزنك وتتعايشين معه بطريقتك ، وسحبتِ منا كامل الصلاحية لنتكلم معك ، لنساندك ، وكأننا غرباء عنك !! ألم نحزن سوياً وعشنا جميعاً أعواماً كنا ننام فيها وعقولنا لا تنام ، حتي إننا كنا لا نعرف كيف يمر علينا اليوم ، بل إني كنت أتساءل إذا مرَّ اليوم أم لا !! كنت أفقد أغلي ما أملك ولكن كان عليَّ أن أنظر إلي ما تبقي لي وإذا كنتِ ستعددين لي الفرص طيلة حياتي .. فأنا يا أمي الآن لا أريد إلا فرصة واحدة مضمونها أنت ، وأساسها أنت ، وداخلها وخارجها هو أنت ، لا أعرف شعور من فقد أمه ، ولا أريد أن أعرفه لأنه سيفوق شعوري آلاف المرات .. شعوري الذي أتخيل فيه أني سأفقدك ، لقد عدت زاهدة في فكري عن أي شيء سواك فأصبحتِ أنت طموحي ومبتغاي .

عادت رؤيتي لك سليمة هي أحلي فرحة وأكبر حلم لديَّ .. صدقيني يا أمي نحن جميعاً قلقين عليك فأنت عماد البيت بأكمله ، ماذا يمكنني أن أفعل أو أقول لكي أقنعك !! أنا أنهار ولست أنا فقط بل كل من في البيت حتي أنت ، ولكنك تنهارين علي شيء أضحى من الماضي المحتوم ألا يُنسي في حياتنا ، ولكننا ننهار عليكِ ، وأنتِ الحاضر والمستقبل المشرق الذي نملكه .. أنا

أراكِ تنطوين علي نفسك وتنفردين ببعض الصور والمشاعر فأتمني أن أكون أنا الصورة أو الإطار ، لا يهم المهم أن أكون شيئاً ملموساً عندك حتي لو كنت مسنداً لهذه الصور فتلمسني أطراف أظافرك ، ولكني أراكِي بعدها يغمى عليك فأتساءل .. لما تعاقبين نفسك وتعاقبينا برؤيتك هكذا ؟! لماذا يا أمي ؟!

قالت رضوي هذا الكلام وكانت في حالة هيسترية من البكاء ، وما كادت أمها تعبر عما تخفيه عنهم حتي رن الهاتف ، فلم ترد ، وواصلت الحديث مع أمها قائلةً :

- هذا يا أمي مصطفي الله يعلم ماذا به الآن !! ومدى قلقه عليَّ ، فقد تكلمت أمامه اليوم بكلام كثير .

الفصل الثاني :-

- البَوْح -

كان نصف كلام رضوي صحيح ، فمصطفي كان مختنق و منهار ولكن الهاتف لا يأتي نفعه معها ، فهي لا ترد فدخل في كومةٍ من الغضب ، و حاول مرة أخيرة أن يتكلم مع أخته التي تبكي في غرفتها منذ ساعات ، وهو لا يعرف لماذا ؟! مع أنه سألها مراتٍ عديدةٍ ، ولكنها تجبه دائماً لا شيء ، فقرر أن يجرِّب كل الوسائل الممكنة التي يمكن أن تخرج فتاة من حالتها ، ولكن أخته لم تكن أي فتاة و هو كان يعلم هذا جيداً ، فهو يدرك أنها تختلف ، فمن تربت بدون أب ليس كمن اعتادت حضنه ، فهي لم تشعر بشعور أن يكون لك منصفاً دائماً ، شخصاً يشعرك بكونك أجمل البنات في العالم ، بل إنه لا يمكن لأحد أن يجاريك ، أو حتي بإمكانه أن ينافسك ، هذا الشخص الذي يضع ثقته فيك و ينظر لك نظرات تزيل عبء الدنيا عن كتفيك ، يضمك تحت جناحه فمحال أن يؤذيك أحد ،أو يقترب منك أحد ، فيبثُّ في داخلك ثقة وحباً ، يشاركك أفراحك وأحزانك ويلعب معك فتشعرين أنك تملكين كل الفرح في العالم ، وتكونين أيقونته وغنوته وبُشراه في هذه الدنيا .

شخص يفهمك بنظرة عين ، يفهم ما بداخلك .

كان أخوها يعلم أن لو أبيه كان حي ما كان ليسمح أن تتأوه

ابنته ، بل كان ليفهم ما بها دون أن تتحدث ، كان سيعرف كيف سيخفف عنها بأسهل الطرق !! فهناك رابط بين الأب وابنته لا يشبه أي رابط ، وكيف لهذا الرابط أن يُشبَّه بشيء وهو يكون بين إثنين لا يستطيع الزمن ولا البشر ولا أي شيء يسبح الله أن يفرِّق بين قلبيهما المتماسكين ، ولا يؤثر حتي علي الرابط .

كان يتفهم كل هذا فكان يتعامل مع أخته كما يليق بسن أنثى فقدت والدها ، فإننا عندما نفقد أبانا نكبر في السن عملياً ودون أن ندري ، قد نفقد لذتنا في الدنيا حتي ولو لم نفقدها ، لن تعود الدنيا كما كانت من قبل ، فالعالم في عين أباءنا أسحر وأجمل ، فما بالك بمن لم يجرب هذا الشعور ، بل لم ينطق بكلمة أبي مطلقاً ..

فدخل علي أخته الغرفة وكانت كل الأفكار تتلاشي وتتبقي فكرة أنه عاجز أن يجعلها تكف عن البكاء ، فسألها قائلاً :

- لماذا تبكين يا جوليت قلبي ، وعطر حياتي ، ألا تعرفين أن دموعك غاليةٌ لا تقدر بثمن ، بل إنها تفوق تقدريها بثمن يا مهجة قلبي !! قولي لي ما الذي يبكيك يا طفلتي الغالية ؟!

فردتْ عليه باكيةً :

- لا شيء فقط أكملت خمسة عشرة عاماً دون أن أقول فيها أبي ، دون أن أشعر بيده علي كتفي ، فأبتسم وأضحك مهما كان ما بي من ألم ، وليست الفكرة تكمن في عدم قولي هذه الكلمة التي لا يستعصي عليها ولا أمامها شيء ، فمهما كان العائق فإنها

تزيله فتشعر أنك تملك القوة المبهجة الحامية الصامدة من أجل فرحتك .
كان أول درس تعلمته - أحب أمي أحب أبِي - .. كنت أرى نظرة علي أصدقائي في الفصل ، نظرةً لا توصف غير بالسعادة الصامتة ، ما كنت أفهم نظراتهم في هذا الوقت ، ولكن هذه النظرات حُفظت في عقلي لتجد مفهومها الآن ؛ فيُلخِّص المشهد أمام عقلي بأكمله أن من فَقَدَ أباه ، فَقَدَ الدلال وصاحبه وصديقه ومشجعه في دربه مهما طال ومهما انقلبت الأحداث عليَّ ، حتي وإن ساءت الأمور ولم تكن لصالحي يأتي هو وقلبه يضج من الألم عليَّ ، ولكنه مع هذا يرسم ابتسامة بريئة علي وجهه ويهمس لي في أذني - كل شيء سيكون بخير ، فقط كوني أنت بخير - .. أشتاق لمن يربت علي كتفي ويخبرني أني سأفوز دائماً ، حتي ولو كنت علي شعرة من الهزيمة فأطير بقوته وسنده لي ، ولكني الآن أُهزم أمام نفسي حتي تأتي كلمة أب علي مسمعي ، فتنتفض مشاعري كلها من غفلتها وتمتلأ عينيَّ بالدموع التي تأبي أن تنزل أمام أناس لن يفهموا ألمي ، ويقولون لي أننا جميعاً سنموت ونرحل عن الدنيا ، وكأني لا أعرف أو أني معترضة علي موت أبي !! كلا ، هذا قضاء الله وقدره ، لا يجوز الاعتراض ، و لكني أشتاق له يا أخي حق الاشتياق .. سُلب مني فأنا أذكره في تخيلاتي ، لو كان موجوداً كان سيلعب معي وسيحتضنني ، كنت سأشعر بيده

علي وجهي عندما أبكي ، فحينها يقول لي : - أميرة قلبي الصغيرة وملكته ، لماذا تبكي؟! - ، وسيحضنني و يداعب خصلات شعري ، وإذا ظللت أبكي كان ليأخذني من يدي ، ويخرجني من حالتي بطريقته الخاصة ، أسلوب الأبوَّة الذي لا يعادله شيء في العالم أجمع ، فيزرع في قلبي شجرة حب يرويها بالأمان ؛ لينبت السكينة طيلة العمر .. أتعرف يا أخي ؟! عندما كنت صغيرة ، كنت أظل أردد أريد أبي في سري ، ما كنت أفهم معني الموت ، كنت أتمني أن يأتي هو ليقول لي جوليت قلبي ، وعبلة حبي ، ويقبل جبيني ، فأشعر أني ملكت قلباً ليس له مثيل ، ولكني بموت أبي كنت أكبر عمراً بأكمله كلما رأيت صديقتي وهي تقول أبي ، وخصوصاً عندما يقلن لي صديقاتي سنخرج اليوم مع آبائنا ، فأخرج من المدرسة علي مشهدٍ في غاية الجمال والإحساس والإبداع ، مشهد أب يحضن ابنته ، فتري في تلك الصورة أن الأحزان والآلام قد تساقطت من علي كتفها لتسحقها الأرض ، ليحل محلها الأمان والسكينة والهدوء .. كنت أكبر عمراً في كل مرةٍ ، حتي ظننت أن قلبي وعقلي شابا ، ولكن هذا كان في صغري ، عندما لم أكن أفهم ما معني الحقيقة اليقينية والنهاية الموقنة لكل شيء ، ألا وهي الموت !! عندما كنت أتخيل أبي .. لو كان موجوداً ماذا كان ليفعل؟! لأنه حتي الذكريات ليست موجودة ، ولكني مازلتُ أشتاق له ، مازلتُ أتمني أن أختبئ بين ثنايا نظراته من العالم

فيحميني ، لم أعد طفلة ولكني لم أفقد بعد حناني لأن ألعب مع أبي ، لأنْ يدللني ، ربما لا يمكنني أن أنقل لك مشاعري ، ولكن أنا أعشق كلام أصدقائي عن أبيهم حقاً .

ظل مصطفي صامتاً بعد كلام أخته ، لأنه قد أنفجر بسبب فقدان أبيه بالفعل عندما رأي حماه وسمع كلامه عن رضوي ، فلم يستطع كبح نفسه ، أو حتي يصبرها ، بل إنه كاد يبكي حتي تكلمت أخته الباكية قائلةً :

- سأكون صريحةً معك كما كنت صريحةً دائماً .. لم يكن سبب بكائي الرئيسي هو فقداني لأبي ، ولكني تذكرت أبي ، فلو كان الأب موجوداً لَمَا حدث هذا كله .

و صمتت أخته أماني دون أن تتكلم ، وكان مصطفي في حالة من الذهول ، فلم تكن أخته تخفي عنه شيئاً ، وبدأ القلق يتمكن منه ولكنه لم يفهم شيء ، وزادت من حيرته فسألها :

- ما هو السبب يا صديقة روحي ؟!

كان مصطفي يلاطف أخته دائماً هكذا ، ولكن هي لم تجبه سوى بدموعها المنهارة ، فلم يكن يعرف ماذا يفعل معها !! فظهرت غريزة الأخوة ، تلك الغريزة التي يحظى بها البعض فيكون لهم أخٌ ، سندٌ وقت حاجاتهم ، صديق وصاحب وأنيس ، فوجد نفسه يحتضنها ويحاول تهدئتها ويربت عليها ، وبالفعل نجح وما كاد أن يسألها ليطمئن قلبه حتي وجدها نامت علي كتفه ، فقد ازعجها

كل ما في العالم وضجرت حتي من فراشها فأواها كتف أخيها ؛ لتشعر بالسكينة والسلام الداخلي ، ليتملكها هدوء العالم بأكمله بعد العاصفة التي كانت بداخلها ، لتنام كالوديعة الصغيرة بين ذراعي أخيها ، الذي ظل معها وقتاً طويلاً بعد أن نامت ، يمسح علي جبينها ويدعي لها الله وهو كله حيرة علي أخته وقلقا ، ولم يكن في الحيرة بمفرده بل كانت رضوته معه ، كانا الاثنان يحتاجان لمن يطمئنهما ؛ ليخرجا من الحيرة وطريقتها في سلب الإنسان استقراره ، وكانت رضوي مصرة علي الخروج من بئر الحيرة العكر المكدر الذي عاشت فيه بما يكفي حتي نفد صبرها ، فظلت تحاول أن تسمع رد أمها علي حديثها ، ولكن أمها كانت صامتةً لم تنطق ببنت شفة ، فشعرت رضوي أنها ربما قست علي أمها في كلامها ، فحاولت أن تلطف ما قالته قائلةً بملامح خجل علي وجهها تتصنَّعها ؛ لتخفي ما بقلبها من ثوران :

- أمي ! أعتذر علي كلامي ، ولكني والله أحبك ، واشتقت لك ، وأخاف أن أسافر وأنتِ هكذا !

- رضوي ! لا تعتذري .. أنتِ لم تقولي شيئاً ، فأنا اعتبرك صديقتي وابنتي ، بل صديقتي الوحيدة .. أنا أعلم أننا عشنا فترة تفوق خيال أي عقل بشري ، بل لو أخبرناها لأحد ما كان ليصدق أن هذا حدث في الواقع ، أو بمعني أدق لو كان شخصاً يثق فينا ؛ لتساءل .. كيف حدث كل هذا !! وهو بداخله مشتت أيصدقنا

أم لا !! أنا أتفهم كل هذا ، بل أيضاً أن ما عشناه قد يكون كفيلاً ليخيفنا و يفقدنا جزءاً من عقلنا ، و بهذا نعيش في دوامة ، و بالفعل هذه كانت حالتنا في بداية الأمر ، و لكن كان يجب أن نقف علي أرجلنا مرةً أخرى فإن لم يكن من أجلنا ، فمن أجل صغيرتنا هناء ، التي لم تكن تعي شيئاً في هذا الوقت ، والتي ما يجب أن تعرف قط .

ماذا أقول لك ؟! مهما وصفت لك لن تفهمي الألم الذي مررت به ، وأنا لا أريدك أن تفهميه ، بل لا أريدك أن تتخيليه ، فأنا كنت أشعر بالخوف يتملكني إذا خرجتي من البيت من بعد الذي حدث .. كنت أقلق حتي تعودين .. استمر هذا الخوف بداخلي حتي كدتُ أن أجن عندما تتأخرين .. صدقيني أنا لم أسحب منكم صلاحية أن تساندوني ، أنا سحبت منكم صلاحية أن تغرقوا معي في دوامة الحزن والألم وشعور أبيك بالذنب ، الذي كان يتكلم عنه اليوم .. لا أعلم من أين أتى بمثل هذا الشعور الذي كان يجعل كل جزء مني ينتفض عندما علِمت به ، أنا يا بنيتي كنت أريد أن أنهض ، وبالفعل نهضتُ ، ربما لم أنهض كلي ولكني نهضت ، انتفضت علي هذا الوجع والخوف الذي كان يحفر بداخلي من الألم ما أتمني ألا ترينه في محياك ، ورغم هذا قررت أن أتعايش كما تقولين ، ولكنه لم يكن قراراً أختاره ، بل كان إجبارياً ، فهناك يا صغيرتي بعض الأمور التي ستختارينها رُغْماً عن نفسك ؛ لأنك إذا

تركتِ القرار بين يدي نفسك ستهلكين في المنتصف ، ولن تشعرين بها إلا عندما تهلكين ، وقد تكونين السبب في هلاك من حولكِ عليكِ ، أن تكوني حازمةً معها في عدة أشياء حتي لا تفقديها في المنتصف فلا تجديها عندما تودي أن ترجعي ، فتظلين في بؤرتك التي اخترتها ؛ نتيجةً لفقدان الأمل الذي قد لا يتجاوز بعض ثوان ، ولكن يترتب عليه أشياء تظلي تدفعي ثمنها دهراً كاملاً ، أو تمسكك بحزنك القاتل لنفسك سبباً في ضياع بهجتك وأجمل سنين عمرك ، أنا يا ابنتي لن أنسي قط ما حدث ، ليس لأنني لا أريد بل لأنني لا يمكنني أن أضغط على نفسي ، لأنسيها أشلائها التي فقدتها فأرهقها في هذا الضغط وأظلمها ، وأنا لا أحب أن أقسو عليها ، فيكفيها ما حدث لها .. سأرفق بها حتي أنهض كلي ، وسأظل أنظر في الصور ما دمتُ حيةً ، و أنا معك يا رضوي ولست في تلك الصور كما تظنين ، لست عالقة في ذكري مخيفة تفوق أي رعب قد أسمع عنه يوماً ، أنا معك في كل شيء لن أقول أني كسابق عهدي ولكن هذا ما أستطيع أن أكون عليه الآن ، ربما تظنين أن سبب إغمائي هو الماضي ، ولكن لا ليس هو السبب ولا أعرف ما السبب !! فأنا أشعر بإرهاق شديد حتي لا أشعر بنفسي إلا وأنا علي الأرض ، هذا سبب إغماءي ، أما تلك الأفكار التي تأتي علي ذهنك لا تعطيها أي تفكير ، ولا تجعلي حياتك في ركن الأوهام الكاذب ؛ لأن ليس كل ما سيحدث لي سيُعزي إليَّ تلك

الذكري ، فبهذا أنت تتخيلين كذباً ، فابتسمي وعيشي حياتك ! فماذا إذا رآكِ مصطفي هكذا ؟! هل ستخبرينه ؟! و إذا أردت أن تخبرينه ، أخبريه .. أنا لا أمانع ، ولكن لا تقمعين نفسك في بحر الآلام ؛ لأنه بحر عفن مهما شربتي منه ، فلن ترتوي ، ولكنك ستظلين تشربين منه لا إرادياً لو تركتِ نفسك تتخابط في موجه !! أنتِ لكِ الخيار أن تفرحي ، فافرحي !

تعجبت رضوي من أمها ، كيف تعامل نفسها ؟! كيف أجبرتها علي أن تتعايش وفي نفس الوقت تحنو عليها في النهوض ؟! فلم تطالبها بالنهوض الكلي الذي تتكلم عنه وعن رفقها بنفسها الذي لا تعلم رضوي له سبيل .. كانت تعتقد أن أمها تُعذِّب نفسها بأنين الماضي ، وأنها تقسو عليها بشكل لا تحتمله أي نفس ، حتي أتي كلامها هذا ليجعلها تفوق من غلفتها ، ويجعلها تري من يقسو علي نفسه وظل ، معتزلاً الحياة وما يهوى لمدة أسبوع ، فكسرت رضوي تفكيرها قائلةً ومساندةً لها :

-أنا لا أحب أن أعيش سوى معك ، حتي لو كنتي في بحر الآلام سأغطس فيه يا أمي ؛ لأخرجك منه ، لنعيش في نهر الفرح والحب الذي طالما غمرتني بهما ، و لكن لماذا لم تذهبي للمشفى ؛ لتعرفي سبب هذا الإرهاق و نطمئن عليك ؟! لكي تقر عين هذا البيت الذي كان يتنفس بالسعادة دائماً ، فلنعيد له السعادة مرة آخري فتهدأ أرواحنا وتستقر روحنا في ركن السكينة والأمان ، وترجع

الفرحة مرة أخري تُرسم علي وجوهنا ، وتلمع عيوننا لمعة براءة تُطهِّر هذا البيت من الوجع ، تبهج من يراها ، وإن كان به تلُّ هموم لفرح لفرحتنا ، ونحن نحتاج هؤلاء الناس يا أمي ، من يفرح لفرحتنا لا من لا يرانا أمامه ولا يعيرنا أي انتباه ولا يقدر ميزتنا فيفقدها ، فيبتليه الله بمن يشبهه فيفسد عليه حياته كما أفسد علينا حياتنا وأبكانا ، وجعلنا نسأل أنفسنا ما الخطأ الذي ارتكبناه ليحدث هذا معنا .. أكان الخطأ أننا كنا أوفياء لمن لم يعرفوا معنى الوفاء ؟! أهذا خطؤنا ؟! أهذا جزاء وقوفنا بجانبهم ، أم ماذا يا أمي ؟!

لم تستطع رضوى أن تكبح مشاعرها ، فتفوهت بقلبها وحزنها علي ما حدث لها ، فبكت ، فردت أمها عليها بملامح بشوشة قائلةً:

- ماذا بك ؟! أهذا اليوم هو يوم تجمع الأحزان عليك ؟! أأضحيتِ طريدة لحزنك يا صغيرتي ؟! لماذا تودين أن تفسدي حياتك دائماً ؟! أنتِ قلتِ لي عن رأي مصطفي في هذا الموضوع ، و لكن هل فعلتي برأيه و هو كان عين الصواب من وجهة نظري ؟!

و لكن مرةً أخري رنَّ مصطفي ، فقالت أمها:

- ردي علي زوجك .. الله أعلم ما به ! و افرحي يا رضوي ، أو إذا كنتي لم تري طعماً للسعادة في هذا البيت ، فجديه أو كوني أنت نكهة السعادة الخاصة بك وبالبيت ، إما أن تكتسبي من تجاربك كيف تفرحي وتبتسمي ؟! و إما فاعتزلي العالم ، ردي علي زوجك

، وطيبي بخاطره فما حدث لأمه لم يكن سهلاً .
فبعد هذا الحديث تَكشَّف لرضوي من كان المخطئ ، فلم تكن علي استعداد لتكلم أحد ، بل كانت تردم علي إحداهن في ذكرياتها ، تخرجها من إطار فكرها ظناً منها أنها هكذا ستهنأ ، ولم تكن تعرف حالة صديقتها في هذا الوقت ، فقد كانت صديقتها ندي تفتقدها .. تفتقد تلك الروح التي تؤنس وحدتها و تخرجها من حالتها ، كانت ندي شبه مدمَّرة نفسياً ، ولكنها بالتأكيد مدمَّرة جسدياً بالكامل ، وكذلك ذهنياً ، و لم تجد من تحكي له و ما كانت لتحكي لها قط ، و لكنها تستجمع طاقتها منها ، تهون عليها بنظرات الحب في عينيها لتلامس تلك النظرات قلبها المكلوب فيهدأ ويستكن .. كانت رضوي ونعم الصديقة ولكن تربيتها كانت تحتِّم عليها ألا تسمح لأحد أن يقول لها أي كلمة تحت أي بند يعتبره هو ، حتي لو كان بَنْدَ مداعبة ، فرضوي تربت علي صيانة مشاعرها وأحاسيسها و إن كان الأمر لا يتوقف علي طريقة تربيتها ، لكن أيضاً ضيقتها في هذا الوقت جعلها تعتقد أن صديقتها غير قابلة أن تعايش البشر، لا تقدرها ولا تحترمها ، فتركت صديقتها ندي وحيدةً حزينةً بحالٍ مبكيةٍ ، وكانت ما تخفيه ندي عنها قد يفقدها صوابها لو عرفت ، وكان سيعكر عليها صفو فرحتها وحزنها ، بل ما كان ليترك شيئاً في حياتها إلا و أفسده ، وهي تعرف مدي إخلاص صديقتها ، فأخفت وظلت

تبكي وحيدةً ، فضَّلت وحدتها دون أن تفسد حياة الآخرين ، حتي لو كانوا أهلها الذين هم أولى أن يعرفوا سر بكاء ابنتهم ليلاً ، ذلك البكاء الذي لا يشعر أحد به ، فقررت أن تصمت و تكتم ما بداخلها ، فهي تعرف أنه سيأتي الأوان الذي ينكشف فيه كل شيء فيتأثر الجميع سواها ، فستكون أنفقت كل دمعة و كل كلمة في وحدتها و عزلتها ، و إن كان هناك دموع ستنزل ستكون علي أهلها ، فكان الصمت أنيس ندي في وحدتها ، و كانت تتذكر صاحبتها رضوي التي قررت أن تتناسي أحزانها إن لم تستطع أن تنساها كما قالت لها أمها ، وردت علي زوجها مصطفي بعدما رن عليها عدة مرات قائلةً :

- مصطفي كيف حالك ؟! أعتذر أني لم أرد !! كنت أتكلم مع أمي

هدأ غضبه قليلاً ، و قال :

- كيف حالها الآن ؟! هل هي بخير الآن ؟! وكيف حالكِ أنتِ ؟!

شعرت رضوي أن نبرته لم تكن مبشِّرة بالخير ، فسألته مرةً أخرى :

- أمي بخير وأنا بخير ، ولكن كيف حالكِ أنتِ ؟!

- أنا الحمد لله بخير تام ، وأنا آسف علي اتصالي في وقت متأخر ، ولكني أطمئن عليكِ .

لم تصدقه ، بل زاد شعورها أن به شيء يغضبه ، فسألته :

- مصطفي ! كن صريحاً يا حبيب قلبي ، وقل لي ماذا بك ؟! فنبرة صوتك تَنُمُّ عما تحاول أن تخفيه عني ، فماذا بك يا معشوق

قلبي ؟!
- وماذا يمكن أن يصيبني أو يبقي بداخلي بعد كلامك هذا يا زوجتي !! أدامك الله في حياتي يا غالية حياتي ، و مؤنسة عمري .
حاولت أن تخفف عنه بكلامها دون أن تسأله ، فتستميله فيحكي ، فقالت بنبرة المُحِبِّ :
- مصطفي ! أنا فخورة بك حقاً !! أنت تقول لي شعراً يميل له قلبي وعقلي .. أتعرف يا مصطفي !! ما أجمل الحب عندما يكون في طاعة الله ، بل ما أعفَّه يا جائزتي في الدنيا ، أنت تعينني عليها لأجتاز اختباراتها ؛ لأصل إلي الغاية منها وهي الجنة .. ما أجملك في حياتي ؛ لتزيدها بركة .. أتعلم !! أكثر ما أضحكني في جوابك ، قولك أني لم أبلغ العشرين بعد .
صمتت رضوي قليلاً حيث بدأت تشعر بتنهداته ، ثم قالت له :
- و لكن ماذا بكَ ؟! فأنا متأكدة من أن بكَ شيئاً ، فقل لي ماذا بكَ ؟!
- أنتِ قلتي لي أننا نكبر بوصولنا العشرين من العمر ، ونشعر بالمسئولية ، ولكني أراكِ طفلتي ، لم تكبري بعد سناً في نظري ، ولكنك تكبرين حباً وفرحاً في قلبي ، و صدقيني ليس بي شيءٌ حقاً ، لا تقلقي ! أما عن سبب اتصالي فإني أود أن أتكلم معك .
كان مصطفي يقول هذا ، و لكن في الحقيقة كان يشتاق لوالده ، يشتاق لنظراته لاحتوائه ، يشتاق لكلمة أب ، للسند ، للحب

الذي يغمر القلب و ينبت الفرح و يرسم البهجة علي الوجه ، وكان ليخفف عن أخته التي لا يعرف ماذا بها !! وظلَّ يفكر حتي قطعت تفكيره ذاك رضوي قائلةً :

- قل لي شعراً !! هذه رغبتي ، وأنت وعدتني أن لي كل يوم أمنية وهذه أمنيتي لليوم ، فقل لي .

لم يردْ أن يكسر بخاطرها ، أو يخلف وعده معها ، فهي صغيرته العفوية والتلقائية ، فقال لها ؛ ليفرحها :

- يا نجمةَ القلب وسماء فكره .. قد عشقك العقل وتغنى بعشقه
يا درةَ الأدب وجمال حسنه .. قد طمع اللسان بنطق اسمه
أشتاق إليك يا أنيسة الدرب .. وعفة وفاءه
يا مرسى الفؤاد ومراده .. و ميناء العقل و ملاذه
قد طال بعدك .. قد زاد الشوق و لهيبه
ففي حبك ..
لا يهم من هوى ومن غوى
و من تغنَّى بعشق مَنْ
و من عَشِق و من عُشِق
و من أُسِر بنظرة عين
و من شُبِّه بضي النهار
ومن شُبِّه بنور القمر
ومن كان قيس ليلي وعنتر عبلة

و ما لليلى أن تشبهكِ في شيء
فالحب لا يجوز بدونكِ أنتِ
فالحبُّ هو أنتِ
والعشق أنتِ
يا مراد الفؤاد ومطلب الفكر
قد زاد شوقي إليكِ

*****

قال مصطفي هذا الكلام وصمت ، حتي قالت رضوي له بعد دقائق ؛ حيث أدركت أن مصطفي صمت فهي كانت تهيم بين خيالها :

- مصطفي ! هل انتهيت ؟!
- كيف أنتهي وحبك لي لا ينتهي !! ولكني عجزت أن أصف حبك ببعض كلمات يا عزيزة روحي .
- سأقول لك الحقيقة .. أنا أردتكَ أن تقول لي شعراً لأعرف ماذا بكَ ؟! ولكني تهت في حلاوة كلامك ، حتي أني كنت أشعر أني لست واعية سوي لصوتك و كلماتك هذه ، فما أحنها علي نفسي من نفسي ذاتها !

أنا أعرف أنك لا تعرف أن تكتب شعراً ، و لكن قافيتك قد هوست عقلي حتي هام بها .. ليس لي في الشعر لأقول رأيي فيه و لكني أعرف حال القلب ومعناه ، و لكني لم ولن أجد كلمة أعبر لك

فيها عن مدى فرحتي ، حتي إني أشعر باللهفة في عقلي ، فلهفتي لم تكن في كلامي الذي تسمعه الآن .. أنا في البداية كنت أريدك أن تقول لي شعراً لأعرف ماذا بك ؛ لأن الشعر تظهر فيه المشاعر التي تسيطر علي الإنسان .. هكذا قرأت مرةً ولكني بدلاً من هذا بتُّ أريد أحداً ليخرجني من نهر كلماتك تلك ، فقد طرت معها لا أعلم إلي أين ذهبت !! ولكني همت بين فواصلها في حروفها بين كل شطر وشطر ، وفي كل سكوت لك ولهجتك ، هذا النهر الذي يرويني دائماً ، ولكنه يفيض عليَّ من خيراته فيعبر لي عن مشاعره التي تطغي علي كل ركن في جسدي ، حتي تنتشر حولي تلك المشاعر التي أعلمها علم اليقين ، فيطمئن لها وبها قلبي .. أنت تظل تخبرني إياها مراراً وتكراراً كأنك تترفق بقلبي ، فتقول لي أنا معك ، سأظل أحبك وأعبِّرُ لك ، فأشعر أني مدللتك . . حبيبتك .. أنا فرحة بك حقاً ، ورغم كل هذا ، أنا أظن أن هناك شيئاً بكَ .. فما هو ؟!

كان مصطفي يعرف أن رضوي لن تمل من السؤال لكي تطمئن عليه ، و لكنه كان يعرف أنها لها حق أن تفرح حتي و إن كان هو يتلوى من الألم في مشاعره ، فكان عالقاً في ذهنه انهيارها أمامه البارحة ، حتي إنها ظلت تكلم نفسها بصوت عالٍ ، وعلي الرغم من أنه تألم لرؤيتها هكذا ، إلا إنه لم يسألها عما تتكلم عنه ، وما الماضي لحالتها التي آلمته ، فكان مؤمن بداخله أنها تحتاج لفرحة

وها قد سعدت ولو قليلاً بكلماته الصغيرة لها ، لهذا لم يُرِدْ أن يقول لها أي شيء ، و لكنها كانت مصرَّة فابتدع فكرة ستشغلها عنه لمدة يومين ، وبالفعل قال لرضوى واقتنعت بها تمام الاقتناع ، وأنهي معها وأغلق معها الخط .

و لكن هناك خطٌّ من التفكير المتواصل عند ندي لم يقفل بعد ، فكان خط صديقتها الفضلى التي ابتعدت بسبب غبائها الذي لم تدركه إلا بعد فوات الأوان ، فكانت تخفي بداخلها ألمين .. واحد تعرفه ، والآخر تجهل كيف قامت به ؟! فأخفتْ كل شيء عن أهلها حتي لا يسألوها عن السبب ، و لكن هذا الألم لم يسكن بداخلها ، بل كانت أسئلة أهلها لها عن رضوى تزيد لهيب قهرها علي فراقها ، فكان الوجع يتسلح بتلك الأسئلة ، و بصمت عنيف تنفرد أحزانها بها ليلاً فتؤرِّق نومها ، وإن كانت ليست الأحزان وحدها التي تنفرد بها ، و لكنها أرادت أن تتخيل أن السبب في بكائها وعدم نومها هو الأحزان ، و إن كان هذا حتي بعيداً عن منال عقلها و تفكيرها ، فما كانت تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير ، و ما كانت تستطيع النوم سوى بمهدئات كافيةٍ لتخمد ثوراً هائجاً ، لا يستطيع أحد أن يسيطر عليه ، و كما كانت تفكر في رضوي كانت رضوي تفكر فيها ، ولكن بطريقة تستحقها من وجهة نظرها ، ورداً علي ما فعلته معها .

فظلت رضوي طيلةَ الليل تسأل نفسها .. لماذا فعلت ندي معها

هذا ؟! فإن للصداقة رابطٌ قلبيٌّ ، ولا يُكسر هذا الرابط بسهولة ، وعندما يكسر يشقى كلا الطرفين شقاءً يظهر الحب الذي قُطع ، والاهتمام الذي مُنع ، والأحلام التي يعيشانها معاً .. فظلت رضوي تبكي طيلةَ اللَّيل في صمت ، حتي أنها كانت لا تسمع سوى صوت الليل المخيف ، الذي يوحش من عزلة المرء الحزين ، و كان هذا الجو يزداد وحشة فتسمع فيه صوت أنَّات قلبها ، و ظلت هكذا حتي الصباح ، فكانت عيناها حمراوين مرهقة ، فنامت كأنها كانت تخشي الليل ولا تأمنه علي الباقي من قلبها إن كان ما زال هناك ما يتبقى لها شيء من الصداقة ، و بعد أن استيقظت طلبت من أمها أن تذهب إلي الطبيب لتطمئن عليها ، ولكنها طلبت منها أن تنتظر فحاولت رضوي أن تقنع أمها ، ولكن أمها كانت مصرة علي أن تصبر فصبرت رضوي يومين وكان الحال علي ما هو عليه ، فطلبت منها أن تذهب و لكن أمها حاولت أن تماطلها و لكنها لم تستطع ، فذهبا إلي الطبيب وطلب منهما الطبيب عدة تحاليل ، فكان عليها أن تنتظر مدة أسبوعين إلي شهر حتي يأتي دورها في التحاليل المجانية ، أو أنها يمكنها أن تعمل هذه التحاليل علي حسابها وستكون مكلفة ، فاضطروا إلي أن يصبروا .. وبعد أن خرجوا من المشفى إذ بمصطفي يرن علي رضوي فانتظرت رضوي حتي ذهبت إلي البيت و رنت عليه ، رغم أنها كانت في حالة نفسية صعبة و لكنها رنت عليه ؛ لتعتذر منه

و قبل أن تحاول أن تتكلم مع مصطفي كان مصطفي فرحاً ، فلم يعطيها فرصة للكلام قائلاً :

- رضوي ! كيف حالك ؟! لقد جهزت كل شيء كما اتفقنا .. متي ستأتين ؟!

كانت فرحة مصطفي واضحة في نبرة صوته ، فكانت سعادته غامرة و لكن علي قلبه فقط ، فقد كان قلب رضوي قلق علي أمها ، وعقلها منشغل بها ، و كانت تشعر بفرحه و حماسه ، و كانت هي أيضاً ترتب للأمر من البارحة و لكن لم يكن مقدَّرٌ لهما أن ينفذا أي شيء ، فأضحت حزينة علي فرحة مصطفي التي ستذهب عنه لاعتذارها منه ، فحاولت أن تلملم قوتها لتقنعه أن ينفذ كل شيء كما اتفقا عليه ، فقالت :

- أنا الحمد لله ، و لكني أعتذر لك ، فإني لن أقدر أن آتي إليك كما اتفقنا !

فقلق عليها فسألها إذا ما كان كل شيء بخير ، فأخبرته أن هناك من يطرق الباب ، و كان من يطرق الباب أمها فطلبت منها أن تغلق مع مصطفي الآن .. لم تكن رضوي تفهم لماذا !! و لكنها أغلقت مع زوجها ، و نظرت إلي أمها و كل ملامح وجهها كأنها تقول تكلمي فقد أغلقت .. ما السبب !! و لكنها لم تتكلم فكانت خائفةً أن تكون أمها مرضت أكثر ، فانتظرت صامتةً ، حتي قطعت أمها هذا الصمت قائلةً :

- رضوي ! أنا لا أعرف ما هو الشيء الذي طلب منك مصطفي أن تقومي به !! و لن أسأل ما هو !! و لكن لماذا اعتذرتِ له ؟! هل السبب أنا ؟! لو كان السبب أنا فأنا سأردد عليك كلامك البارحة .. أننا لا يجب أن نعيش في الأحزان ، ألم تقولي لي (يا أمي لو علقتي في باب الأحزان فإني سأفتحه ، و أغوص فيه لآخذ بيدك و نعيش في سلام) .. أليس هذا كلامك ؟! فلماذا لا تنفذيه ؟! نحن لن نعرف النتيجة إلا بعد شهر .. هل ستظلين عاكفة في البيت لمدة شهر ؟! ألا يكفيكِ أني أبتسم .

اسمعي يا رضوي .. أنت حقاً درةُ قلبي و نوُر مهجتي ، فلا أريدك أن تحزني قط .. أخبريني الآن ! هل ستذهبين لمصطفي؟! واجعلي إجابتك تكون نعم .. حتي لو لم أكن أنا أريدك أن تخرجي ، و لكن أخبريني أين ستذهبين ؟!

و بينما كانت رضوي تحكي لأمها ، دخلت عليهما هناء ف قالت لها رضوي : - هيا البسي لنخرج ، و سأخبرك في الطريق أين سنذهب - ، فردت هناء بسخرية :

- و إن لم تخبريني .. المهم أني سأخرج !!

لبست هناء و استعدت رضوي ، و في الطريق اتصلت رضوي بمصطفي ، و أخبرته بأنها في الطريق ، ففرح و لكن هناء لم تفهم ، فسألتها :

- إلي أين نحن ذاهبون ؟!

- سأخبرك يا هنوءة روحي إلي أين سنذهب !! مصطفي حاول أن يبهج أخته فقرر أن يفاجئها ، و أنت صديقة أماني المقربة ، فطلب مني أن أحضرك ، فقالت بنبرتها الساخرة التي اعتادتها رضوي :

- أهذا يعني أنك لم تأخذيني معك لنخرج ، بل لأني صديقة أماني!! أكثر الله من أمثال أماني في حياتي !!

ظلت رضوي تضحك علي أختها وطريقة كلامها ، فسألت أختها :

- قولي لي أولاً .. هل تعرفين ما بها ؟!

- هذا سرٌّ في الحقيقة يؤرق عن النوم ، ولكن كما تعلمين إنه سرٌّ .

- طريقة كلامك المستفزة والتي تحاولين بها كل مرة أن تثيري فضولي ، و لكن دائماً ما تفشلين ... .

صمتت رضوي وعجزت عن الرد متعجبة ، فما إن بدأت تلك الصغيرة في البكاء حتي سألتها عن سبب بكائها ، فكان رد أختها أن سألتها .. ما هو اليتم ؟! ذهلت رضوي و تسمرت في مكانها و ظلت تتساءل لماذا تدور في خاطرها ؟! و لكن زادت دموع أختها ، فأقلعت عن صمتها سائلةً إياها عن سبب سؤالها ، فقالت لها أختها :

- لا شيء ، و لكن أجيبي .. ما هو الشعور ؟! أنا حقاً لمست كمية وجع قاتلة بما كان يحدث لأمي ، فماذا عمن فقدها للأبد !! أنت كنتِ تجدين يد أبي تربت علي كتفك ، وحضنه الذي ترتمين به

، فماذا عمن فقد كل هذا ؟! بل أضحي وحيداً !! أنا حقاً أشعر بأنين صديقتي .
أتعلمين ؟! ربما لست حزينة على الديها ، فما يحدث لها يومياً و في كل لحظة تمرُّ عليها ، يتجاوز آلاف المرات من فقدان والديها .
أتعلمين ؟! أنا أشعر بألمها بالنظر في عينها عندما أسلم عليها .. أشعر بأنها غارقة في الألم .. أشعر بالآهات وهي تتوغل ثنايا قلبها البريء ، فيقتلها قهراً .
صديقتي هذه كانت الدر المتلألئ علي جزيئات أملي ، فتتساقط تلك الجزيئات .. كانت تبتعد فتشير لي من بعيد أنا معك حتي لو لم اكن هنا .. تلوح لي بيد من سلام و تقول لي ابتسمي ، حتي باتت هذه النسمة المترقرقة علي سماء سعادتي متألمة ، ولا أعرف كيف أخفف عنها !! فقولي لي ماذا أفعل لأساعدها إذا كنت أنا عجزت أمام حزنها ، وكأنه عدوى تتفشي في قلبها ، وقلب من يحبها !
كانت رضوي شاردة في ذكرياتها مع ندي ، و لكن كيف لها أن تعلم ماذا يحدث مع صديقتها ؟! أنَّى لها أن تعرف أنها تبكي بكاءاً متواصلاً ؟! فإن لم يكن بالدموع فبالآهات التي يأنُّ لها قلبها ، فيلهبها ، و لكن رضوي كانت كل يوم تود أن تكلمها لتعرف إجابة لكلمة واحدة ، وهي لماذا ؟!
وظلت رضوي في دوامة تفكيرها ، حتي كادت هناء تقع فسندتها

، وسألتها إذا كانت بخير ، فردت عليها الفتاة ذات الثلاثة عشر عاماً ببراءتها ، وعفويتها

- ليت صديقتي تكون بخير ، ليتها تضحك فيتنفس قلبها غير الوجع .. أسمع بين سكنات كلامها شيء غير آهاتها التي تتسابق أيها تخرج أولاً ، حتي لو كان صمتا سيكون أرحم علي قلبها .. أتعرفين ؟! أتذكر دائماً مقولة كانت تقولها لنا معلمتنا ، ألا وهي .. - أضحينا نفرط من الضحك قصداً ؛ حتي تنزل دموعنا فنستريح ، ولكن الجميع ينظر لنا أننا كثيري الضحك رغم كوننا كثيري الكتمان المعانق للألم ، المضاد للفرحة ، متمسكين بالأمل في البكاء دون أن نُشعر بنا أحد ، ولكن إيانا أن ننسى أن الله معنا مهما عصفت بنا العاصفة ، ومهما التهب قلبنا من بركانه الداخلي ، وأرهقت عقولنا من أعاصير التفكير التي تنهكنا ، فلنعلم أنه مهما اشتدت علينا الأمور فإنها ستفرج ، وكل تلك الأعاصير ودموع الألم ستتحول إلي جبال من فرح و سلام داخلي - .. فليت يا أختي ذلك السلام يعم علي صديقتي !

أرادت رضوي أن تعلم من صديقتها تلك ، وماذا حدث لها حتي تبكي عليها هكذا ؟! فقالت :

- أخبريني يا هناء ولا تقولي لي أن هذا سر ، من هي ، و ماذا حدث لها ؟!

عرفت هناء ماذا تريد أختها ، و لكنها لم تتكلم متأملةً ألا تسأل

، و لكنها سألت فقالت :
- ماذا حدث لصديقتك لكل هذا الألم الذي أراه بك ؟! أخبريني و حينها يمكنني أن أساعدك .
- أنا بخير و لكن إذا كنتي تريدين مساعدتي فأدعي لصديقتي في كل سجدة ، وفي كل وقت تتذكرينها أدعي لذلك القلب الحنون الذي كانت ترفرف عليه دائماً أجنحة السكينة في سمائها الصافية الملونة بقوس الفرح و طيورها المغردة بألوان السعادة والرخاء ، أدعي لمن ذاب قلبي وألتهب علي حزنها ، أدعي لها .
تذكرت رضوى ندى فكانت تحزن لحزنها ، والأوقات التي كانت تتغزل فيها ندي بها فتقول أكثر من هذا ، ولكن أين هي الآن ؟! فهي قررت أن ترحل وتقسو علي رضوي ، و لكن ليس هذا فقط ما كان يدور في بالها ، بل كانت تنظر لأختها و تقول في خاطرها :
- سيزول كل هذا الحب بمجرد أن تكبرا ، أو ربما ما زلتما في جمال البدايات - ، حيث تحمل البداية الكثير من السعادة والشغف والاهتمام الغير مبرر ، والذي لا يدوم في الأغلب ، بل حتي الشغف يتلاشى ، لذلك تتساقط منا بعض الناس في المنتصف ، يتساقط منا مَنْ كنا نعتقد أنهم سيبقون للنهاية .. مَنْ صنعنا معهم أحلامنا وغدانا ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبقوا حتي المنتصف ، بل حتي الغد فقرروا الرحيل ؛ ليرحل معهم جزءاً منا يفارقنا و كأنه يقول لنا : - يا لكم من أغبياء !! ألا تتعلمون الدرس مطلقا ؟! ألا

تتعلمون أن تصونوا ما وهبكم الله من مشاعر و طاقة و عقل ، حتي تسرفوه علي أي أحد بدون حساب ؟! - ، و لكنها سرعان ما قطعت تفكيرها قائلةً :

- حسناً يا هناء ، لقد وصلنا وهذا هاتفي ، اتصلي بأماني لتأتي ، و لكن لي معك حديثٌ مطولٌ .

- و ماذا سأقول لها ؟! أماني أنا أنتظرك في الشارع !!

كانت لهجة هناء كلها سخرية ، فأجبرت رضوي علي الابتسام قائلةً :

- ما أعظم سخريتك تلك !! قولي لها أنكِ تودين التحدث معها ، وألحي عليها وهي ستأتي ، أنتِ دائماً ما تفعلين هذا معها ، وهي تأتي كل مرة .

- حسناً ، أدخلي و أنا سأتصل بها .

- أدخل ؟! أنا سأنتظر معك ، و سندخل سوياً ، أنا أختك و هذا هاتفي .

قالت هذا في محاولة لتداعبها ، فكان رد هناء :

- كلا .. اسبقيني وأنا سأكلمها ، لن آخذ سوي دقيقة واحدة .

فدخلت ، و كانت تفكر في ندي ، ولكنها بمجرد أن رأت مصطفي ظلت تبتسم حتي دمعت عيناها ، فكان قد نظم كل شيء حتي أضحت رائحة البهجة والسعادة تفوح من المكان ، وما هي إلا دقائق معدودة وأتت أماني ، و بمجرد أن رأت المنظر و رأت

أخوها حتي أرتمت في حضنه ، و في الحقيقة هي لم ترتمي في حضنه من الفرحة ، و لكن لأنها كانت بحاجة لشخص يضمها و يهون عنها و لو قليلاً ، ثم بعد هذا سلمت علي رضوي و سلمت علي هناء ، وهمست لها ما جعل هناء تدمع عينيها ، فتعجبت رضوي و ابتسمت من قوة علاقة الصداقة التي بينهما التي دامت أكثر من ست سنوات ، و ظلت هناء وأماني متعانقتين ، حتي قالت لهما رضوى :

- هيا لنجلس ، ألم تكونا مع بعضكما في الصباح في المدرسة ؟! هيا !

فجلسوا ، وكان يوماً لن ينسي وفي المساء جلست رضوي مع هناء لتسألها عما حدث لصديقتها ، فكان الفضول يقتلها وكانت تعرف أن أختها تُغرِّدُ بالاهتمام ، كما كانت تعرف أن أختها لن تخبرها مباشرةً ، فحاولت أن تتكلم في أي موضوع في البداية ، ثم تسألها ، فبدأت مناورتها علي أختها قائلةً :

- هنؤتي الغالية ! ماذا كان رأيك اليوم ؟! إنه يوم لن ينسي ، و أكثر ما يبهج أن أماني قد أدمعت عينيها فرحاً ، أنا فرحت لها كثيراً .

نظرت لها أختها هناء نظرةً تنُم أن الكلام لم يعجبها قط ، فتنهدت وأعقبت تنهيدتها بكلام يحاوطه الغموض ، حيث قالت :

- أدمعت فرحاً !! ومن أين سيأتي الفرح يا أختي ؟! يمكنك أن تقولي أدمعت قهراً بسبب ما كانت تكتمه .. أدمعت حسرةً ،

و لكن فرحاً !! ما عاد لنا باب ليدق الفرح علينا ، و لو كان لنا باب فكيف لنا أن نفتحه و الحزن يستولي علي كل المفاتيح ؟! حتي أنه لو اقترب الفرح من بابنا لمات مخنوقاً من عفن الحزن ، أما عن كون أن اليوم لن ينسى فهو حقاً لن ينسى .. أنا كنت أتساءل دائماً عندما كنت أقرأ الروايات .. من أين تأتي الشخصيات بكل هذه القوة لكتمان الأمور ؟! ولكني أعرف الآن أنهم يستمدونها من طاحونة المشاكل التي مروا بها ، فكانت تطحنهم كما يُطحن القمح ، فتحاول أن تسحقهم ، ولكنها تفشل أمام مثقالٍ ضئيلٍ من المقاومة والكراهية للاستسلام ، فيعادي هذا المثقال الصغير كل شعور اليأس والإحباط اللذين مرَّا بهما ، فيرجع يقف علي رجله من جديد مناهضاً كل شيء كان سبباً ليصل لهذه المرحلة ، ومن الممكن أن يناهض نفسه إذا أبت الوقوف معه ، فإن بداخله جزء يرفض أن يُكتشف بعد مرور الوقت ، أنه ظلم نفسه و اضطهدها بمطاوعتها علي الاستسلام ، فيبحث بنفسه عن الأمل ليكمل حياته .

لاحظت هناء نظرات التعجب تملأ وجه أختها ، فاستأنفت حديثها رداً علي تلك النظرات ، قائلةً :

- أنت لا تتخيلين مدي فائدة قراءة الكتب حين تضحي هي أنيسك الوحيد ، و لكن حتي حق القراءة هذا سُرق مني .. ما عدت أستطيع أن أكتم بداخلي أكثر من هذا ، و لكن إذا كانت

حالتي هكذا فكيف هي حالة صديقتي ؟! حالة صاحبة الشأن نفسه ؟!
فانهارت بالبكاء ، فحاولت رضوي أن تخفف عنها وتسألها ماذا بها !! و لكن كانت أختها تبكي بحسرة شديدة ، فلم تكن تعرف ماذا تفعل ؟! حتي طلبت تلك الصغيرة منها أن تطفأ النور لتنام ، فتركتها رضوي لتنام و خرجت ، فهي تعلم أنه لا يجب أن تجهدها في الحديث ، و لكن رضوي تذكرت ندي فكتبت علي صفحتها علي الفيس بوك بوستاً تقول فيه : (إلى أولئك الذين لا أعرف ماذا أطلق عليهم بعد أن كانوا أخوة لي .. إلي من لم يعدن أصدقائي .. إلي اللائي قررن الرحيل .. سأشتاق لكم حقاً ، وسيلتهب القلب بكرباج شوقكم ، ولكن سيبرده سوط قراركم ، وسيلطفه أنكم فعلتم ورحلتم وهنت عليكم !! فمن مكاني هذا سلامٌ مني عليكم و لا سلامَ منكم عليَّ ، فكيف يعرف القلب السلام منكم وأنتم جارحوه !! بعد أن كان يحلم معكم أضحي لا يتمني رؤيتكم ، بعد أن كنتم أنتم نعم الأصدقاء بل كنتم برداً سالماً يرطب آلامي و جوارحي ، سندي في دنيا بات الألم ينتشر فيها ، بل بات الألم لديه حب التملك ليخرب حياتنا ، فكنتم أنتم من ينتشلني منه ، ولكن بتُّم الآن من يرميني في البئر و يغلق عليَّ ، و لكني أتمنى لكم أن تسعدوا دائماً ، وألا يمسكم حزن ، و أتمني أن تبتعدوا عني ولا أراكم أبداً) .

كتبت رضوى هذا الكلام ، وكانت تقصد به ندي صديقتها الوحيدة التي كانت بالنسبة لها أختا ، التي قررت أن تهينها بتصرفاتها ، فتذكرت رضوي كلمات أمها عن صديقتها التي توفت؛ حيث كانت أمها تتغني بعلاقتهم و بصداقتهم ، فقالت لها أمها: (كان لي في هذا العالم يا صغيرتي صديقة واحدة ، ولكنها كانت نعم الصديقة ونعم الأخت .. لم نكن نلتقي كثيراً ، فالصداقة لا تعني اللقاء ، وإياك و أن تتوهمي بمن يقول لك أن الصداقة حاجة .. كلا ، لا يتوجب علي صديقتك أن تكون معك في كل ضيق لك .. فماذا عن ضيقها ؟! ماذا إذا ساءت الأمور والظروف لديكما في وقت واحد فلم تستطيعا أن تتقابلا ؟! أهذا يعني أنها صديقة سيئة و أنها لا تستحق !! كلا يا ابنتي .. الصداقة قد تعني الاعتدال في المشاعر ، في التدخل في أمور حياتك ، في إنصافك ، فإذا كنتي تتساءلين عن معنى الاعتدال ، فهو المساحة التي يتنفس من خلالها الشخص ، النافذة التي ينظر لك من خلالها ؛ ليلوح لك ليشكرك علي احترام صمته في بعض الأوقات دون أن تزعجيه ، أو تؤنبيه علي كتمانه ، أما الاعتدال في المشاعر ، هو ألا تطلبي منها كل حين كلام غزل ، أو تريديها أن تقوم لك بما يبسطك دائماً ، هل رأيتِ أمَّاً تعطي ابنها الصغير عود ثقاب مشتعل لمجرد أنه يريد أن يفهم ما هذا !! كذلك تكون صديقتك فكل منكما لديها وجهة نظر مختلفة ترى بها الأمور ، ومعني الاعتدال في إنصافك أنها

تنصفك في الحق دائماً ، ولكن في غير هذا فإنها لا تقف في صفك ، بل تقف بجانبك لتهمس في أذنك و توضح لك الأمر .. هكذا الصداقة من وجهة نظري يا ابنتي .. قد لا تروقك و هذا حقك ، و لكن عليك أن تعرفي أن هناك أناس يرهقون من كثرة الأسئلة ولا يحبون أن يتدخل أحد في حياتهم سوى بشكل يحدِّدوه هم ، وهناك من يخاف علي قلبك فلا يحدثك عما به ويفضل أن يري ضحكتك فتكون بمثابة فرح له و بهجة) .. كانت هذه الكلمات ترن في أذنها ، حتي استيقظت هناء من النوم ، فطلبت منها أن تعيرها هاتفها حتي تهاتف أماني ، فأعطتها فخرجت هناء من الغرفة ، فسألتها رضوي مرة أخري :

- هناء ماذا بك ؟! أنا حقاً بدأت أقلق عليك .. و لماذا تأخذين الهاتف و تخرجي ؟! من متي تفعلين هذا ؟! و لماذا بتي حزينة هكذا ؟!

كانت رضوي تخفي خوفها علي أختها ، فهي تعلم أن أختها لا تعلم عن نفسها كل شيء ، كما أنها عاجزة عن تطييب خاطرها ، و لكن إذا تركتها ستسوء حالتها ، و في هذه المرة قد لا يكون هناك مفرٌّ ، و لكنها لا تستطع أن تخبر تلك الطفلة المسكينة عما بها ، ففضلت السكوت ، و قامت تصلي ركعتين من أجل ألا يصيب أختها شيء .

خرجت أختها من الغرفة ، و هاتفت أماني قائلةً :

- أماني كيف حالك ؟! اشتقت لك حقاً .. أخبريني بسرعة ماذا سنفعل غداً ؟!
- الحمد لله بخير .. سنذهب إليها و سأقول لأمي أني ذاهبة إلي صديقتي ؛ لأن أحد أقرباءها مات .
-و إذا سألتك من الذي مات ، ماذا ستقولين لها ؟!
اختنقت أماني من كل أسئلة هناء ، فكان يكفيها ما بداخلها ، فقالت :
- هناء !! لماذا تشعريني أنه سيحقق معك !! مات أخوها الأصغر منها !! و يكفي هذا القدر من الأسئلة ، فأنا مرهقة لحد الاكتفاء من الحديث .
كان يتردد في بال هناء أن أفضل ما في الصداقة هو العفوية و التلقائية التي تحتل كل مكان في القلب ، نظرة البراءة في العين التي تطهِّر قذارة العالم ، الصداقة التي تكمل معنى كلمة عائلة ، فتكون سدَّاً ضد جيوش الحزن التي أضحت في حياة صديقتها ، و تكون نهراً لهشاشة الفرح التي تحاول ايجادها لتنعش حياة صديقتها مرة آخري ، و لكن كيف لصديقتها أميمة أن تعرف معنى العفوية بعد الآن .. تلك التي تفقد قطعة من قلبها بين كل حين و حين ، و كأنه شيء لم يعد صالح للتواجد علي وجه الأرض ، و لكن تذكرت أنها لن تستطيع الذهاب إليها غداً ، فحاولت أن تتصل بأماني ، و لكنها لم ترد ، فاستسلمت للنوم و تركت كل ما

كانت تفكر فيه ، ليأخذها النوم لدنيا خيالها ، ولم تستيقظ سوى علي صوت أمها الهادئ ، فكل ما حدث معها كافٍ ليجعل صوتها لا يصدر من الأساس .. قالت أمها بحنية وود ، و كانت تملس علي شعرها :

- هناء صغيرتي !! هيا استيقظي ، ستذهب أختك استيقظي لتسلمي عليها .

- ستذهب أختي إلى أين ؟!

- إلى المطار .

الفصل الثالث :-

- غربة مشاعر -

كانت كثرة التفكير الليلة البارحة أرهقتها لدرجة أنها تعبت ، و أضحت تمسك برأسها و تتأوه فقلقت أمها ، و سألتها إذا كانت بخير فخافت عليها كثيراً ، و اتضح هذا في نبرة صوتها وهي تقول:
- هناء لا تتحركي ، و أنا سأجعل أختك تدخل إليك و لكن لا تجهدي نفسك .
تعجبت هناء من ردة فعل أمها ، و من قلقها فقالت بتعجب :
- أمي ! ماذا بكم جميعاً ؟! لماذا تقلقون عليّ دائماً ؟! أنا حقاً لا أفهم ولكني أتعجب من هذه الطريقة .. بت أسأل نفسي كثيراً فأنا لا أراكم تقلقون علي رضوي هكذا ، أنتم تقلقون علي بشكل غير طبيعي !
كانت أمها تعرف أنها لها الحق في ردة فعلها ، و حاولت أن ترد رداً ربما يريح ابنتها ، و لكنه ليس واقعي ، فقالت :
- هناء ! أنت صغيرة العائلة ، فهذا طبيعي جداً أن نقلق عليك ، فأنت عصفورة البيت المغردة بالحب و المفعمة بالنشاط ، و نحن لن نتحمل أن نراكِ متعبة ، و أنا الآن سأحضر أختك و استريحي أنت و لا تتحركي .
- أنا سأنهض ، فأنا على كلٍّ سأذهب معها إلي المطار أودعها .

-لا تقولين وداع ! وأنت لن تستطيعي أن تذهبي معنا ، فسيارة مصطفي لن تأخذنا كلنا .. حسناً ؟! وإياكِ أن تعترضي أو تتكلمي ، سأنادي أختك لك .
خرجت أمها و نادت لرضوي وأخبرتها أن هناء مريضة .. فدخلت رضوي إلي أختها مبتسمةً فرحةً ، فقالت هناء :
- رضوي .. ستسافرين !! سأشتاق لك حقاً !
نبرة صوت هناء كانت تنم عن البكاء الذي تكتمه ، و لكن رضوي حاولت أن تمنع أختها من البكاء قائلةً :
-نوئتي الصغري ! أريدك أن تبتسمي دائماً أنت صغيرة قلبي ، و نسمة الحيوية في بيتنا الموقر .. أريدك أن تبتسمي و أنا للأسف يجب أن أذهب الآن ، و لكن عديني أن تبتسمي و تفرحي دائماً ، سأشتاق لكي و لكن أنت في قلبي و أمام عيني .
ضمت رضوي هناء و ظلا هكذا حتي نادت عليها أمها ، فودعت رضوي أختها وذهبت إلي المطار و معها مصطفي و أبيها و أمها ، فقال الأول :
-رضوي ! سأشتاق لك و لديك عندي مفاجأة ، أنت قلتي لي أن الله سييسر لك أمورك ، و حقاً من جعل أمله في الله و توكل عليه ما خاب أبداً .. تفضلي الفرج !
فاندهشت من كلامه .. فأي فرج سيكون في علبة ، بل علبة صغيرة ففتحتها و ظلت تقلبها ؛ علها تفهم فقال لها زوجها :

-قد تظنين أنها ساعة ، و لكن كلا هذا سيكون سري و سرك ، هذه ساعة حقاً و لكن برائحة السر هاهاهاهاهاهاها .

نظرت له رضوي وظلت تبتسم وتتعجب من تصرفه ، قائلةً له بنبرةِ صوتٍ رقيقٍ :

- أدام الله ضحكتك يا زوجي المصون ، و تكون برائحة السعادة و أنا ذا أنتظر أن أتذوق نكهة السر .

شعر مصطفي بالسخرية في كلامها ، فقال معاتباً ضاحكاً :

- أتسخرين مني ؟!

- مصطفي ! لا تكمل .. حاشا لله أن أسخر منك ، كيف لي أن أسخر منك و لو حتي عن سبيل المداعبة !! قلبي و عقلي لا يسمحان لي بل لا يجرئان علي التفكير في مثل هذا الشيء .. كيف لك أن تقول هذا ؟! لقد أحزنتني يا مصطفي ! غفر الله لك ، أهكذا تظن بي يا هوايا المغتفر ؟!

رمقها مصطفي بعينه و كأنه يقول لها إلي متي ستظلين بهذا الجمال !! فظل يضحك و هو يرجع للوراء فاصطدم بأبيها ، الذي كان يقف بعيد ليعطيهما المساحة ليتكلما كما يشاءان ، فاحتضن أباها الذي ظل يضحك متعجباً منه ، و لكنه نظر لابنته ، فما إن لاحظت رضوي حتي نظرت إلي الأرض ، و هي لا تعرف كيف تداري ضحكتها ، حتي احمر وجهها ضحكاً ، كل هذا و مصطفي يضحك و هو يحتضن عمه ويميل برأسه علي كتفه ، كأنه طفل

صغير ممسك بأبيه و هو ينظر لزوجته ، حتي هزت رضوي رأسها ليبتعد ، ففوجئ بوضعه هذا فذهب جرياً ، و أشار لرضوي بعينه و هو يجري لتأتي وراءه ، فذهبت وراءه فظل والديها يضحكان عليهما ، و سأل أبوها أمها قائلاً :

-لا أعرف كيف سيبتعدان عن بعضهما هذان الإثنين ؟! لا أعرف!!

و ظل يضحك ، لم يكن يعرف أن هذان الاثنان في الخارج غارقان في الضحك ، و ابنته تقول لزوجها :

- سامحك الله لقد أحرجتني !

و هي تقول هذا الكلام ، و تنظر في الأرض ، فنظر لها مصطفي فابتسم قائلاً لها :

- هل أنت خجلة مني يا رضوة عمري ؟!

فظلت رضوي تنظر للأرض ، فقال لها مصطفي :

- هل يصح ما تفعليه ؟! لقد ملكتي نظراتي .. ما عاد يمكنني أن أنظر سوى إليك ، وها أنت تحرميني من أن أرى عينك ، أهكذا تعاقبينني ؟!

فنظرت له رضوي و قالت :

-كلا يا زوجي .. لست أنا من جعلتك لا تنظر لسواي ، و إنما هو غض بصرك يا بصيرتي في الدنيا !

ظلا كلاهما يضحكان ، فقال لها مصطفي :

- هذا عن نظراتي ، فماذا عن قلبي وعقلي ؟! هل يغضان البصر

هما أيضاً ؟!
ضحكت رضوي حتي كاد أن يعلو صوت ضحكها ، فقالت :
- أوقف هذا الكلام .. حقاً أنا أحمد الله عليك في كل صلاة ، و لكن إذا تكلمت أو عقبت علي هذا ، سأذهب إلي أبي حقاً .
فنظر لها مصطفي بلؤمٍ ، و قال :
- مثلما ذهبت له أنا ؟!
فغرقت رضوي في الضحك حتي كادت أن تكح ، فتوقف مصطفي عن الضحك ، وقال :
- تذكرت السر ، هذه الساعة بها استشعار لنبضات القلب ، فهي تصدر صوتاً بمجرد أن ترتديها فتسجل ضربات قلبك ، و تقيسها ، وبمجرد ما أن تنخفض عن الطبيعي أو ترتفع ستصدر صوتاً ، و أنت دائماً تقولين لي أن في حالتك تلك تشعرين أن ضربات قلبك تتزايد ، و بهذه الطريقة سأعرف لأني سأرتدي واحدة مثلها .. هما ساعتان تباعان معاً ، فأنت إذا حدث لك شيء أثَّر علي ضربات قلبك أنا سأشعر بها دون أن تصدر صوتاً لك ، و لكنها ستصدر صوتا لي ، بهذا سأحاول أن أقنع نفسي أنك بأمان .
أخذت الساعة و سلمت علي أمها و أبيها وكانت تبكي ، و لكنها حاولت أن تكبح نفسها حتي لا تبكي أمها ، و همست لمصطفي حتي لا ينسي ما طلبته منه .
سافرت رضوي إلي بلد لا تعرفها لتحقق حلمها .. بلد ليس لها

فيها صديق و لا حبيب سوى زميلة واحدة هي التي أخبرتها عن مكان سكنها ، كانت تعرف أنها ستنزل من المطار و لن تجد قلباً رحيماً بها ينتظرها ، تذكرت كلامها مع أمها وهي كانت جالسة تدعو الله أن يحقق لها حلمها ، فسمعتها أمها فلم تدخل غرفتها حتي لا تقاطعها ، وانتظرتها حتي تنتهي لتكلمها ، فقالت و هي تربت علي كتف ابنتها وتملِّس علي رأسها :

- حقق الله لك حلمك يا عزيزتي .. أعلم أن داخلك متخوف من فكرة الاغتراب ، و أعتقد أنه كان لا يتقبلها كلياً أو حتي جزئياً لولا أنها السبيل الوحيد لتحققي حلمك و هدفك ، فاسمعي يا صغيرة قلبي .. أنا أود أن أراكِ قوية في غربتك ، متماسكة بقلبك و فكرك ، فلا تتركيهم لأي شيء ليضيعهما ، رابطي علي ما وهبك الله ، وأعرفي جيداً أننا سنكون معك دائماً ، ندعو الله أن يرزقك الخير ، سأعُدُّ الأيام حتي ترجعي لأشاركك نجاحك ، و أشارك العالم فخري بك ، و تأكدي يا ابنتي أن الله لا يخذل أحداً جاء إليه مترجيَّاً ،و لكن هناك ما يجب أن تعيه ،وهو أن بعض الأحلام المحققة ترهق صاحبها و تتعبه ، حتي كان ليتمني لو أن تلك الأحلام لم تَرِدْ على خاطره .. فاعلمي أن الله أرحم بكِ مني ، أنا التي ولدتك .. التي لا يهون عليها أن تراكِ تدمعي ، فهو الذي لا يغفل عما بقلبك ، ولكن بعض الاختبارات هي أصل الحياة .. لتعلمي كيف تعيشين ؟! فمهما مررتي بسوء في غربتك لا تتمني

إلا أن ترجعي محققة هدفك .. إياكِ أن تضعفي أمام المكتسبات الكاذبة للغربة !

كانت تسمع بصمت ، حتي سألت أمها عن المكتسبات الكاذبة فردت أمها :

- ستكتشفينها ، مع أني أدعو الله ألا يعرضك إليها !

فقالت رضوي لأمها :

- أتعلمين يا أمي أنه ليس الجميع يمتلك أم مثلك !! بل ليس الجميع يمتلك من ينتظره عند القمة ليفخر به ، أو من يشجعه إذا تعبوا أو أرهقوا لينهض به ، فهؤلاء عليهم أن ينهضوا بأنفسهم .. أن يقفوا علي أرجلهم مهما كانت حالتهم ، ليس لديهم ميزة الرأفة بالقلب بقدر ما يتمنون ، أو حتي بقدر ما يُفرض عليهم .. هؤلاء عليهم إجبار عقولهم علي التمسك بالحلم خوفاً من أن يسقطوا فتكون نهايتهم .. هؤلاء هم من يتوجب عليهم أن يجدوا شغفهم ، ومن يتسلقوا كل سلم و هم يتنفسون الصعداء ، وعندما يصلون لأعلي لا يجدون من يفتح لهم ذراعيه مشيراً لهم بالصعود ، و عندما ينظرون لأسفل لا يجدون من يقول لهم هيا أكملوا !! و يصفقون لهم !! فيكونوا هم عند أنفسهم و لا يكون سواهم ، هم من كافحوا و صبروا بدون أحد ، و ما كان معهم في الصورة غير هم !!

كل هذه الذ كريات جعلت تلك الفتاة التي تركت ورائها حياة

لتزرع في نفسها زهرة من أزهار طموحاتها المغردة في سماء أحلامها تبتسم ، و لكنها كانت تعلم أنها ستجد زميلتها لتأخذها إلي سكن لا تعرفه ، و أناس يتحدثون لغة لا تعرف عنها الكثير ، و لا تعرف خصالهم ، ومع كل هذا التفكير ، لم تنس أختها و حالتها التي تركتها فيها ، و حبيبها مصطفي و قلقه عليها ، و ما إذا كان سيتذكر أن يفعل ما طلبته منه ، و تذكرت حالتها فنظرت للساعة و ظلت تفكر في حالتها ، و أنها كلما ستأتي الحالة سيشعر بالقلق و سيرن عليها ، و سيشعر من حولها عندما لا تجيب علي هاتفها ، فظلت تفكر كيف ستتخلص من هذه الساعة ؟! فقررت أنه إذا تكررت الحالة فإنها ستضغط علي زر إغلاق الساعة ، وهكذا لن تستطيع الساعة تسجيل ضربات قلبها ، و لن تتأثر بحالة القلب ، فاستأنفت التفكير في دراستها وحلمها الذي بدأ يتحقق بعد مشوارٍ طويلٍ ، و كان رفيقها الأول في مشوارها الطويل هو إحسان الظن بالله ، والثقة في كرمه وفضله .

انتهت رحلة الطائرة لتبدأ واقع حلمها ، فوجدت زميلتها تنتظر في المطار فسلمت عليها ، و كانت رضوي تتصنع الابتسامة وبداخلها قلق ، فهي أول مرة تبعد عن أهلها ، و لكنها لتقضي علي الخوف بدأت تتحدث إلي زميلتها ، فبدأت كلامها :

-كيف حالك ؟

و توقفت رضوي عن الحديث ، فلم تستطع أن تخفي قلقها و

خصوصاً بعد أن توقفت العربة ، و إذا بصوتِ زميلتها تقول (لقد وصلنا) .. بدت علي رضوي علامات الاندهاش ، حتي أنها عجزت عن الكلام فتسمرت مكانها ، و نزلت دموعها ثم استفاقت من حالتها تلك بصوت صديقتها وهي تسألها إن كانت بخير ، فحاولت جاهدةً أن تستجمع شجاعتها ، وأن تستوعب ما تراه ، فكان المكان يعج برائحة الدخان ، ليس فقط دخان السجائر بل دخان رائحته غريبة ، و أناس مختلفي العمر ، ملامحهم تشبه ملامح البيوت ، متجعدة و متشققة ، و لكن وجوههم مخيفة ، ورغم هذا تُظهر الكثير من الأسي و الحزن ، و كانت ترمقها النظرات بشكلٍ ملفتٍ مثيرٍ للفزع ، و كما كانت النظرات ، كانت حالة البيوت ، مخيفة فهي قديمة متشققه علي شفا حفرة من الانهيار ، قد صدر حق إزالتها منذ قبل ١٠٠ عام أو أكثر ، فكأنها تنبأ بالانهيار المحتم ، إذا ما دخلها أحد يموت ، و الناس حقاً حالتهم لا تختلف كثيراً ، و في هذا المشهد المفزع إذا بسحابة من الدخان تظهر، فظلت رضوي تكح ، وسمعت صوت أحد الناس يقول - ها قد بدأنا - ، و لكن هذه بدأت بسرعة هذه المرة ، فأخذتها زميلتها إلي البيت الذي ستقيم فيه هروباً من كلام الناس الذي سيندلع كما تندلع النار التي تندلع كل مرة تأتي فيها آلاء ، وعندما دخلن البيت ، توقفت رضوي عن الكحة و تعجبت من شكل البيت و منظره ، فمظهره من الخارج لا يشبه مظهره من

الداخل ، بل لا يمت له بصلة ، فالبيت من الداخل ليس قديماً للدرجة التي يُظهرها الخارج ، فظهرت علامات التعجب عليها ، فسألتها بنبرةِ وملامحِ التعجب :

-هذا البيت ليس قديماً جدا للدرجة التي عليها من الخارج ، وما هذا المكان الذي أحضرتني فيه ؟! أنا لن أستطيع أن أبقي هنا ، حتي لو كانت حالة البيت جيدة ، فرائحة الدخان ستقتلني !

فردت عليها صديقتها آلاء :

-هذا البيت قالت لي عليه إحدى صديقاتي في بداية مجيئ لهذا البلد ، ولكني لم أقبل أن أسكن فيه و سكنت في فندق ، حتي قابلت خطيبي فساعدني أبي بعد أن علم رغبتي في البقاء في هذا البلد في شراء شقة ، ولكن هذا البيت لم يكن علي حالته تلك حينها ، وإنما تم ترميمه ليظهر بهذه الحالة القائم عليها الآن ، و لهذا البيت ميزة أنه قريب من الكلية ، كما أن نقودك لا تكفي أن أجد مكان آخر لكِ .. رضوي ! ما هذه الدموع التي تسيل ؟! وما سبب كحتك ؟! إنها مقلقةٌ جداً !

صمتت آلاء و كانت دموع رضوي تنهمر ، حتي مسحتها و قالت بنبرة حزينة تخبر عما بداخلها :

-دموعي بسبب اختناقي من رائحة الدخان ، فأنا لدي ضيق تنفس و لكن لا تقلقي أنا بخير .. أخبريني أين غرفتي ؟!

حاولت رضوي أن تغير الموضوع و لكنها صدمت حيث صعدا

معاً حتي الدور الأخير ، و لم يكن البيت شاهق البناء و لكن الدور كان يحتوي علي كثير من الغرف ، و كل غرفة يصدر منها صوت حتي أنك لتشعر أنك بجانب مكبر صوت مشغل بأعلى صوت ، كانت كل هذه الأصوات كفيلة لتفقد الشخص أعصابه وتحكمه بنفسه ، و لكنها لم تتكلم و انتظرت حتي تدخل الغرفة ، فما إن رأت الغرفة حتي قالت :

-إنها كبيرة جداً وجميلة أيضاً ، ولكن صوت الجيران لا يمكن تحمله .

كانت تحاول أن تقنع نفسها ، ففي النهاية ماذا ستفعل !! ليس معها مال سوى لهذا المكان ، و لكن آلاء حاولت أن تطمئنها قائلةً:

-ليس هناك مشكلة في الصوت و الجيران و كل ما يضايقك ، فالكلية علي بعد خمس دقائق من هنا .. يمكنك أن تذاكري هناك طيلة النهار و تأتين هنا في الليل ، و في الليل الجميع ينام ، وأنت بهذا ستتجنبين الصوت تماماً ، ولم تكد ألاء تكمل كلامها حتي رنَّ مصطفي فاستأذنتها أن تجيب ، فما إن فتحت حتي قال مصطفي:

-هل أنت بخير ؟!

بنبرة يملأها فزع شديد ، و استشعرت رضوي أنه كان يستشاط قلقاً فحاولت أن تهدئه ، فهو رن عليها عدة مرات ولكنها كانت

في دوامة مما رأته فلم تنتبه للهاتف .
-أنا بخير .. أنا بخير ، لا تقلق ، و أنا أعتذر علي اتصالاتك التي لم أرد عليها ، و لكني دخلت غرفتي تواً ، أعطني نصف ساعة و سأتكلم معك .. أنا الآن معي صديقتي ، نصف ساعة فقط يا مصطفي !
و أغلقا الخط و نظرت إلي صديقتها فقالت لها :
-إنه زوجي .
و كأن رضوي تحاول أن تقول لها أنا أود أن أتكلم في الهاتف فهلا ذهبتي الآن ، و فعلاً فهمت آلاء مرادها فقالت :
- وفقكما الله أنا سأذهب الآن ، و سأمرُّ عليك في الغد ، و إذا احتجتِ إلى أي شيء كلميني في أي وقت ، سلاماً حتي الغد .
و ذهبت صديقتها ، فرنت رضوي علي مصطفي و كانت تحاول أن تغير نبرة صوتها التي يستحوذ عليها الحزن ، فقالت بهدوء :
-مصطفي ! أنا آسفة حقاً أني لم أرد عليك ، و لكن لا تقلق أنا بخير ، كانت مجرد كحة من الدخان لا أكثر .. كيف حالك ؟!
- كيف حال القلب والشوق يلهبه لحبيبه الغائب عنه ؟!
لم يكمل مصطفي لأنه كان متأكداً أن رضوي ليست بخير ،
و لكنه لا يعرف ماذا يفعل ؟! فما عاد لديها تلك اليد التي تمسح دموعها ، ولا الحضن الذي تلجأ إليه في كل مرة فيحتفظ بها لنفسه ، و يذهب عنها الأذى و يحمي لها براءتها ، و لكن هيهات

و لكنه كان يعلم أن هذا الشخص يتألم لفراقها ، فهذا هو الأب يتألم و لكن يتحمل ، و لكنه لا يتحمل دمعة واحدة تنزل علي خد ابنته فحاول أن يشجعها قائلاً :

- رضوي !

و لكنه صمت فقلبه متألم لقلبها ، وإنه حتي كان يبكي عندما أصدرت الساعة الصوت الذي يدل علي أنها ليست بخير ولم ترد عليه ، كيف له أن يقول شيء و هو يشعر أنه مفتقد لكل شيء !! يشعر أنه ابتعدت عنه فرحته !! فظل صامتاً و كانت رضوي تشعر بأنفاسه تتسارع ، فعلمت أنه قلق و قلقه لن يُهدِّئه ، فحاولت أن تغير الموضوع ، وسألته قائلةً :

- مصطفي ! هل فعلت ما طلبته منك ؟!

- لا يا رضوي .. ليس بعد ، و لكني سأذهب اليوم .

كانت نبرة مصطفي حزينة ، و رضوي كانت قلقة على هناء ، واستطرد الأول :

- رضوي ! سأترككِ لترتاحي الآن .

لم يكن مصطفي يقوى علي كتمان شعوره بحزن رضوي ، فقرر أن يغلق الخط ، و انهار من البكاء ، فلم يلبِّ طلب زوجته ، و فوجئ باتصال من أخته فرد عليها ، و لكنه سريعاً ما أغلق و أخذ مفاتيح سيارته و خرج يجري مهرولاً و لا ينظر أمامه ، فكل همه هو الاسراع قدر الإمكان ، و كانت تلك حالة زوجته التي تسرع

لتخرج أشيائها من الشنطة في محاولة أن تقنع عقلها أن يتقبل ما آلت إليه الأمور ، و لكن كان صعباً عليها كل الأشياء التي تحدث معها .. لم تعد تستطع الكتمان ، وبما أنها أضحت وحيدة فوجدت فرصة لتعلن الحرب علي كتمانها ، و حقاً فازت بهذه الحرب ، فظلت تبكي ولكنها لم تكن تعلم أن قبولها لكتمان الأمور حتي لدموعها ستصل بها لمرحلة أنها ستبكي بدون سبب بالنسبة للناس ، لعدة أسباب بالنسبة لها .. أسباب كفيلة أن تخنق المرء و تجعله يفقد إحساس أنه يحيا ، حتي إنها قد تبعده عن كل شيء يحبه ، وهذا ما كان يحدث مع رضوي ، و لكن كانت تمارس الكتمان حتي في الابتعاد ، ولكنها ندمت بعد الأسبوع الذي ارهقت فيه مشاعرها و تفكيرها لشيء بات بالنسبة لها تحتقره و تزدريه .
كانت رضوي تعلم أن هذا الشيء يؤلمها و لم تكن تزدريه لو لم تؤنبها أمها ، فظلت تبكي حتي أفرطت .. حتي تاهت وتعجبت من كل هذا البكاء ، ومن السبب الحقيقي وراءه .. هل هو بسبب تمرسها الكتمان ؟! أم بسبب الصداقة الحالمة التي انقطعت قبل أن يبدأ مشوار حلمها ؟! و لكنها رغم تفكيرها إلا إنها لم تستطع ردع نفسها من البكاء ، ففهمت أن تلك الحرب التي شنتها علي الكتمان كانت مريحة جزئياً لها ، فهي كانت تحتاج أن تخرج ما بداخلها ، علمت أنها كانت تقسو علي نفسها كثيراً و هي متخيلة بهذا أنها صبورة لا تعترض ، اكتشفت أن أحضان أبيها

كانت مريحة و لكن لأنها كانت مقتنعة أن أباها يتحدى العالم كله أجمع من أجلها ، فكانت تفعل كل ما يخطر ببالها دون قلق وهي مع أبيها .. كانت تشعر أنه لن يستطع أحد مشاكستها حتي و إن كان مزاحًا عابراً وهي مع من وهبه الله لها ليكون تخفيفاً عنها ، فاكتشفت أنها في أيام ابتعادها كانت تبتعد كلياً بفكرها و لم تكن تعلم أن الصبر يكون معه أمل ، و هذا الأمل ينبع من داخل الإنسان .. الانسان هو من عليه أن يمد يد العون لعقله و قلبه فينهض بهما ، تاركاً وراءه كل شعور مؤلم لا يفيده إذا فكر فيه .. كانت تبكي و تتألم لما حدث مع أمها في الماضي وتخرج ما كانت تزعم أنه لا شيء و أنها نستة .. كانت تتألم لكل شيء و خصوصاً لأختها هناء التي لا تعرف شيء ، و تركتها مريضة تنازع ما تجهله .

كانت رضوي تضج لكل السنين الماضية ، تضج و تضح حتي كادت تختنق دون أن تجد أحد يهدئها ، أو يقول لها خيراً و تفاؤلاً ، فعلمت رضوي أنه قد أتي الوقت لتكون فيه هي كفاية لتساند نفسها ، و لكن لم تكن تعلم كيف !! فخرجت من غرفتها و حاولت أن تذهب إلي جامعتها ، فاتصلت بآلاء ، و لكن آلاء كانت مشغولة فلم ترد عليها ، فحاولت أن تتصل بمصطفي فلم يرد ، فهو بعد أن رد علي أخته لم يكن يعي ماذا يفعل غير أنه يجب أن يسرع ، فنسي هاتفه و بالفعل قد وصل في الوقت المناسب .

دخل بيت لم يكن يعلم فيه شيء ، فوقف مكانه حتي صرخت أخته تنادي عليه ، فهرع إليها و حمل أميمة و أسرع هو و أخته و هناء اللاتان كانتا في حالة هستيرية من العجز .
كان مصطفي متألم لأميمة ، و متألم وموجوع لرؤية أخته و هناء بهذا الشكل ، فما إن وصلوا إلي باب المشفى حتي حمل مصطفي أميمة ، و صرخ منادياً على أمن المشفى ، و كان و راءه هناء و أخته في حالة يرثى لها ، و لكن سرعان ما أحضرت ممرضة الترلَّة ، فوضعها عليها و نظر وراءه ، و لم يكن يعرف ماذا يفعل مع هاتين الطفلتين سواء أخته أو هناء !! و لكن الوضع لم يتوقف هنا بل ازداد سوءاً ،حيث وقعت هناء فجري ليسندها ، و سند أخته و أدخلهما و ذهبا ليحضرا لهما شيئاً ليشربوه ؛ علهما يهدئا و لكنه ما إن ذهب حتي سمع صراخ أخته في المشفى كله ، فهرول إليها فوجد هناء مغشي عليها ، ووجد أخته فاقدة صوابها وحولها الممرضات ، منهم من يحاول أن يري حالة هناء ، و منهم من حاول أن يهدأ أخته ، فأخذ أخته في حضنه و ظل يربت علي رأسها و لم يعِ حالة هناء حتي سمع الممرضة تهمس لزميلتها ، هنا قلق علي المغشي عليها فسأل الممرضة عن حالتها ، فأخبرته بصوتٍ منخفضٍ أنه يجب نقلها إلي غرفة ؛ لأن ضربات قلبها تتزايد بشكل عنيف و يجب أن يراها طبيب ، فذهب مصطفي محتضناً أخته مع هناء ، ودخل الطبيب فأمر بخروجه و أخته ، ولكن أماني

رفضت و ظلت تبكي منهارةً ، فأمر الطبيب إحدى الممرضات أن تأخذ أماني وتعطيها مهدأ ، ولكنها رفضت أن تخرج مع الممرضة ، فأمر مساعديه أن يخرجوهم من الغرفة ، و بدأ الطبيب يري هناء ، ففوجئ الطبيب ! و طلب من إحدى مساعديه أن يذهب لينادي الشاب الذي كان معها ، و لكن مصطفي كان مع أخته و لم يُرِدْ أن يتركها وحدها ، فأصرت الممرضة عليه و أخبرته أن الطبيب يريده لأمر مهم جداً ، فذهب إلي الطبيب و كان قلقاً .

وكذلك كانت محبوبته زوجته رضوي ، فبعد أن استيقظت من نومها الذي غلبها فوجئت بخطئها الذي اقترفته ، فظلت تبكي منهارةً متذكرةً كل ما قالته و ما فعلته ، وتمنت لو أنها نفذت ما نصحها به ، وكانت ندي هي أيضاً تبكي و خصوصاً لردة فعل رضوي ، فحاولت رضوي أن تتصل بمصطفي تخبره عما حدث ، ولكنه كان قد رجع إلي البيت بعد يوم طويل متعب ، و خاصةً بعد أن قابل نور الهدى ، كان أول مرة يفعل ما فعله فظل يسأل نفسه محتقرا كيف فعل هذا ؟! و لكنه لم يجد الإجابة ، و ما زاد تعبه أكثر هو كذبه علي أمه عندما سألته علي أخته ، فأجابها أنها ستتأخر في فرح صديقتها ، وفي الحقيقة ابنتها طريحة الفراش في المشفى مع دكتور نفسي ، متوجعة من الكتمان ، و بجانبها هناء ، و بجانبهما أميمة تلك الفتاة الصغيرة التي أضحت مشوهة جسدياً و معنوياً و ذهنياً حاقدةً علي أختها بكل ما تعنيه الكلمة

، فذهب إلي المشفى بعد اتصل بأحد أصدقائه فهو مالك المشفى؛ لكي يوصيه علي ثلاثتهن ، و لكنه لم يجد أخته في غرفتها ، ففكر أنها ربما ذهبت إلي هناء .. و بالفعل سمع صوتها قبل أن يدخل ، سمعها تبكي قائلةً - هل جنت أميمة ؟! وأنتِ يا صديقتي بماذا تفكرين الآن ؟! - ، و لكن هناء لم ترد ، فدخل مصطفي و أمسك بيد أخته ، و لكنها قالت له :

- ماذا بها ؟!

و كانت تشير إلي هناء و تسيل دموعها في صمت الضوضاء التي بداخلها ، و لم يعرف ماذا يقول لأخته !! و هو حزين عليها أكثر مما تحزن هي عليها .. كان يدرك أنه لا يجب أن يخبر أخته شيئاً مما أخبره الطبيب ، فأخبر أخته أنها ستكون بخير و أخذها ليخرج ، و لكنها رفضت ، وعندما سمعت صوت أبي هناء و أمها خرجت من نفسها ؛ لأنها لم تحتمل رؤية أم هناء و أبيها يبكيان بهذا الشكل .. خرجت و كانت تفكر في أميمة و نور الهدى ، ثم قالت لأخيها بلهجةٍ يملأها اختناق :

- أخرجني من هنا !! أستحلفك بالذي خلقك أن تخرجني من هنا !

لم يعرف ماذا حل بأخته وهو في البيت حتي تصل لهذه الدرجة ، فتعجب و لكنه أخذها و خرج إلي مكان أبيه المفضل ، مكان حيث يكون هناك مقعد كبير تتراص عليه الناس في الليل و في

الصباح ، فيلقون أحزانهم أمام جمال ما خلقه الله ، أمام صورة انعكاسهم في الماء الصافي الذي أمامهم ، فيسأل الانعكاسُ الأصلَ .. لماذا أنت حزين هكذا يا أنا ؟! ألم أربت علي كتفك كفاية قبل أن تخرج للعالم هذا الصباح ؟! ألم أمهد لك ما سوف تقابله وأنا أملس علي رأسك و احتضنك فأجعلك تتلقي كل لكمة و أنت صامت دون أن تبوح بشيء ؟! ألم تقرأ الفاتحة لأبيك الذي توفي فتخرج ، فتسمع الجميع يتكلم عن أبيه و كأنهم في صراع أب مَنْ أفضل مِنْ مَنْ ، فتجاهد ما بداخلك لتبتسم لهم ، ولكنك تبقي عاجز فتستسلم لنظرة من عينك اللامعة تمر فيها كل ذكرياتك مع أبيك الذي سيفوز بالمركز الأول في هذه المسابقة ، حتي وهو تحت التراب ؟! فيحترق شيئا ما بداخلك حتي كاد داخلك أن يخرج منك ، و لكن حتي خارجك يلتهب ، يكافح البكاء ، فلم يعد فيك قوة لتناهد نفسك ، و ترغمها علي الكتمان .. هل أضحيت أتعوبة هذا الزمان ؟! أم أنك أضحيت أضحية لكلام الآخرين الجارح دون مراعاة مشاعرك ؟! صدقني يا أنا هناك أنواع من الألم لن أقل لك لن تتمني أن تتعرف عليها ، بل أنك لن تتخيل أن هذا الألم موجود .. هل جربت شعور الصراخ من ظلم؟! جربت الاستعمار يوماً ، سواء استعمار عقل أو استعمار جسد أو استعمار بلد ؟! وهنا تتخلى أنا عن صمتها المجروحة أنَّاته ، المضطهد أنينه ، و تترك إحساسها بالعجز ، و تأتي محاولةً أن

تصفع انعكاسها ، و تخبره أنه كفى أن نسير في طريقين متوازيين لا يتقابلان أبداً إلا في ذلك التمهيد كل صباح أمام انعكاسها ، فترد : - ربما مررت بكثير من الألم ، ولكن ماذا تعرف أنت عن أنا ؟! .. أنا التي تراك دائماً معترضاً عليها ، غير قابل لتصرفاتها ، بل إنك تبغضها ، تمقتها عندما توافق ، و تمقتها عندما تعترض ، و تخبرها أنك لا تقبل بالحلول الوسط ، فماذا أفعل لك !! أنا أحاول أن أصمت في كل مرة فتخرج من سكونك هذا لتعترض علي صمتي عليك ، أستحلفك بالله ماذا تفعل إذا تحدثت معك بهدوء .. بصدر منهك عجز العالم أن يتسع له فيأتي إليك ليس محاولاً أن تستقبله بل محاولاً أن يستعطفك لتمل في كفته ؟! و لكن ألست من يثور عليَّ ؟! أنا أجهلك ، رغم كونك انعكاسي إلَّا أني أجهلك - .

لم تصمت أنا عند هذا الحد ، بل استأنفت كلامها قائلةً :

- ثم عن أي استعمار تتكلم ؟! ألست تدري بنوع من الاستعمار يسمي استعمار الألم ؟! و لكن من أين لك أن تعرف به ، بل من أين لك أن تعرف بكم الوجع الداخلي الذي يعانقني الآن !! من أين لك أن تسمع دقات قلبي و هي تتباطأ !! أنا أسمع كل دقة تقول : - ليتني الأخيرة ، ليتني أريح باقي الدقات فأكون في أعينهم المنقذة ، وأرحم صاحبي ؛ عله يستريح -

و لكن الانعكاس لا يتخذ دور الصمت أبداً ، بل لا يحبذه ،

فيصرخ عليها قائلاً :
-ماذا تعرف عن الاستعمار ؟! هناك استعمار أرض حيث الجميع لا يملك حق السلام ، بل الجميع لا يغفل ، ينتظر موته إما برصاصة ، أو تحت الحطام .
فترى أنا نظرات تنم عن الحقد والغضب من الانعكاس قائلاً :
-أنت تقول أن كل دقة تتمني أن تكون هي الأخيرة ، ولكن في الحقيقة أنت لن تحتمل فكرة الموت إذا اتخذتها علي مَحْمِل الجد .. أنت مثل البقية ، فعندما تتوجع ومهما يكون مقدار التوجع تتمني أن تموت .
تسمع ال - أنا - هذا الكلام و تود لو تصرخ عليه ، فهو يبدو أنه رافض أن يشعر بها ، أن يستمع لحديثها ، أن يلين عليها في حواره فيرفق بها ، ولكن ما يكاد الانعكاس يكمل كلامه ، ولا تكمل الأنا القتال التي تشنه علي خيالها عندما تهيء له أن هذا الانعكاس سيتقبله ، حتي تأتي بعض البطات ذات الريش المزخرف ؛ لتجعل المرء يرجع للواقع بعد مناقشة عنيفة مع نفسه التي كان يسألها فيها إن كانت تعرف مدى ألمه واحتضان جوارحه ، والتصاقها بكل بقعة في جسده حتي انطفأت ملامحه ، و كأنها غريبة عنها لا تعرف ما بها ، فيبتسم و يهدأ و يطَّلع علي النجوم ، ويكوِّن منها بخياله الذي لم يتداركه شيء مما بداخله ، شكل يبتسم له فيبدأ الجمال يكتمل ، ويشتد أوج جماله في روحه فينتبه لصوت

العصافير وجمال ألوانها الربانية ؛ فيستريح و تطيب نفسه للدنيا ، ويدرك أنه وجب عليه الرحيل فيرحل . كان يتذكر هذا الكلام الذي كان يحدث معه بعد موت أبيه ، فأخذ أخته إلي حيث يتمنى أن يذهب هو ليستريح و تهدأ نفسه ، إلي حيث ينتمي ، و كان واثق أن المكان سيبهر أخته ، وبالفعل ظلت أماني صامتة لا تتحدث ، ولكن كان باله مشغول بما قاله الطبيب عن هناء ، وقول أخته لهناء هل جنت أميمة .. لم يكن في موسعه أن يتركها لصمتها ، فسألها لماذا قلتي لهناء أن أميمة جنت ، فنظرت أماني إلي أخيها بعين يملأها حنين قائلةً :

- أتعلم يا ابن أبي ؟! أنا أناديك هكذا دائماً في سري لأنني هكذا أستطيع أن أقول كلمة أبي التي لن أقول أنني حرمت منها أو سُلبت مني ، و لكن لنقل أنني أفتقدها ، أميل إليها ، أحاول أن أتحسس كمية الحب والأمان التي تملأها ، تخيل ... .

صمتت أماني برهةً ، وكأنها كانت تفكر ثم عاودت حديثها باندفاع وهي تشاور لأخيها ، و تقول و علي وجهها ابتسامة وصوتها يملأه الحزن الذي تحاول أن تخبأه بتخيلها :

- تخيل إذا كنت أفتقد للكلمة .. فماذا عن الشخص ؟! ماذا عن اشتياقي لمن أقول له أبي ؟!

انظر ! انظر إليَّ يا أخي ! سأقول لك سراً آخر .. أنا كنت أستيقظ كل يوم و أسأل نفسي .. هل مهدتي الطريق لنظرات البارحة ،

و أمان البارحة الذي رأيته يتمدد حولك و يتسع ليكون سحابة تظل الجميع إلاكِ ، فيمطر علي الجميع رطباً مهوناً عنهم ، و أنت أرضك ما زالت تتوالي عليها التراكمات قاحلةً من أي نوع من أنواع هذا التهوين ، هذا النوع الوحيد الذي أنت في حاجة إليه ؟!

هل شُفيتِ من حنينك لأبيك الذي تتمادين فيه ، أم أن مازال هناك الكثير لترينه و تعيشينه ؟! هناك مزيدٌ من الاشتياق لأبيك و لحنانه ، ذاك الحنان الذي لم تجربيه من قبل و كُتب عنه ملايين الكتب ، و سُطرت له الصحف ، و لكن أنا لم ولن أعيشه أو أعايشه .. كيف أعايشه يا أخي ؟! فلو ان عندي ذكريات كنت عشت فيها ، و تعايشت بها مع ما يحدث وما سيحدث .

أنا رأيت ابنة كان أبيها ميت ، كانت تنبش التراب من علي قبر أبيها ، فظلت صرخات تخرج من بين ضلوعي منصهرة متوجِّعة ، تلك صراخات الترسبات التي في حياتي ، رغم إنها كانت تمثل في مسلسل ، و لكن أتعلم ؟! نحن نمتص خيالنا من واقعنا عندما نهرب من واقعنا لنبني خيالاً ليس له شبيه سوى أننا جعلنا بنيته التحتية هي واقعنا ، وعلي الرغم من هذا يا أخي بمرور الوقت اكتشفت أني أجيد و بإتقان فن ممارسة البكاء الداخلي .. أجيد رؤية نفسي تُطعن شوقاً واحتياجاً لوالدها دون أن تفتح فمها ، أو تحرك دمعة سجينة بين جفنيها .. أنت لا تعرف يا أخي كيفية

حال من مات أبوه قبل أن يراه ، لا تتخيل أن أعيش علي خيالات اتخيلها ومدي تكرار كلمة لو كان أبي حيّ معي لما كان هذا سيحدث لي .. أنا في بعض الأحيان أتمني رؤية أبي و لو مرة واحدة في المنام !! أنا أشعر أني وحيدة مغتربة لست موجودة هنا بل تائهة بين عالمين ، أحدهما أبحث فيه عن أبي الذي يعيش في كل جزء لا يتجزأ مني ، والآخر أتيقن فيه أنني لن أري أبي ما دمت حية فأكون شاردة تشرُّد المغترب الفاقد لبيته ولنفسه ، البعيد عن أسرته ، فلا مأوي له من تلك الطعنات التي تتساقط عليه .

و هنا تذكر مصطفي رضوي حبيبته المغتربة ، والأرجح أنه لم يتذكرها لحبه لها بل لهروبه من كلام أخته الصغيرة التي كبرت رغماً عنها بموت أبيها ، و كانت حال رضوي حقاً لا تسرُّ كثيراً ، كانت ما بين البكاء و الابتسام ، و لكن كانت حال ندي ما زالت ثابتة علي حالها ، لا تتخلي عن بكائها و لا عن أنينها و حزنها علي نفسها وأهلها ، و خصوصاً كلام أهلها لها حينما قالوا لها حرفياً بعد أن عجزوا أن يعرفوا ماذا ألمَّ بابنتهم و سبب عزلتها :

- ندي نحن لا نعرف ماذا بكي ! و لا حتي سبب بكائك ، فحديثنا بصدق .. لما عزلتك هذه و صمتك ؟! و نحن لم نعهدك صامتة يوماً .. فماذا حدث ؟! لابد أن هناك شيء ، و لو كنتي تعتقدين أن إخفائه أفضل .. فنحن نخبرك أننا جميعاً تحترق قلوبنا لصوت قلبك المسكين وأنينك في الليل ، فحدثينا ماذا بكِ وما السبب ؟!

كان كلامهم يملأه حرقة قلوبهم ، و لكنها كانت متيقنة أن هذا أرحم من أن تخبرهم و تحدثهم عما بها ، فتظل صامتة دون أن تتفوه بكلمة ، تحاول أن تعطيهم بعض أيام أخرى من النوم ، حتي و لو لم يكن هادئاً ، فكافياً بالنسبة لها أنهم ينامون ، فعندما تحاول عينها أن تخبرهم تملُّصاً من نظرات أهلها ، تذهب إلي غرفتها في هدوء لتنفجر بداخلها القنبلة الموقوتة ولكن دون فائدة ، فهذه الحالة سيعرف بها الجميع بعد أشهر معدودة ، وتعلم أنه حينها ستفوح من البيت رائحة القهر .. هذه الرائحة التي عمَّت قلبها عدة أيام ، حتي باتت تمقتها .. ظلت تفكر في كلام أمها عندما قالت لها :

- إياكِ يا ابنتي ثم إياكِ أن تتركي نفسك تتوه منك ، بأن توهميها أنك تمتلكي زمام أمور كل شيء ، أو أنك لا تمتلكين شيء فستتراوح عليكِ فترات قد تهلكك من التفكير ، فتكونين بين شعرتين ، إحداهما لماذا أنا ؟! والأخرى تشريدك ، تخيلك في أن ما حدث ماذا لو لم يحدث فتهلكين بالأولي ، ولا تعرفين أن تتعايشي ، والثانية ستفقدين صوابك فتفقدين روحك في النهاية .

و لكن ندي كانت تائهة في أكثر من لماذا ، أو لو لم يحدث ، بل كانت شاردة في ماذا سيحدث ، بل كانت تعيش فيها بين حروفها.

تنشأ مواقف من خيالها موطَّدة بواقعها الذي تخفيه بداخلها ؛ ليفقدها روحها تدريجياً .. كانت تعاصر تلك السين المستقبلية

التي تسبق كل حدث قد يكون مخوَّل للحدوث في المستقبل ، و ما كان يحزنها أكثر أنها كانت مدركة لكل هذا وليست بتائهة .. فقررت أن ترسل لرضوي صديقتها و هي لا تعلم أنها قد سافرت . صديقتها تلك التي هرب زوجها من كلمات أخته الصغيرة في التفكير فيها ، أم أنه يهرب من عجزه أن يخفي اشتياقه لأبيه ، حتي قالت أماني له :

- حدثني يا أخي .. كيف كان يعاملك أبي ؟!

أنا كنت أتخيل أني متألمة لدرجة تقهرني حد البكاء ، و لكن بعد موت والد أميمة أدركت مدي صعوبة الأمر ، و أن لكل وجع خصائصه الذي توجع المرء .. كنت أري والدها يأتي إليها بعد المدرسة كل يوم فتسرع و تحتضنه .. كنت أشعر ببسمتها بعد جرس انتهاء المدرسة ، وتسبقنا إلي الباب لتجد أبيها ، ولكنها كانت تنتظرنا ، فأخرُج وأراها تحت ذراع والدها ، فأبتسم لها وأدعو أن يحفظه الله لها ، و كنت أرجع أمسك صورة أبي أحتضنها و أقبله .. كنت أحب فكرة ابن أبي ، و لكن بعد موت والد أميمة شعرت بالموت ، لمسته بأم عيني ، عاصرته رغماً عني !

عندما كنت أري أميمة و هي تفتر و تذبل أمام عيني شعرت بالعجز ، وبكيت علي حالتها حتي أدركت أن حالتي أرحم بكثير ، ولكني كنت أجهل أني سأري جنونها بأم عيني .. لم أتخيل أن الموت يجني الأحبة حتي بتُّ عاجزةً .. أنا كنت كل يوم أقول

لنفسي كيف حالك اليوم ؟! فتجيبني بسخرية .. وهل اختلف اليوم عن البارحة في شيء ؟! جميعهم متشابهين ولكن كان هناك فيْصل في كل هذا ، وهو صوت قلبي وهو يحدثني ، يقول لي : - ألم يعوضك الله بأخ و أم وصديقتين ، بل أختين ، و نقود ؟! ألم يعوضك الله برحمة في قلبك ، وهدوء علي وجهك ؟! - .. كان لا يريد أن يقسو علي فكان يقول لي : - أعلم أن الحياة ستستمر بالنسبة لكِ - ، ولكني أيضاً أعلم أنها ستظل ناقصة ، تتنازع صمت اشتياقها و حنانها في صمت إلي الأبدية ، فكنت أحمد الله ، و لكن الآن عندما أسأل نفسي غدًا .. كيف حالك اليوم ؟! ستقول لي : أتمني لو أني ما زلت في البارحة !

تذكرت ما سأفقده الآن يا أخي !! ما أقسي هذا الشعور الذي أنا فيه !!

توقفت أماني ، وظلت تبكي حتي أنها لم تستطع أن تأخذ نفسها ، و أصبحت تتلوي ، وكان مصطفي معتاداً من هذا من رضوي ، و لكنه لا يعرف ماذا يفعل ليهدأ أخته ، وهو يعلم أنها تنازع مشاعر كبتتها ، فحاول أن يهدئها و هو لم يكن يفهم ماذا تعنيه بكلمة (سأفقده) ، و لكنها قالت وهي تبكي :

- لقد خسرت اليوم .. خسرت ما كنت أفخر به .. خسرت أميمة وهناء .. أنا كنت أجلس معهما ، كنت أتحسس الحب ، كان هناك أمان ، و لكن تحول كله إلي فزع وخوف ، ليتني لم أذهب

إلي أميمة ! ما كان كل هذا ليحدث ! مصطفي هيا بنا لنذهب ! كانت نبرة أماني تثبت إنهاكها وعدم قدرتها علي البقاء أكثر ، فطلب منها مصطفي أن تهدأ و تمسح دموعها قبل رحيلهما ، ولم يسألها كيف تكون السبب حتي لا يرهقها ، و لكنها انفجرت قائلةً :

- أمسح دموعي ! لماذا أمسحها ؟! فلنتركها تنزل !

أأقول لكَ فلنتركها هنا ولنمشي واتركني أيضاً .. اتركني لبكائي ، لفقداني .. اتركْ كتلة الوحشة المنعزلة التي أضحت تعيش معكم في البيت ! هكذا سيكون أفضل ، أنا تركت أصدقائي .. فلماذا لا أترك دموعي تنزل من آهات صمودي كل هذه المدة الماضية من صوت صراخ تأوهي؟! هل تسمعه ؟! إنه منتشر في الهواء الآن ، أنصت ! ستسمعه يضاربه أنات قلبي الموجوع .. أسمعت أم ليس بعد ؟! أأصرخ لكي تسمع ؟! أأعلو بصوتي ؟! ألم تتحسس الحزن من غرفتي و من كل ركن فيها ؟!

كانت أماني منهارة ، و تصرخ بصوت عال قائلةً :

- لن أمسح دموعي وسأتركها تسيل كما تشاء ، لن أكبتها اليوم .. كفاني سجناً لها !! فأفعل ما ترى ! إذا أردت اذهب وحدك ، ولكني لن أُخرِس روحي اليوم ، سأترك تلك الأنَّات تزاحم الرياح ، وستعنفه قدر ما تشاء إذا أتي عكس اتجاهها فيشاغلها ، لن أكبحها اليوم ، و لن أذهب اليوم إلي البيت ، سأذهب إلي أصدقائي

، سأذهب إلي تلك التي قالت أمها لأبيها و كانت تصرخ :
(ألن يتركنا الماضي إلا بعد أن يسحقنا ، ألن يكتفي) سأذهب لأعرف ما هو الماضي ، و سأذهب إلي أميمة لأعرف ما سبب انهيارها ، و سأسأل أختها التي تبكي علي كتف أحد أقربائها .. اليوم سأفهم كل شيء فاتركني وحدي ، هل فهمت ؟!
مصطفي كان متعجباً من طريقة كلام أخته ، ولكنه أيضاً رأي أمامه واحدة علي شفا أن تخسر أختيها الوحيدتين .. كان متيقن أن أخته ليست مستعدة أن تخسر ، وإذا حدث فهي تريد أن تكون مدركة لكل شيء ، فحاول أن يفهم قائلاً بنبرةٍ خافتةٍ : ماذا فعلت أميمة ؟!
- فعلت ما لا يمكنني أن أحكيه لك .. أأفضح صديقتي ؟!
هيا بنا ! أنا أترجاك ، لم يعد لدي ما يُمكنني من الهدوء ، ولكن أتعرف ؟! سأقول لك شيئاً .
توقفت أماني و بدأت دموعها تسيل بغرازة في صمت وكأنها تتذكر شيء لم تنساه ، بل كانت تخبئه في جعبة الكتمان خاصتها التي قررت أن تفصح عن كل ما فيها في هذا المكان ، ثم قالت :
- أتعلم ما هو أسوء شعور ؟! الحاجة .. تحت شعار الحاجة يتلخص كل شيء في هذه الدنيا .. الحاجة إلى ... أتعلم ؟! سأقول لك موقفاً يلخص معنى حاجتي لأناس في حياتي .. عندما تعبت أمي ، كنت وحيدة ، واقفة وحدي أختنق ، أكتم بكائي اللامتناهي

بداخلي ، لم تكن تنزل منه قطرة واحدة فتخفف من لهيب باقي القطرات وتريح نفسي ، كنت لا أعرف ماذا أفعل سوى أن أكتم شعوري .. كنت أخاف في الليل و كأنني في غابة مكتوب علي أولها لوحة عرضها يكاد يكون طولي - ممنوع الدخول - ، فهل يوجد تحذير أكثر من هذا ، و لكن بلى ، فقد كتب علي آخرها - لم يخرج أحدٌ منها ، لا حيٌ و لا ميتٌ - .. كنت أنا هكذا ، بل يزداد خوفي حينما أسمع صوت الممرضات يصرخن طيلة الليل وأنا أحاول أن أسد أذني قدر استطاعتي ، و لكن هل كان يمكنني أن أكبح مشاعري عمن أمامي ؟! كلا .. فلا تسألني عن أي شيء سوى شيء واحد ، وهو أن تقول لي : هل تريدين أن نرحل ؟! .. لأني أريد أن أرتمي في حضن أمي !

صمتت أماني برهة ، ثم نظرت لأخيها باكية قائلة بنبرة حزن تسأله :

- هل خرجت أنا من تلك الغابة يا أخي حية أم ما زلت عالقة بداخلها دون أن يدري خارجي بتوهمه أنني قد نجوت فأكون أول الناجين منها ؟! و لكني أقسم لك أني لم أمرُّ بنهايتها بعد .

كان مصطفي يقف أمام أخته صامتاً .. فماذا يقول ؟! بل كيف سيعقب علي ما لم يفهمه ؟! فهو لم يكن يعرف بماذا تقصد أخته بالغابة ؟! فظل صامتاً واقفاً أمامها ، حتي قالت له أخته :

- خذني إلي أمي ! أرجعني إليها !

نست أماني الفتاة الصغيرة أصدقائها و تساؤلها و كل شيء إلا أمها ، التي بكلامها تذكرت أنها كادت أن تفقدها ، فحاولت أماني النهوض ولكنها وقعت ولم تستطع أن تقاوم فسندها أخوها ، و ذهب بها إلي أمها بعد أن أخبرها بما حدث لأميمة ، ثم ذهب إلي حماه في المشفى فلم يجده ، فهرول إلي الطبيب ، فأخبره أن والديها أصرا أن يأخذاها ، وأن حالتها تحسنت بعض الشيء ، فسمح لها بالخروج ، و تذكر رضوي و لكنه لم يكن يعلم أنها رنت عليه عدة مرات ، فأراد أن يطمأن علي أميمة ثم يتصل ليطمئن عليها ، و لكنه وجد نور الهدى في الخارج تبكي بشكل هستيري ، فنظر لها فخبأت نفسها في حضن خالها .. أراد أن يدخل إلى أميمة ، فوقف خالها رافضاً دخوله ، فسأله عن السبب ، فقال له :

- من أعطاك الحق في أن تكلم ابنة أختي بهذا الشكل ؟!

و كان يشير إلي نور الهدي ، فحاول مصطفي أن يتكلم و لكنه هرول هارباً ، فما مر به اليوم كان كافياً ، بل يعطيه الحق لعدم التبرير ، فذهب إلي البيت و تذكر هناء ، تلك الفتاة الصغيرة التي لا تعرف عن نفسها سوى القليل ، التي ستستيقظ صباحاً دون أن تعلم ماذا حصل البارحة .. كل ما ستجده أباها جالساً علي كرسي بجانبها ، و أمها علي السرير بجانبها ، وكأن البارحة لم يمر عليها و لم يعبر إلي مخها فيخزن في ذكرياتها ، فتذكر مصطفي ما طلبته

منه رضوي ، علي عكس رضوي التي لم تتذكر سوى صديقتها ندي المجهِدة التي أجهدت حواسها ، و لم تعد تعي ما سيحدث ، التي بمجرد أن تعبت ولم تعد تتحمل المزيد كلمت صديقتها ، و دون أن تذكر لها أي شيء مما هي فيه وأنها لم تعد تتمكن من النوم بعد أن كان النوم يسكنها وكأنه غضب منها ، ففارقها دون أن يعلمها ؛ ليتركها للّيلِ وحيدةً شريدةً ، دونَ مؤنسٍ سوى فكرها الذي كله يدور حول ماذا سيحدث ؟! كيف سيتصرف أهلها ؟! و كل هذه الأسئلة التي لديها و لا تملك لها إجابة سوى تخيلات ، وكيف تملك أجوبة للمستقبل سوى تخيلات واهمة ، التي قد تصْدُق و قد تخيب ، و لكن الحقيقة هي ان ندي واثقة أنها لا تعرف كيف تقول لأهلها ؟! و هي تعلم أن حال الأهل التألم في صمت ، و هي لم تكن تريد أن ترى أهلها يتألمون لألمها ، و لا تريدهم أن يصدموا بالخبر ، فقررت أن تخفي مثل صديقتها التي أشغلت فكرها برسالة لا تزيد عن كونها رسالة عزيزة ، و لكنها ليست كفيلة لتمحو خوف الغربة و البعد عن الأحبة ، و لكن هذا كان كل ما تمتلكه رضوي لتخفف عن نفسها ، و خصوصاً أن مصطفي لم يرد علي اتصالاتها اليوم ، فكانت تخفي القلق الذي تشعر به بفرحها برسالة صديقتها ، و لكن هذا الفرح الواهم حتي لم تهنأ به حين تذكرت كيف تحدثت على صديقتها ، و أنها سافرت دون أن تعلمها .

و مع كل المشاعر التي بداخلها لم تستطع رضوي الوقوف في وجه نفسها ، فحزنت و ظلت تبكي حتي غلبها النوم .. وفي الصباح رنت علي مصطفي و لكنه لم يرد عليها فقد كان جالسا مع بعض الألم الذي شعر به من كلام أخته ، الذي كان في صيغة فضفضة علي هيئة عتاب ، و كأنها كانت تقول له : أين كنت ؟! أنا تُركت لأتحمل ألم ما كان يجب عليّ أن أتحمله وحدي ، بل كان يتوجب علي أن أكبح نفسي بمشاعرها ، حتي إني كنت أنهار ليلاً من البكاء وحدي ، ولكن هذا لم يكن كافياً ليبث الحزن ، بل جاء الخوف ليتخذ مكانه في تلك الغابة ، فكنت أخاف أن أنام ليلاً بكل هذه الأصوات والصراخ ، حتي أني بتُّ لا أعلم أكنت أتخيل هذه الأصوات ؟! أم أنها أصوات عقلي الذي يصرخ منادياً عليك يا أخي في صمت ؟!

كان يردد كلمات أخته تلك في عقله ، فذهب ليطمئن عليها و يعرف ماذا كانت تقصد بالغابة ! هل كما فهمها هو أم كان لها مغزي آخر ؟! فجلس معها فوجدها تضحك ، فلم يسألها بل ينظر لها يداعبها حتي ذهبت إلي أميمة في المشفى ، فدخل هو إلى غرفته ووجد أن رضوي رنت عليه عدة مرات ، فرنَّ عليها ، وقال :

- السلام عليكم ، طمئنيني .. كيف حالك ؟!

كان يتصارع مع مشاعره حتي لا يُشْعرها بأي شيء .

-أنا بخير .. كيف حالك أنتَ ؟! و أخبرني كيف كان شعور هناء

عندما أعطيتها الهدية ؟!
لم يرد سوى بالصمت ، الذي لا يصلح أن يكون رداً لأي شيء في حالة هناء لتساؤلاته التي يملكها عما حدث لها وهي صغيرة ، و لكن لم يكن ليخبرها ، فكان الصمت كافياً ، بل تعبيراً في قرارة نفسه عن مراعاة مشاعرها ، و احتواء عقلها وعيونها من بكاء أمس ، و هي وحيدة في الغربة .. فقالت له :
- لم تعطها لها .. أليس كذلك ؟! حسناً يمكنك أن تعطيها لأماني .. أتعرف ؟! أريد أن أعترف لك أني كنت مخطئة ، وأنك كنت علي حق !!
لم يكن يفهم أي شيء ، و لم يكن يريد أن يفهم و لكنه استمر في الضغط علي نفسه ، فسألها :
- كيف كنت علي صواب ؟!
و كان في نفسه يقول إذا كانت أختي الصغيرة نفسها تراني مخطأ!!
فردت عليه رضوى :
- أتتذكر الأسبوع الذي لم أكلمك فيه و كان هذا بسبب ندي ؟! لا أعرف ماذا أقول لك حقاً فدموعي التي لا أراها تغادر عيناي إلا نادراً قد سالت طيلة البارحة ، حتي تشقق خدي من لهيبها ، حتي أرغمت نفسي علي الصمت ، و لكن قلبي موجوع .. أنت تعلم صديقتي ندي جيداً فقد حدثتك عنها كثيراً فهي أعز أصدقائي .. في آخر مرة لي معها كلمتني بطريقة ليست جيدة

، أوَتعلم ؟! بتُّ لا أفهم هل كانت طريقتها ليست لائقة ؟! أم كنت أنا موجوعة حينها ؟! و في آخر الكلام قالت : قد أخفي ما أخفيه ، و إن كنت تعلميه فرفقاً بهذا القلب فهناك ما أظهره و أنتِ تجهليه .
كانت هذه الجملة التي قالتها صديقتي لي ، و التي بدورها كان يجب أن أفهم منها أنها بداخلها الكثير ، و لكني كنت محمَّلة أنا أيضاً بظروفي الخاصة ، فلم أكن أعرف أنه قد حان دوري في نفس الوقت الذي حان فيه دور صديقتي في دائرة الحزن المقيت ، لربما لم ألاحظ أنها التالية ، لم أكن أنظر سوى لي ، بل كنت أنتظر بقايا حزني في صمت فلم أعرف أنها ستكون بقاياه ، لم أعرف أنها تحن لي ، تحن للقائي ، للحديث معي حتي و إن كنا لا نتكلم لوجود مشاكل بيننا و خصام من قبل هذا اللقاء بفترة ، و هذه المشاكل محورها أنها لا تسأل عليَّ ، و لكني أنا أشهد الله يا مصطفي أنها لم تحزنني قط ، ولم تقل لي شيئاً قبيحاً ، هي كانت المقصرة ، و لكن كنت أنا حقاً المخطئة .. كيف لي ألَّا أسأل عليها كل هذه الفترة ؟! كيف لي ألَّا أتكلم معها ، حتي و إن كانت هي لا تسأل ؟! و لكني أيضاً لم أعد أسأل عليها ، فلم أعد أعرف أخبارها ، ولم أعد أشعر بالحب في الكلام ، والارتياح ، لم اكن أبعد عنها بل كنت أبعد عن نفسي ، و لم أكن أغضب منها لعدم سؤالها بل أغضب من نفسي ، من تفكيري فيها هكذا .. فكيف لي أن أفكر فيها بأنها

لا تسأل ؟! فأنا أعلم ما أنا عندها حتي كَبُر شعور أنها مقصرة دائماً الذي لم أوقفه ، فحينما ذهبت للقائها كنت محمَّلة لأتركها لجملة هي قالتها .. فترسل لي الآن رسالة علي استحياء منها تقول لي فيها : (أما آن الأوان لتغفري لي خطأي ، وتطئين بقدمك أرضي ، و تزينين لي عرشي بجلوسك جانبي و نحوي ، و تلينين قلبي علي نفسي ، فقد تعب من معاتبتي علي غيابك و عدم سؤالي عليكِ .. فإني و رب من خلق السماء أعتذر لك علي تقصيري الدائم ، و علي كلامي آخر مرة معكِ) كتبت لي رفيقتي هذا الكلام فبدأ قلبي ينزف حقاً ، فأنا في آخر لقاء بيني و بينها لم أقدِّر غضبها ، و لا ملامح القهر تلك التي تفوح من كلامها ، التي تجعلك تبكي ، و لكني فضلت أن أبكي علي نفسي و لم أفكر فيها حينها ، بل ظللت أفكر في كل تلك الأسئلة التي تدور حول تقصيرها لي ، لماذا لم أخبرها أني أريدها أن تسأل عليّ دوماً ؟! لا أعرف ماذا أفعل ؟! أرسلت إليَّ رسالتها في الوقت الذي أطأ فيه مكان لا أعرفه ، بل أجهله و أمقته ، فأنا أجهل هذا المكان المثير للخوف و الفزع ، الذي ينم عن كراهية عتيقة ، وهي تجهل أني سافرت .. فبماذا أرد علي رسالتها تلك ؟! أأقول لها عذراً صديقتي إذا كنت عصفت بكِ في وقت كنتي في أمس الحاجة إليَّ ؟! عذراً حقاً أني لم أقدِّر كل تلك اللحظات التي أتيتك فيها و أنا علي كاهلي ما يكفي لشيبي ، فأخرج من عندك عروس شابة .. عذراً أني أدرت ظهري

لك عندما كنتي في حاجة إلي يدي لتملِّس علي شعرك في هدوء تام فتزيح كل نبرات الهموم المكتومة بداخلك .. عذراً إذا كنت قد استهلكت ما بك من حب و تحمل في مشاكلي و حياتي أنا ، و عندما أتت المشاكل لتدق علي بابك بكل عظمة لم تجديني بجانبك .. أم أخبرها بكل هدوء أني سافرت و لم أستطع مقابلتها ، و لا حتي إخبارها لأني كنت حزينة ؛ لأنها قالت لي أخفي ما أخفيه و إن كنت تعلمه و هناك ما أظهره و أنت تجهله .

ماذا أقول !! حزنت لأنها تخبرني أني بت جاهلة بحالتها كأني أنا التي لا تسأل و لا تطمئن و الله يعلم ما حالتها في هذا الوقت !!

أنا لا أعرف كيف كنت هكذا .. لا أعرف !

و صمتت رضوي ولكنها أجهشت بالبكاء ، و ظلت تبكي ، و لم يكن مصطفي يعرف ما حالة البكاء المنتشرة فيها بهذا الشكل ، لم يكن يعلم سبب بكائها حقاً .. هل هو الغربة هي السبب الفعلي؟! أم صديقتها والغربة زادت الألم ؟! فحاول أن يهدئها قدر ما يستطيع قائلاً :

-رضوي ! اهدأي و حاولي أن تكلمي صديقتك ، و اشرحي لها الموقف ، وهي ستتقبل بالتأكيد .. أنا أعلم أنك تفكرين في مشاعرها ، ولكن عليك أن تردي عليها ، وتعتذري منها !

-أعتذر !! أأعتذر علي خطأي ، أم معاتبتها لنفسها ، أم مشاعرها التي كانت متألمة فأتيت أنا لأكمل عليها ؟! أعتذر علي ماذا وأنا

أقول لك أني كنت كالعاصفة في وجهها ، أنا آذيتها و أقول عليها صديقتي ! هي لو كانت غريبة عني حقاً ما كنت لأفعل فيها هذا ، فعن أي صداقة تلك تتحدث !! أنا موجوعة عليها قبل نفسي .. ماذا أفعل ؟! فأنا ما استطعت أن أكون صديقة جيدة .. أنا تركتها وحيدة دون أن أصل لشعورها ، أو أرفق بقلبها ليتني رحلت عنها فقط دون أن أتسبب لها بكل هذا !! أتعلم ؟! ربما حدث كل هذا لأنني شعرت أنها تخفي شيئاً ما عني ، و لم يكن لدي الاستطاعة الكافية حتي أسألها وأهون عنها ، فاختنقت من نفسي و من حالتي تلك التي حولتني من أنا التي أعرفها التي لم تكن لتترك صديقتها هكذا إلي أنا عاجزة ، بل تفشَّى فيها العجز فوصل إلي عقلها ، بل حتي إلي أطرافها .. تلك الأطراف التي تعودت أن تمسح علي خد صديقتها و تداعب ملامح الحزن عليه حتي تغادره ، و ترسم لها ابتسامة .. هل تغيرت تلك الأطراف ؟! هل الحزن كفيلٌ حقاً أن يقتل صاحبه ؟! ولكن حينها كل ما قمت به أني ذهبت مقتنعة أني حزنت عليها ، لا منها ، و بعد هذا تأزمت الظروف عندي في البيت ، و هي كانت مسكن التهوين عني ، فغضبت منها لأنها لم تسأل حتي لو كنت أنا المخطئة .

أتذكر أني قلت لها مرة (لربما فضلت الصمت في كل مرة كنتي تسأليني فيها عن حالي و تخبريني أسباب تقصيرك اللامتناهية ، رغم أن أكثر ما كان يحرك قلبي و يجعله ينتفض هو عندما

تقولين لي أنك مقصرة ، فيلتهب قلبي و يتشقق شوقاً أن يسألك لماذا غبتِ عن روحي ؟! ماذا بك يا عزيزتي وأنيستي وصغيرتي الفضلى و حبيبتي الكبرى و مصباحي في الدنيا ؟! و لكني قلت لكِ قبل سابق أني أضحيت أخاف علي مشاعري ، ربما أخبرتك من قبل أن من يحب لا يقلق ، ولا يعرف باب للقلق ؛ لأننا نحب من يحافظ علينا و علي مشاعرنا ، من نثق به و نجعله واقعنا و كل خيالنا ، ولكن إذا كنتِ تتساءلين في نفسك ما معني كلامي هذا؟! اذن .. سأرد عليكِ يا صديقتي فاسمعي .. أنتِ لم تستطيعي أن تحافظي علي مشاعرك من الدنيا .. فكيف لي أن أطلب منكِ أن تحافظي علي مشاعري ؟! ففي كل مرة أقول فيها لكِ أني اشتقت لكِ ، ترسلين لي و تقولين أنا أكثر و لكن قلبي يقرأها أنكِ تشتاقين لنفسك ، و لكن حتي يا صديقتي .. لماذا لا تقولين لي أني وحشتك ؟! لماذا تكتفي بقول أنا أكثر فقط ؟! ألهذه الدرجة أنهكتِ وتعبتِ يا صغيرتي ، ورغم هذا كله أنا آتي إليك بتصنّع ابتسامةٍ فاترةٍ أقول لكِ أن مشاعري جفت ، و هي في الحقيقة تلهبني و تحرق ضلوعي و تشغل فكري ، أضحت مشاعري جافة يا صديقتي لكثرة ما أرهقت و استنفذت من كتمانك ، فبتُّ أخاف عليها .. أحاول التمسك بها قدر ما أستطيع حتي لا أنهار أمامك عليك .. حتي إني بتُّ أخشي أن أقول لكِ ما في قلبي فتفرحين به الآن ، ولكن سرعان ما ستعودين لطبيعة غيابك و كتمانك أكثر ،

ظناً منك أنك هكذا تحافظين على سعادتي أنا من ظروفك التي تجتاحك ، و كأنك لستِ مني ، و يوماً ما عندما أكلمك ستقولين لي أعتذر عن التقصير ، و سيرد قلبي عليك لم تقصري شيء ، كان الله في عونك ، ولكن إن جفت مشاعري يا صديقة قلبي ، فأخبريني لماذا أضحت حياتنا روتينية ؟! لماذا تتمسكين بجمال البدايات و تعلقين في المنتصف دائماً ؟! لماذا أشعر أن هناك ما تخفيه عني ؟! لماذا أراكي تبحثين عن ضحكة وجهك بين نظراتي و أنت تعلمين أنك تتصنعين الضحك ؟!)
أنا قلت لها هذا وهي لم تعلق بشيء ، والله يشهد أن مشاعري لم تكن جافة ولكنها ردت معتذرة ، فبات قلبي طيلة ليل هذا اليوم يأن لأنين التي لم تشتكي من قسوة كلامي ، ولا لأي شيء من قبل ، والآن تقول لي أن أعتذر لها !! علي ماذا ؟! علي سفري ، أم كلامي ، أم أندب قلبي الذي بات قاسياً متعنتاً بنفسه ومشاعره فقط .
في هذا الوقت كانت أخته ترن ، فطلب من رضوي أن يرد عليها ، فطلبت منه أن يعطي أختها هناء الهدية ، فسرح لحظة في حالة هناء التي لم يسأل عنها ، بل لم تأتي في باله ، فقرر أن يرد علي أخته ، وبعدها يذهب إليها .. تكلَّم مع أخته و لكن هنا قد وصل الأمر إلي ما لا يتحمَّل ، فظل يناجي ربه قائلاً
- ربِّي ! أنت تعلم بحالنا أكثر من أنفسنا .. ما عدت أحتمل يا الله !!

الفصل الرابع :-

- تأوُّهُ أمٍّ -

ظل مصطفي جالسا مكانه مرتبكاً و كأنه عاجز حتي يلملم شتات قوته ، ثم ذهب إلي أخته التي ذهبت إلي هناء ، وشرحت لوالديها كل شيء و لكنهم رفضوا أن تقابلها و هي بهذا الشكل ، فكانت أماني تبكي و حاولت أن تقنعهم ، و لكنهم رفضوا فسألتهم عن السبب فقالت أمها :

- اسمعي يا أماني .. لم يعد مهماً لي من سيدخل السجن لأن ابنتي في الداخل لا تدري ماذا يحدث حولها ! فحالتها غير واعية بالمرة لما يجري الآن ، فأنا أعطيتها كمية أدوية كافية لتخدر مدينة من الناس ، فلا تحدثيني عن أي شيء الآن ؛ لأني سأرفض أن تخطو ابنتي خطوة واحدة من علي سريرها ، و علي ما أظن أن الشرطة ستقتنع بكلامك اقتناعاً تاماً ، ولكن يكفي ما حدث لابنتي قديماً ، ولكنكم كررتموه ثانيةً ، و فتحتم جراحاً لم ولن تلتئم .. فاسمعي يا أماني .. أنا أحاول أن أكون هادئةً معك فأنا أقدر مشاعر الأطفال التي لا يعوقها حقد العالم و لا الخوف أيضاً ، و لكن الأمر يتعلق بموت ابنتي ، فلا يمكنني أن أتركها تسمع كلامك هذا حتي .. أتفهمين هذا ؟! حاولي أن تتفهمي يا بنيتي .. أنا يمكنني أن أذهب معك للشرطة إذا أردتِ ، ولكن ابنتي

ستظل هنا لمدة أسبوع ، و بعدها سأتركها لتعانق عالمكم الكبير الذي ابتُليتم به ، ولكن قبل هذا لا يمكن !! افهمي جيداً .. حالة هناء الصحية لا تحتمل ، أقسم لك أنك أيضاً لا تحتملي أن تريها هكذا ؛ لهذا حاولي أن تهدأي .. أنتم بالفعل كبرتم بقراءتكم كل الكتب التي قرأتموها .. جعلتم أنفسكم تعيشون داخل كل كتاب حتي أتى الوقت الذي تعيشون فيه أنتم أيضاً واقعاً لا تفهمونه لا يناسب ... كنت أتمنى أن أقول خيالكم ، و لكن أنا أعرف أن خيالكم كبُر بقراءتكم ، فأقول أنه لن يناسب سنكم ، واعلمي أن كل شيء سيكون بخير ، فقط أتركي هناء تستريح لبعض الوقت و اذهبي أنت أيضاً لتستريحي .

قالت أم رضوي هذا الكلام ، و كانت تتألم لحال الثلاث فتيات ، سواء ابنتها أم صديقتيها ، و لكن لم يكن بيدها شيء . رحلت أماني ، و بعد أن غادرت أتي أبو هناء ليعاتب زوجته علي كلامها للطفلة الصغيرة قائلاً :

- أيَا أمَّ هناء !

و لم ينادها بهذا اللقب من قبل ، بل كانت أول مرة كان يحاول الترفُّق بها .

-أما كان يمكنك أن تُهدِّئي أماني ، فأنت تدركين براءة الأطفال و مشاعرهم الصافية ، و لكن براءتهم هذه قد كُدرت بما حدث لهم فكبروا ، و أنت تعلمين أنها تحاول أن تساعد فتاة مسكينة أوَلو

كنتي أم لهذه الفتاة ما كنتي جئتِ لتتكلمي مع أهل الفتاة التي تعرف الحقيقة !! لماذا تخبريها أن ما حدث لها في الماضي كان كافياً ؟! لتتركي الفتاة لعقلها ؛ لتظل تتساءل ماذا حدث لابنتك في الماضي !! و تخبريها أنها لن تتمكن من رؤية هناء لمدة أسبوع !! ألا تعرفين ماذا تكون هناء لأماني ، و ماذا تكون أماني لابنتك ؟! أنت تحدثت بكثير ما كان لك أن تتحدثي فيه .. أظن أنك نسيتِ أنك تتكلمين مع فتاة عمرها ثلاثة عشر عاماً فقط .

صمت الأب و كان متألم حقاً لدموع أماني التي كانت تنزل في صمت ، و لزوجته التي تذكرت ما كانت تحاول جاهدةً أن تتناساه ، و لكن من الواضح أنه لا مفرَّ ، فردت الأم :

- خسرت ما يكفي ولكن كل ما خسرته كنت جاهلة أنه كان سيحدث ، ولكن إن تركت هناء تخرج في حالتها هذه فسأخسر خسارة كنت أتوقعها ، فما فعلته لم يكن قسوة بل كان خوفاً واقعياً ، ولو اشتاقت لأماني فسأطلب من أماني أن تأتي لها ، المهم هو أن تخبر مصطفي ألا يخبر رضوي أي شيء حدث لهناء ، علي الأقل حتي تتحسن فالله أعلم كيف يمر الوقت علي ابنتي في غربتها وبُعدها عنَّا لأول مرة ، وأنا سأدعو الله أن يظهر الحق .

ظل الأب ينظر إلي زوجته و يتعجب من هدوئها هذا ، و لكنه لم يتكلم بل احتضنها محاولاً أن يخفف عن روحها بعض الشيء ، فهو كان يعي أن زوجته تعاني بداخلها من شيء ، و أن مرضها

الأكبر هو الصمت ، و لا يعرف زوجها كيف يدفعها الي التحدث إذا كان تذكرها للماضي لم يدفعها فما من شيء قادر علي أن يفعل ، و مع كل هذا الكلام لم تكن هناء تعي لما حدث .. حالها مشابه لحالة صديقة لأختها التي أرسلت لها تقول :

- مرحبا يا رضوي .. كيف حالك ؟! أتمني أن تكوني بخير .

و لكن رضوي لم ترد عليها ، فأرسلت لها ثانيةً :

- ما هو الخير يا رضوي ؟!

رأت رضوي الرسالة ، و بدأت تنجذب لرسالة صديقتها ، و لكنها لم ترد بل أعقبتها صديقتها برسالة آخري قائلةً :

- الخير بداخلنا فطري ، بداخل الجميع يكمن الخير ، منهم من يكمن علي لسانه فيجبر خاطرك بكلمة ، ومنهم من يكمن الخير في ملامح وجهه فتجديه يتصدق بالبسمة فيبهج نفسك ، ومنهم من يكمن في يده فيتصدق بماله ليعيل فقيراً ، ومنهم من يكمن في عقله فتجديه يخترع ليفيد ، يبتكر ليساعد من يتألم و من يحتاج ليرفه عن صعوبة البعض ، ومنهم من يكمن في روحه فتشعرين بها تتجانس مع روحك لتهون عنك ، ومنهم من يكمن في احترامه لخصوصياتك .. يكمن في كتم فضوله حتي لا يؤذيك ، ومنهم من يكمن في قلبه فتجديه يخفف عمن حوله ، ومنهم من يكمن في جزء منه بشكل لا إرادي يسيطر عليه ، متوغل فيه ، تجديه يبث السعادة دائماً .

أنا يا رضوي أشكرك .. أشكرك أنه حينما سألتني الدكتورة في الكلية .. من أصدقائك ؟! فقمت و رددت عليها بكل ثقة رداً ، ثم ذهبت أشكرك لأنكي لم تتركيني رغم كونك لم تعرفيني ، فأنا حينها كنت في حاجة للتخفيف .. أشكرك لأنك كنت جواب لسؤالي : (لماذا سألتني الدكتورة أنا ؟) .. فكنتي رزق من عند الله لي .

ظلت رضوي تنظر لرسالة صديقتها ، فاطمئن قلبها ، وفرحت ثم أرسلت لصديقتها :

- قد يكون الخير أن تأتي في الوقت المناسب بالطريقة المناسبة ، قد يكون هذا من عظمة السعادة .

فرددت عليها صديقتها قائلةً :

- قد تتعدد أبواب الخير يا صديقتي ، ولكنك ستظلين باباً منها .. ستظلين كرماً من عند ربي ، فدامت لك ضحكتك !

ابتهجت رضوي لرسالة صديقتها ، مع أنها تذكرت كيف كان رد صديقتها ؟! كيف كانت حالتها ؟! كيف تسللت من المكان هاربةً من الجميع قبل أن تقرأ ؟!

أنا أعتذر .. أعتذر أني جعلتك تبكين ! ورأيت دمعك ينهمر و نور قلبك ينطفئ في كل حين .. أعتذر لقشعريرة حزنك التي تتلألأ على الجبين ، فلكِ مني اعتذارٌ ، فأبلغي اعتذاري للأنين . . للقلب المؤنّ .. للغياب المستحيل .. للطريق للحنين ، أبلغي شوقي للسنين ، وعددي مغازل الأيام والشهور التي غازلتك فيها

، و التي أحن إليها بين صرخات الأنين ، فأخبري المستحيل أني قد عايشته .. أني قد داعبته بين حروفه ، فلم يكن من المستهان بهم و لم أكن أنا بمستهين .. أخبري العالمين عني ، واردفي بين نُهر الحب يمناً ، وميلي بسفينتك و أسقي زرعه أمام قبري تسعد المارين ، و خبري الناس أني كنت أشتاق للصراط المستقيم ، و أني راحلةٌ لألقى الحبيب .. فسلاماً يا عطرَ الياسمين .

قرأت رضوي رسالة صديقتها ، وظلت مندهشة لا تعرف كيف ترد ، و ظلت تتساءل هل هناك شيء في صديقتها ، أم أنها تأخذ رأيها في القصيدة فقط ؟! فردت عليها :

- ما شاء الله أبدعتِ ، ولكني حقاً في هذه المرة كنت أشعر أن كلماتك تخرج من داخلك لتسطر علي الورق .. فماذا بك ؟!

- ليس بي شيئاً ، وإنما أنا أحب الشعر كما تعلمين .

كانت رضوي تعرف أن صديقتها بها شيء ، ولكنها أيضاً تعرف أنها لا تبوح إلا عندما تريد فقط ، فلم تكن تريد أن تزعجها بالسؤال ، فقالت لها :

- بل إنك تبدعين في الشعر ، وأنا سأدعو الله لكِ أن تعم عليك السعادة والبهجة والسرور .. أخبريني كيف حال دراستك ؟!

كانت صديقتها تعلم أن رضوي تحاول أن تستنبط عما بداخلها ، فقالت لها :

- و الله الذي في السماء يراني إني بخير !

كعصفور يغرد في صباحٍ حر
باسط جناحيه يستقبل الخير
كنجم في عنان الليل يُرشد للدرب
كقمر في ليلة البدر
ينير للمارين قلوبهم ، ويبهج الصدر
أنا و كل حواسي دوناً عني
دوناً عن هذا الكون هي بخير

****

ما رأيك في هذا ؟! أليس أجمل من السابق ؟! و صدقيني أنا بخير الحمد لله !

-بارك الله فيكي وبارك لك في فرحك و سعادتك ، وأمدهم لك مداً لا حصر له !

- وإياكم يا صديقتي !

الفصل الخامس :-

- الصداقةُ -

أنهت رضوي المحادثة مع صديقتها ، وأضحت تردد في نفسها أضحوا اثنتين هذه و ندي التي كانت تجهل حالها ، تلك الصبية المجهدة التي أجهدت حواسها ، حتي تمنَّت أنه لو يمكنها أن تتكلم .. تبوح بما داخلها ، وليعم ما يعم فلم يعد أوانه ببعيد .. فماذا في تعجيله ؟!

حاولت رضوي أن تخفي القلق الذي تشعر به بفرح خادع للعقل ، حتي تتهرب من كثرة تفكيره ، و لكن هذا الفرح الواهم حتي لم تهنأ به ، فبكت ليلها حتي نامت ، و في الصباح اتصل بها مصطفي فلم ترد رضوي عليه ؛ لأنها كانت مشغولة مع آلاء التي تريها الكلية ، و كانت رضوي في غاية الفرح برؤية حلمها ، و قالت لآلاء :

- واااااااااه من حلمي أوَتعلمين كم سعيت لتحقيق ذاك الحلم؟! أنا تعبت حقاً لأصل إلي هنا .. كنت أعمل بجانب دراستي .. كنت أكافح كل مشاعري ؛ واقفةً لها بالمرصاد ، حتي تلك المشاعر التي كانت تتساءل إذا كان حلمي هذا هو كفاحي للخروج من الماضي .. كنت لا أردُّ عليها بل كنت دائماً أضعه نصب عيني ،

و أقول هو و كفي و لا يهم مشاعري ، طالما أني فَرِحَةٌ لا يهم

تلك الوساوس القاتلة للأمل ، ولا المشاعر المهددة للطموح ، فأنا في بلدي أجهدت حتي جمعت مال للإقامة ، جاهدت دموع أبي في عينيه لرؤية ابنته تشقى ، ولكن يا آلاء لماذا لا تشمل المنحة الإقامة ؟! أنا أعرف أن معظم المنح شاملة الإقامة !!

فأخبرتْها أنها لا تعلم ، و لكنها قالت لها :

- ما أعلمه أنكِ ستصلين إلي حلمك إن شاء الله ! و لن تكوني كالأخريات قبلك قط ، بل ستكونين متفوقة .

تعجبت رضوي من كلام آلاء ، و ظهرت الدهشة علي ملامحها و نبرتها حين سألت :

- من هن الأخريات اللاتي تتكلمين عنهن ؟!

- البنات اللائي قُبلن في المنحة قبلك ، لم يكملن بل اختفوا دون أن يعلموني سوى بمكالمةٍ واحدةٍ ، لم يقدِّروا ما فعلته لهن و رحلن فقط دون الرد علي أسئلتي ، و لكني تأقلمت مع هذا بمرورهن علي حياتي .. لن أكذب ، لم يكن مرور الكرام بل كان مرور ضعف علي قلبي عندما تعلق بكل واحدة فيهن و هن مع ذلك كان يفتقدن جميعاً لعنصر التقدير و الاحترام للعلاقة التي بيني و بينهن ، حتي التي بينهن و بين أحلامهن و طموحاتهن ، فالجميع يطمح و لكن ليس الجميع يحقق أحلامه إلا من احترم هدفه ورغبته وحافظ علي شغفه .. سأقول لكِ نصيحة .. لن تستطيعي أن تكملي أو تثبتي عزيمة نفسك و إرادتها في المستقبل إلا بيقينك

أنك سوف تصلين .. فهذا اليقين يمكنك من أن تستيقظي كل يوم وأنت فخورة بنفسك ، متماسكة بيوم يبعث عليك الفرح ، بخطوة تقوديها نحو هدفك ، حينها تكوني شهيدة علي أن تعب الليالي و السنين لم يُهدر ، و لكنه قادك للقمة ، وليس شرطاً أن تصلي للقمة بسرعة ، بل عليك مراعاة نفسك ، عليكِ أن تساعدي نفسك و جسدك علي تقبُّل المجهود الذي ستبذلينه حتي تستطيعي أن تتابعي المسير ، عليك أن تساهمي في بناء عالم خاص بك هنا في الغربة .. يتضمن هذا العالم الهدوء و التقبل لما سوف تريه هنا ، عليك الصبر الرفق بنفسك ، وأهم شيء الدعاء .. فوالله لولا علمنا أن الله يسمعنا و يرانا لكنَّا أمواتاً الآن .. لولا يقيننا أن الله سيستجيب و سيعوضنا عن كل هذا لكنَّا اكتأبنا ونحن وحدنا هنا ، ولا تجعلي خلوتك كلها في التفكير عن حلمك فقط ، بل اجعليها عن أملك في الله و ثقتك أنه سيحقَق لك ، ردديِ دائماً الحمد لله و سيرزقك الله يوماً ما لم تكوني تتوقعيه ، فله الحمد في السراء و الضراء .. سيرزقكِ رزق لا يمكن وصفه أو تخيله ، صدقيني أن هنا الرزق يصل أضعافاً مضاعفةً ، رزق معنوي و هو الراحة والهدوء و إن جئنا للحقيقة هل هناك بعد هذا الرزق رزق ؟! فهل هناك بعد الراحة و الأمان و السلام الداخلي شيء يُطلب ؟! و لكنه هنا يرزق بدون طلب ، يرزق علي كلمة أنت في الأساس تقوليها ؛ لتصبري نفسك ، لتحاربي يأسك .. أيتركك الله تحاربيه وحدك !!

تالله كلا بل يرسل لكِ رزقاً يبهج القلب و يجعله لا يدرك من أين يأتي كل هذا الكرم .. إنه الحمد و الصبر والرضا .
هكذا ستنجحين وستنهضين بنفسك و تحافظين علي مبادئك كلها .. أمَّا عن علاج الغربة .. لن أقول أنه ميؤوس منه لأن من معه الله لا ييأس ، و لا يمسه مكروه ؛ لأن من معه الله ليس بغريب القلب أو الروح .
أما عن غربة الجسد التي سترينها هنا فليس لك علاقة بها ، و لتعلمي أن ليس الجميع متفق في المبادئ ، فعليكِ أن تغضي بصرك و أن تبعديه عن كل ما يؤلمك من منظر لا يليق بعاداتك أو فكرك ، و لتعلمي أنك ببلدٍ آخر لفترةٍ محدودةٍ و بعدها سترجعين إلي بيتك وأهلك ، وتكلمي مع أهلك مع أصدقائك كل يوم لتخففي ألم الوحدة ، وتكلمي معي في أي وقت تريدينه ، وأنا أنصحك أن تتكلمي كل يوم مع صديقتك المقربة ، فللصداقة طمأنينة ترطب القلب و تنعشه و تزيح عنه ما يغمُّه .
وهنا تذكرت رضوي صديقتها ندي ، و تمنت أن يكون حالها الذي تجهله بخير ، و لكن ندي لم تكن بخير بل كل يوم يزداد الأمر سوءاً و يخرج عن سيطرتها ، و أكثر ما آلم رضوي هو بوست نشرته ندي كاتبة فيه :
- كم مرة أتيت بابي يا صديقي معاتباً متعلقاً بشيءٍ من كرامتك بيني و بينك ما يجب أن يكون هذا الشيء موجوداً بين الأحبة ،

وهو أن تتخيل أني أتعمد التقصير و الابتعاد .. كيف خُيل إليك أني قد أهين كرامتك ؟! أليست كرامتي من كرامتك ؟! ألم تتداخل صفاتنا و ملامحنا حتي تشابهنا ؟! هل أخطأت أمي عندما قالت لي ما أعجب تلك الصداقة يا ابنتي التي يكون الصدق عنوانها ، و الفرح أعمدتها ، وقوامها قلبان مختلفان ليساعد كل منهما الآخر .. قلبان كل منهما يتواصل مع الآخر بنظرات العين المتشابكة الحساسة ؛ لتتحسس أي حزن وبمجرد أن تري لمعة الدموع في العين حتي تخبر القلب ؛ فيضطرب القلب لصديقه القلب الآخر ، ولا يغفل له جفن حتي ينشرح صديقه ؟! فيا ابنتي ستشعرين بلمسة يد صديقتك وضمتها وسؤالها الذي كفيل أن يخرجك من ألمك و يبهجك .

للصداقة سر لن يستطيع أحد تفسيره ، كيف لمن أمامك أن يفهم ما بك دون أن تتكلمي ، و هو بعيد عنك و لا يعلم ظروفك كلها؟! و مع هذا يشعر بك و كأن الصداقة هذه جهاز استشعار؛ ليستشعر كل وجع و كل فرحة .

أتعرفين ؟! لو لكِ صديقة واحدة يا صغيرتي ستملكين سداً منيعاً ضد الحزن ، سوراً عازلاً بين قلبك والألم ، قوةً جبارةً تحصنك من الأنين .

الصداقة يا صديقتي هي تجسيد للرحمة ، و مثال للتفاؤل و للحب و لطاعة الله .. هذه الصداقة الحقيقية .. أنا كانت دعوتي

دائماً أن أمسك بيد صديقتي يوم القيامة ، وأدخل لأسلم علي رسول الله (صلي الله عليه وسلم) و أقول له لقد أنعم الله عليك يا نبي الله بصديق كأبا بكر ، فكنتما مثلاً للصداقة حقاً يا خاتم المرسلين ، أتيت بالخير مبشراً ، وأنا آتي الآن لأريك اثنتين من أمتك قد اقتديا بكَ وبصاحبك فوصلا لهنا ، يا حبيبي قد طال شوقي لرؤيتك و أن أخبرك أن هذه صديقتي التي راعت الله فيَّ ، وتحملتني .. إنها صديقتي التي احتميت في ظهرها عندما اشتدت العاصفة ، إنها كرم الله عليَّ و رحمته .

ثم أكملت حديث أمها لها :

و لكن يا ابنتي كما تتوهين الآن في حلاوة كلامي ، فللفراق طعمٌ مرٌّ علقمٌ يصب علي المرء أحزاناً ، فتعتريه نكبة من القهر و الحسرة ، و تتملكك رغبة لماذا ؟! تلك الرغبة هي لمعرفة سبب الفراق التي ليس له رد يا عزيزتي ، فتدخلين في نكسة الأحلام المحطمة عن رسمك و مخططك لها معك أن تكون صديقتك في حلمك للغد و حتي الممات ، و لكن هيهات فقد رحلت و لم تأتي مع الغد بل أتى وحده ، فتدخلين في دوامة ، و لكن إياكِ يا ابنتي أن تتمسكي بأي شخص رغب أن يرحل ، فربما لم يجد راحته معك فلم يرد أن يعلق عليك أو يُنظِّر على تصرفاتك فرحل في هدوء قبل أن تتمني أنت أن يرحل ، أو ربما قد جُرح من قبل فخاف من جرح جديد و هو لم يشفي من جرحه القديم بعد ، فماذا سيكون

حاله إذا جرح ؟! هل سيستطيع الصمود ، أم ستكون نكسته الأخيرة التي لن ينهض بعدها فيختار أن يرحل ؟! أنا لا أقول أن الجميع بريء و لكن صدقيني الأغلب مجروح ، و جروحهم لم تلتئم بعد ، و لهذا يا ابنتي انتقي صديقتك ، وأخبريها أنك تحبينها و استظلّا ببعضكما في الشدة حتي توحدان عالميكما الخاص ؛ ليشملكِ أنت وهي ، اصنعا بينكما نهراً من التفاؤل يروي الفرح و يقضي علي جفاء الأحزان -

كتبت ندي هذا و اكتفت به لراحة نفسها من فكرها عن أصدقائها كلهم الذين رحلوا ، ولم تكن تقصد قط به رضوي بل كان هذا الشعور ناتج لعدم سؤال أصدقائها عليها وبعدهم عنها ، هذا ما كانت تتخيله ندي و لم تكن تدرك أنها هي من ابتعدت بملامح الكتمان علي وجهها التي كانت تثير تساؤلات الجميع ، فاعتزلت الجميع سوى غرفتها ، فأضحي فراشها صديقها الأوحد ، ولم تتخيل كم التعب الذي يعانيه أهلها من هذا الكتمان !

و برغم ما كان برضوي من حزن .. كان عليها أن تبتسم في وجه آلاء .. و قالت لها بنبرة تنم عن الاشتياق :

- أن ترزقك الحياة بأخت لم تلدها لك أمك هو من أكثر صور الرحمة ، من أكثر الأشياء المعادية للصراع و الأحزان التي بداخلك هو أن تمتلكِ صديق في هذا الكون .. هي نعمة ، بل من أعظم النعم التي يهبها الله للإنسان أن يكون لك شخص يوجهك

في بعض الأحيان ليعصمك عن الخطأ .. أن يقف بجانبك حتي وإن كان يري أنكِ تخفين عنه شيء و يسألك فلا تجيبين عليه سوى لا شيء ، فلا يقوم بتكرار السؤال ليستفسر عما بكِ حتي لا يرهقك ، ولكنه في ذات الوقت يمد لك يده و يفردها بكل ما أُوتي من قوة ليبسطها لك ، و يذللها لراحتك فيكون ضمن أسباب البهجة في حياتك ، بل من أساسياتها ويُصنف في أسس السعادة الرئيسية ، ويُوضع في خانة المريحين نفسياً و يكون هذا الشخص الخفي عن الصورة وراء سعادتك في بعض حياتك ، حتي إنه قد يكتفي أحياناً أن يلعب دور الصداقة من بعيد ، فالمهم بالنسبة له أن يراكِ سعيدةً هانئةً .

قالت رضوي هذا وصمتت ، وسرحت بخيالها في مصطفي وأبيها ، فهما يمثلان لها هذا الشخص الخفي الذي يلعب دور البراءة في حياتها ، و يتمني أن يسعدها ، ولم تكن رضوي تعرف أي شيء لا عن مصطفي الذي بات يشعر بالحنق مما يحدث لأخته حتي أنه بعد أن استفاقت دخل إليها ، و جلس بجانبها وبدأ يحدثها :

- كيف حالك الآن ؟! هل نمتِ ؟!

- بخير يا أخي .. بخير ، و أنا آسفة لكل ما فعلته لك ولأمي من أجل واحدة لا يجب أن نصفها بالبشر ، أنا لا أريد أن أسمع اسمها مرة أخري ، هي تستحق كل ما هي فيه ، تستحق أن تُعذب بقدر ما قالته لي ، وما سببته لهناء من ألم حتي جعلتها

تلازم فراشها بقهرها عليها وحزنها ، وهي لم تعلم الحقيقة !! أنا أقسم بالله إني حزنت علي هناء وعلي أمها بنفس القدر الذي حزنت عليها ، هل كنت أنا المخطئة لوضعها في هذه المكانة ؟! قل لي يا أخي ما الفائدة من كذب الإنسان ، بل كيف تجرأت أن تكذب في أمور مثل هذه ؟!

كان مصطفي جالس أمام أخته و لم يكن يفهم ما تقصده ، فظل يسألها حتي فهم كل شيء ، و لكن كان هناك شيء به رافض لكلام أخته ، و كان مصدقاً لكلام أميمة بل شبه موقن بأن أخته علي خطأ ، فسألها محاولاً أن يوضح لها :

- منذ متي تعرفين أميمة ؟!

- منذ أكثر من عامين .. عرفتني عليها هناء ، وكنا نجلس ثلاثتنا نقرأ ونرفه عن أنسفنا معاً !

كان مصطفي مقتنعا بداخله تمام الاقتناع أن أخته مرتبكة ، فهو كان يريد أن يصدق أميمة لأن هذا أرحم بكثير من كلام أخته الذي يرفضه أي عقل بشري ، وخصوصاً أنه يأتي من طفلة عمرها ثلاثة عشر عاماً فقط ، فطلب منها أن تذهب إلي هناء لتطمئن عليها و تتحدث معها ؛ آملاً أن يفارقها ما هي فيه ، وأن تفهم منها كيف لأميمة أن تقول هذا ؟! ثم خرج مصطفي وتركها لتستريح كما طلب الطبيب منه ، و ذهب إلي أمه ليراها و يطمئن عليها ، فسألته عن أخته .

لم تكن الأم تعرف كل ما يجري في البيت ، فكان كل ما تعرفه أن ابنتها تعبت ، وأرهقت و توجب عليها أن تستريح . حاولت الأم أن تذهب إلي ابنتها و لكن الطبيب رفض أن تبرح سريرها خوفاً عليها ، و أصر الطبيب عليها فقالت له و هي تبكي :

- عن أي راحة تتكلم و راحة الأم تكمن في راحة أولادها ؟! أنا يجب أن أطمئن على ابنتي .. هكذا سأستريح !

كان الطبيب يعلم أن هذه المرأة التي أمامه التي لم تعد تملك سوى عقلها و مشاعرها و لسانها ، ولن تستجيب له فطلب من ابنها أن يحضر لها أخته بمجرد أن تستيقظ ، محاولةً منه لتهدئتها و لم يكن يعلم الطبيب أنها قد هدأت بالفعل ، هدأت من منظور عيونهم فقط ، وهذا عندما حاولت أن تستطيع النهوض من علي فراشها ، و لم تستطع ، بل لم تحرك ساكناً ، لم تحرك ذرة من الهواء المار في غرفتها فظلت تبكي حتي أنهكت ، فاضطر الطبيب أن يعطيها مسكناً ومخدراً ، وتركها تنام ، وأخبر مصطفي أنه بمجرد أن تستيقظ أخته يحضرها إلي أمها فوراً ، وبالفعل ما إن استيقظت أماني حتي أخبرها مصطفي ألا تحكي شيئاً إلي أمها مما حدث معها البارحة و ما حدث لأميمة ، فدخلت فوجدت أمها مغمضة عينها فظنتها نائمةً ، فاحتضنتها فأفاقت ، فوجدت ابنتها حزينة ، فلم تعرف ماذا ألمَّ بابنتها ؟! فسألتها :

- كيف حالك الآن ؟! ولما كل هذا الإرهاق ؟! ومن أجل من ؟!

أنا لم أراكِ قط بهذا الشكل .. فماذا حدث يا فتاتي ؟!
- أنا بخير الحمد لله ! أما عن إرهاقي فإنه من أجل لا شيء ، من أجل كذب واحدة في حياتي ، و لكنها خرجت الآن من حياتي ، والأمر قد انتهي الآن ولم يعد له وجود .
نظرت الأم إلي ابنتها بنظرات لم تفهمها أماني ، وكأن أمها لا تصدقها ، حتي قالت :
- من قال أنه انتهي ؟! إذا كان انتهى منه اللسان فلم ينتهِ منه العقل والقلب يا ابنتي ، وأنا حتي أرى أن لسانك لم ينساه بعد ! و أنا لا أطلب منك أن تكتميه في قلبك ، بل أريد فقط أن أفهم في ماذا كذبت صديقتك ؟! حتي تكوني هكذا و يصل بك الأمر لكل هذا !
- كذبت فيما كنت أتمني أن أملكه و لو للحظة من الوقت ، فيما وهبها اللّه لها ، و لم تقدره ! أنا حتي عقلي لا يحتمل كيف ؟!
صمتت أماني و أجهشت في البكاء ، و بدأت تتلعثم في كلامها ، حتي قالت لأمها :
- أمي أنا لا أريد أن أتكلم في هذا الموضوع الآن .. أنا بات كل ما يهمني أن أطمئن علي هناء صديقتي ، هي ما تبقت لي فادعي لها أن يشفيها الله ، وأنا أعدك أن أشرح لكِ كل شيء بعد أن أذهب إلي هناء و أسألها و أفهم منها كما طلب مني مصطفي ، الذي مصرٌّ علي كوني أنا المخطئة !

بعد كلام أماني لم تُرِدْ أمها أن تسألها مرةً أخرى ، ولكنها قالت لها :

- اسمعي يا ابنتي ! ما كان لسانك لينطق لو لم يضَّجر قلبك لدرجة كادت أن تخنقه ، لو أن عقلك وجد الإجابة و التفسير أو حتي اختلق مبرراً لما كان لينطق لسانك ، بل كان عقلك و قلبك لَيوقفانه و يصبرانه حتي يفهم ، وأنا أراكِ لا تريدين أن تفهمي شيئاً .. لا من هناء أو غيرها ، أنا أنصحك نصيحة ، ألا تحكمي و أنت في ثورة غضبك ، حاولي أن تفهمي و تنظري لوجهةِ نظرِ مَنْ أمامك .. أنا أعلم أنه لا توجد وجهات نظر في الكذب .. فالكذب كذب و مبرراته في الأغلب تكون أشنع منه ، و لكن أنت تقولي لي أن الأمر قد انتهي !! ماذا أدراكي بهذا ؟! فمن الممكن أن تكون هذه بدايات فقط ، طالما يلتهب قلبك فالأمر مؤلم ، و مازال قائماً يا بنيتي .. قد يكتم الشخص لسانه ولكنه لا يستطيع أن يكتم قلبه وعقله من موضوع أحزنه واستفزه ، لا أعلم ماذا أقول لك فأنا لا أعلم ماذا حدث ، وأنت لا تريدي أن تتكلمي ، وأمرنا الطبيب ألا نضغط عليك ، ولكن أنا لا يمكنني أن أتحمل رؤيتك بهذا الشكل .. شاردةً تائهةً ، فكل ما يمكنني أن أقوله لك .. رفقاً بنفسك يا صغيرتي ، فإن الدنيا تتوالي عليكِ بأمور قد تتعجبين لها ولا تعرفين كيف حدثت !! بل كيف استطاعت تلك الأمور أن تحدث ، و لكنك في كل مرة ستعرفين كيف تتأقلمين و تفصلين

بين حزنك و فرحك .. ستعرفين كيف تعيشين الإثنين و تجعليهما يتعايشان مع بعضهما .

الفصل السادس :-

- اشتياقٌ -

ظلت أماني تنظر لأمها و كأنها تقول لا أفهم حتي قالت :
- و هل يلتقي الفرح و الحزن معاً ؟! فإذا التقي الحزن و الفرح في درب لابد من منتصر ، و غالباً يكون الحزن لأن جاذبيته القلبية أكبر عند أغلب الناس .. فكيف يتعايشا يا أمي ؟!
كانت الأم تنظر لابنتها مبتسمةً فقد نجحت أن تستميل عقلها لتترفق به من تفكيرها الحزين بكلمات تنصحها بها .. تخلت الأم عن صمتها قائلةً :
- أتعلمين يا ابنتي ؟! ما أوجع أن نتألم في صمت فنعادي كل التصرفات التي أزعجتنا ، و المواقف التي أحزنتنا في صمت ، فنرد رداً لائقاً بين ضلوعنا ، لا نسمع له حتي همساً ، مع أن صداه يهزنا هزاً ، أعتذر أني لم أجيب عن سؤالك و لكن عندما تتمكني أن تخرجي هذا الصمت من مكنونك للعالم ستعرفين كيف يتعايش الفرح والحزن ، عندما تردي علي كل ما يحزنك .. قد يكون بدعوة تناجي بها ربك ، أو بكلمة تعترضي بها علي تصرف إحداهن معك وما أكثر إحداهن في حياتك ، فأنا أعلم هذا جيداً كما أعلم أن الحزن سينتهي جزئياً بهذا الشكل .
أتعلمين أن من أمامك قد لا يعلم أن تصرفه يؤذيك فيتمادى في

أذيتك دون أن يعلم ؟! فعندما تردين ستشعرين أنك وضعتي للذي أمامك حداً للكلام معك لن يستطيع تجاوزه ، ووضعتي اعتراضًا مزلزلاً ضد تصرفاته الغير لائقة ، ليس معه فقط بل مع من يتصرف مثله .. هنا ستفرحين بنفسك ، فالمواجهة و إن كانت مؤلمة وقد لا نقوى عليها أحياناً ، فهي مريحة و تبعث بالهدوء حتي و إن صاحبها أنين ، فعلي الأقل ستعرفين أنك أخذت القرار الصحيح ، و هو أن تبتعدي أو أن تكملي . لا تتركي نفسك للحزن لأنه لن يربت علي كتفك ، بل سيقتل كل حلو بداخلك و يتركك و أنت لا تعرفين من أنت حتي ! سأقول لك عندما تعجزين الجأي لله ؛ لأنه الله ، لأنه من يراكِ و يرى عجزك وضعفك ، فعندما تلجئين لله و ينجيكِ ستفرحين لأنه نجاكِ ، و تفرحي بنفسك و تفخري بها لأنك صبرتي .. ستشعرين ببرد يرطب لهيب قلبك و يمطر عليك خيراً .

صمتت أماني و ظلت تنظر لأمها نظرات و كأنها تقول لها .. حقاً هكذا يتعايش الفرح و الحزن معاً .. حتي قالت :

- أمي ! أنت ما تقوليه لا أري فيه أن الألم يتعايش مع الفرح ، بل أري أنك تلجئين إلي من بيده ملكوت كل شيء ، فتستريحي و تهدأي أو تمنعي بالرد من يضايقك ، و لكن هناك أنواع من الوجع لا نستطيع منعها كالموت يا أمي !!

كان لوقع هذه الكلمة علي آذان أمها وقعاً مؤلماً جعلها تنظر

لابنتها نظرة مخيفة ، و كأنها كانت تستشعر الخوف من كلام ابنتها الذي ستتفوه به .. كانت تريد أن تمنع ابنتها ، ولكنها في نفس الوقت أرادت أن تخرج ابنتها كل ما تخبئه بداخلها ، فاستكملت أماني كلامها :

- ألم تحزني لموت أبي ؟! ألم تتوجعي ؟! ولكنك اخترت أن تقفي علي رجليكِ ، أن تتحملي لتتخطي محاولة الوصول للوجع الذي كان يملأ قلبي .. حاولتِ أن تتغاضي عن ما في قلبك لتخففي ما في قلبي يا أمي و نجحتِ .

لم تنجح أمها ، بل كانت ابنتها تتألم في صمت شديد ، و لكن الحديث انجرف تجاه الموت بسبب أميمة ، فكان عليها أن تعدل من كلامها الذي أذت أمها به ، و لكنها لم تفلح و رأت الدموع في عيون أمها تحاول أن تكتمها حتي لا تتأذي مشاعرها ، فقالت لها :

- صغيرتي الموت ليس ألم ، بل هو أعظم من هذا فهو شعور متخبط بين كل شيء .. شعور دائم بالفقدان و الاحتياج لمفقودكِ في وقت فرحك و سعادتك ، و البكاء أكثر في وقت حزنك ، فتعيشي في عالمين ، عالمك الواقع ، وعالم (هو) ، وما أدراكي ما عالم (هو) بعد يا ابنتي ، و لكنك ستدركينه كله بمرور الوقت ، عندما لا يكون موجود في كل شيء و يكون موجوداً عند الآخرين ، و لكنه ليس بغائب .. سيكون معك بروحه و لكن بداخلك فقط .. أنت من

ستلمسين وجوده بين الجميع سواء بالتمني أو أن تكبري باسمه أو أنك تشبهينه في الكثير من ملامحك ، ألا تسأليني عن أباكِ و ليس عن زوجي يا صغيرتي ؟! ألا تبحثين لنفسك عن جواب لسؤالك الذي تسأليه لنفسك مراراً ؟! فأنا أشعر بك و لكن سأقول لك إياكِ أن تشبِّهي الموت بأي شيء مهما كان ، فالموت سيتفوق عليه يا ابنتي .. سيجعلك هذا الشعور تذرفين الدمع لا إرادياً ، فلقد مات أبي و أنا في مقتبل عمري ، و لكن ربك عوضني بأبيك ، فاجلسي لأحدثك عن الحب والهيام !

ابتسمت أماني لاشتياقها لكلام أمها عن أبيها ، ولكن أمها صمتت ورسمت علي وجهها ابتسامةً تلخص فيها كل سعادة العالم ، تثلج صدر ابنتها مما هو فيه ، فقالت لها :

- أتعلمين ما هو الحب ؟! هو الارتياح .. هو أن تكتفي بنظرة فخر ورضا ممن تحبيه .. الحب أقسم لكِ أني لو قلت أنه أبيكِ لصدقت .

و كانت بداخلها تردد الحب هو ما ترينه الآن ، فعند كلٍّ منا ألمه ، و لكنه يريد للآخر السعادة ، وفقط ينسى دمعه لكي يري فرحة من أمامه .. أليس هذا الشعور كافياً ضد شرور العالم كلها ؟!

فتابعت أمها صمتها علي ألمها قائلةً :

سأحكي لكِ حديثاً حدث بيني وبين أبي بسبب الحب حين سألته قائلةً :

هل لهذا القدر الحبُ مخيفٌ ؟! و كأنه شبح تسيطر عليه فتنة الخداع حيث يُفرِح صاحبه قليلاً ، و يجعله يطير وسط نجوم البهجة ؛ فتعتلي في سمائه سعادة مؤقتة تلبس زي البراءة المفرطة ، وحقيقتها وحشٌ قاتلٌ .. أتعرف لما يشبونه بالوحش ؟! لأن الوحش شيء مجهول لا نعلمه ، و نحن نخشي المجهول ، نهابه ونخاف منه حتي يتكشف الستار عنه ، و قد يكون شيئاً لا قيمة له ، ولكن ما زال الحب يرتدي بُرْقُعِهِ ولم يخلعه ، فيخيم علي صاحبه الحزن حتي يخنقه ، فبات تعريفه في التاريخ وعلي مر العصور (هو النفق المظلم نهايته مهما كانت بدايته ، مهما كانت حلوة أم سيئة ، فسيكون مكانك أن تموت وأنت تتنفس .. هو ذاك الخادع الذي يجعلك تظن أنه من يجعلك تتنفس ، تتعلم كيف تعيش و تقوي ، فيكون هو من يكسرك و لا تقم لك قائمةٌ من بعده) .

ظللت أقول لأبي هذا الكلام ، و كنت حقاً أشعر بكل حرف فيه ، فكان كل حرف يعبر عن ضيقي و غضبي ، و ظل أبي ينظر لي صامتاً ، حتي جعلني أشعر أن لدي حق ، و أنه لا يجد جواباً ، و لكن هذا الصمت لم يطل حيث رد عليَّ قائلاً :

- ماذا أخبروكِ عن الحب يا رفيقتي ؟! هل قالوا لكِ أن هناك دائماً طرفاً يخون و يغدر و يتركك لتتألمي وحدك ؟! فيتكون داخلك جروحاً و يبدأون في تعداد الجراح ، بل لا يكتفون بهذا فيشرحون

لك طريقة الألم قائلين آلاماً لا حصر لها من اللا أمان ، واللا هدوء ، آلام لا تلتأم ، و لا تندمل حتي و إن التئم جرحها ، ثم يعاودون إليك سائلين إياكِ سؤلاً استنكارياً ، قائلين بنبرتهم الهادئة المعادية للهدوء النفسي : - وهل تلتئم الآلام النفسية التي تغرز فيكِ جروحاً لا ترى حتي بالميكروسكوب ؟! - و لا يتوقفون حتي عند هذا السؤال لفتاة في مقتبل العمر ، بل يتمادون في حديثهم الغير شرعي محدثين إياكِ بكلام لا تفهمين مغزاه ، بل يكون محور تساؤلات لن تجدي لها إجابةً مطلقاً إلا إذا عايشتِ الحب وعيشتيه ، فيواصلون ترَّهاتهم قائلين :

نحن نخاف من أن تُقمع أنفسنا تحت قناع الحزن فنخسرها للأبد ، فنقمعها نحن بأيدينا ؛ آملين أن نتحسن يوماً ما ، ولكن جراح الحب لا تشفى و لا تقاوم ، فلا يكون مفر من التيه و الحسرة علي النفس ، فنعيش في بؤرة التجرُّع من الخيانة ، و الألم حتي الممات .

حينها يا بنيتي صمت أبي و ظل ينظر لي و كأنه كان ينبش في ملامحي عن سر سؤالي ، و كأنه كان يقول لي لمن سلمت أذنك ، و قلبك يا ابنتي !! حتي جعلوكِ تكرهين الحب لهذه الدرجة ، و لكنه لم يسألني و استأنف حديثه قائلاً :

- الحب هو أن تجعلي واقعك الله ؛ لأن أغلب تعريفات الحب عبارة عن أنه ليس لنا عليه سلطان ، و أنه لا يجعلك تشعرين

بشيء حولك ، بل تتوهين في سعادة غامرة معمرة ليومك ، مبهجة لذكرياتك ، و لكن مع الله أنت تحصنين نفسك من كراهية الحب .. من مرارة التفكير و قسوة النفوس .. تحافظين علي نفسك فتدركين كل الواقع بل يكون واقعك هو الله ، الذي يرزقك الرحمة ، الأمل ، التفاؤل .. لا أن يكون واقعك أنت ، أو هو فكلاكما متغير .

ظلت ابنته تنظر له و لم تتكلم ، فنظر لها أبيها و قال :
- أنتِ لم تستوعبي كلامي ! حسناً .. ما الذي لم تفهميه ؟!
قالت متسائلةً :
-لم أفهم كيف يكون واقعي الله ؟! وكيف تجمع بين الكراهية و الحب ؟! بل أنت وصفت أن للحب كراهية !!
لم أفهم يا أبي !
- حسناً يا بنيتي ، أن تجعلي واقعك الله ستتجنبين معصيته ، و لكي تفهمي أكثر سأقول لك .. الحب هو ما أحله الله أما بعض ما سترينه في العالم الخارجي هو حرام من جميع النواحي .. سترين إثنين غير مرتبطين برابط رسمي و من وراء أهلهما يقولان أنهما يتعاشقان .. إياكِ و أن تظني أنهما يعشقان !! كَلَّا ، هم يحاولون تصنُّع العشق .. إشغال وقت فراغهما و لكن هل سيتزوجان ؟! لا ، إطلاقاً ، وإذا حدث لا أعلم في الحقيقة لماذا سيحدث ، و لكن

سيظل هو يشك فيها و ستظل هي تشك فيه و يحل الخراب و سترين اثنان يحبان بعضهما .. لكن كيف تحبي شخصاً لا تخافين على سمعته ؟!

ألن تكون امرأتك ذات يوم ؟! إذن سمعتها ستكون من سمعتك ، فكيف لم تخف علي سمعتها ؟! كيف لم تفكر أنها تخون ثقة أهلها وتكذب ؟! حتي إنه لم يخف علي شكلها أمامهم إذا عرفوا برغم سني هذا ، ما زلت لا أفهم كيف يقول أنه يحبها مع إنه يؤذيها أذية لا شفاء منها ، ولا دواء لها ، ولا مثيل لها حتي ؟! ماذا إذا أغضبها آلاف المرات ؟! لمن ستشكي حزنها ؟! ستشتكيه لمن؟! لقلبها ، أم لربها الذي تعصيه ، فحتى إذا لم تُكشف و تزوجها ستظل تتذكر كذبها على أهلها ، و ستخاف علي ابنتها أن تكرر ما فعلت .. اسمعي يا ابنتي !! إذا أحبك الرجل سيجعلك طفلته ، يخاف عليك من نسمة هواء تحمل ذرة تراب فتتركها علي وجهك ، فيتسخ إنشاً واحداً منه ، يثور لقطرة غضب تعكر عليكِ مزاجك ، تكوني جزء منه لا ينفصل و لا يتجزأ ! تالله لو سألوني عن الحب لذهبت و أحضرت لهم أمك و قلت لهم أن يسألوها هي ، فالحب عند الفتيات شيء مختلف ! أنا أراه شيء لا يُشبه ، أو لنقل فيه من جمال الجنة !

الحب هو نظرة تستميل قلبك فتضحكه رغماً عنكِ .. أتعلمين ؟! الحب هو البساطة في كل شيء ، في تجلي معانيها ، في الانجذاب

إليه .. الحب هو الهدف الأسمى ، والسعي الأوحد في هذا العالم .. الحب هو المراد من هذه الدنيا ، هو الصبر ، هو الرضا .. الحب هو التجلي لكل محاسن العالم و مساوئه .

فهو الرضا و الصبر علي البلاء ؛ لأننا نحب الله فنصبر لثقتنا فيه ، وأنه سينجينا ، ولأننا نحب أن يُسطَّر في صحفنا أن فلانا قد أحبه الله .. أتتخيلين مدى الجمال ؟! ألم أقلْ لكِ أنه شيء فيه من نعيم الآخرة ، و يكون بهذا هو الهدف الأسمى و السعي المتوجب علي الإنسان في الدنيا .. أنظري معي ، فكري كيف لكل مساوئ العالم تلك أن تحدث لو كان يعم الخير ؟! ألم تري ما كان يحدث قديماً ؟! هل كنتي تسمعين عن كل هذا الحقد الذي يعم العالم؟! و الله كلا ، ثم كلا .. فما رأيته مع أمك لا يوصف ، و ما رأيته قبلها من كم الدموع التي كانت تنزل كل يوم من عيوني كانت كفيلة لتصيبني بالعمى القلبيِّ ، فجروحي كانت تنزف دون ردٍّ مني واحدٍ ، حتي كنت أتألم و أتأوه بل إن كان داخلي يتلاطم و يتضارب مع بعضه البعض تاركاً إياي و خارجي المغصوب علي الصمود المغتصب حقه في الوقوع ، أو حتي فقط البكاء بدموع ليس بصوت .. كان لا يصح لي أن يخرج من فمي همساً حتي يعبر عن عجزي .. كنت أرى نفسي تقترب علي حافة الانهيار و لكن لم تكن لدي القوة الكافية لأشدها ، فكنت أتركها تذهب فلم يعد لدي من الصمود الداخلي ما يمكنني من أن أقف مرة

أخري .. كنت منكسر حتي الرمق الأخير ، كان كل ما يخرج مني هو زفير التنفس ، لم يكن يمكنني البوح سوى في الليل فكنت أجلس و أرفع كفيَّ للسماء ، و عندما تكون دموعي علي أهبة الاستعداد لتخرج من سجنها هذا ؛ لتلهب بدورها خدي كما ألهبتها أنا بسجني لها ، كنت أضع يدي علي فمي و أكتمه حتي لا يسمعني أحد ، ما كنت أعرف للراحة ركن لألجأ إليه ، ما كان لي مخبأ من حزني ، و لا لي مخبأ للسكينة في هذا العالم ، و لن أخبيء عليك فالعالم لا يحترم إلا القوي ، فكان يجب أن أُظهر أني قوياً ، فإن لم يكن من أجلي فمن أجل إخوتي الصغار .. كان شيخي يقول في خطبة الجمعة .. علموا أولادكم الحمد ، علموهم ما معنى الدنيا بالتدريج ، لا تتركوهم للدنيا هي التي تخبرهم كل شيء ، فالدنيا تجارب و في كل تجربة وجع يعقبه فرح ، فحاولوا أن تقتلوا بعض الوجع قبل أن يصل لصغاركم ، فالوجع يقتل البراءة و قد يظل ساكناً فيهم بمرور السنين ، فمدوا أيديكم لأولادكم قدر ما تستطيعون ، انقلوا لهم تجاربكم فلعلكم تخففوا عنهم ما سيرونه في هذه الدنيا .

ولكن لم يكن لدي أحد ليخبرني بشيء ، لم يكن معي مال لأشتري به كتاب مثل ذاك الذي تقرئيه ، لم يكن معي شيء غير أن يقيني بالله سيقيَني من ضعفي و قد كان ، فقد رزقني الله بأمك لتتحملني بكل ما بي ، لا تشد يدي من الانهيار ، بل ظلت تهدم

قاعدة ذكرياتي المحزنة لتجعلها عظة لي فأفرح أني خرجت من تلك التجربة التي كنت أراها نهايتي المحتمة ، فوقفت بجانبي .. لقد كنت أدعوا الله دائماً أن يرزقني الكرم و التوفيق والنجاح ، فرزقني الله بكل هذا و أضاف عليهم السند ، فكانت تلك الجميلة أيقونة المروءة و الطيبة و الرفق ، صديقة الحياة .. كنت صغيرها عندما كنت في حالة يرثى لها ، كانت تعاملني كابن لها ، تضمني في حضنها فكنت أبكي ، أصرخ بقدر ما أشاء ، وهي كانت تكتفي بأن تراني أبكي ، تجعلني أبكي بل و أفرط فيه و هي تربت علي كتفي ، وعندما أفرغ كانت ترفع رأسي من حضنها و تنظر تقول ستفرج .

كانت تمسح بيدها الكريمتين الدموع من على وجهي فتكرم بخاطري بكلامها لي أنها ستفرج بيقينها بالله و بي .. لم أرى امرأة أقوى منها ، أتعلمين لماذا ؟! لأني لم أرى رجلاً أضعف مني حينها .. لا تنظري لي هكذا فالأوقات العصيبة التي تمر علي الإنسان قد تأخذ منه كل ما يملك من أمل في حياة و سلام حتي من الحب و الود ، نعم رزقني الله بالود و الحب و لكني كنت ضعيف الحيلة ، كنت ضعيف بيني و بين نفسي ، لا أملك لها شيء لأمدها لها لتستمد قوتها منه سوى الدعاء ، هو الذي كان يقويني في النهار ، و يأتي الليل لتأتي خلوتي مع الله فأبكي كما يبكي الرضيع جائعاً لا يعرف مكان أكله ولا حتي يفهم شيء مما يدور حوله ،

و كنت أنا حقاً لا أفهم شيئاً حتى جفت دموعي مني واعتكفت على الصبر و حب أمك .. أنا لم أعترف بهذا لأحد من العالمين قط ، و لكن هذا حق أمك عليَّ و أنا أشتاق لها .. فكانت صديقة لأخوتي الصغار ، بل كانت أمهم !! فلولا حب أمك لا أعلم ماذا كان ليحدث لي يا صغيرتي ؟! هكذا يكون جزء من الحب فما بالك بكل الحب .. حاولي أن تفهمي أن الحب قد يكون ذاك بصيص الأمل الذي ينتشلك من ظلمتك ، أو يكون المصباح الذي يزيد مسيرتك نور ، و الحب هو أن يراك ناجحة و يصفق لك و يقول هلم ! هناك المزيد هو من يقف معك دائماً ، لا يهمه إذا كان بجانبك أم ورائك ، المهم أن يراكِ تنجحين .. أنا أتذكر مرةً أنَّ امرأة كانت تخبر ابنتها دائماً - كانت جارتي - أنَّ الرجل قد يطلق زوجته ، و لكنه لا يستطيع أن ينفصل عن ابنته أو يتبرأ منها فهي جزء من صلبه أتي إلي الدنيا ؛ لهذا اختاري من تكوني ابنته يا بنيتي .. انتقيه ليكون رجلاً صلباً أمام الجميع لا يكسر ، و لكن اجعليه معك ولدك المدلل فليبكي و ليصرخ و ليفعل ما يشاء ، فإن كنتي له اليوم كان لكِ دائماً و أبد الدهر .. كان لكِ و أنت حية و أنت ميتة ، وكانت تلك العجوز محقةً ؛ فأنا لابنتها إلي الآن رغم أنها غادرتني و غادرت الدنيا منذ سنوات ، حتي بعد موتها كانت قوتي .. حصني من ضعفي .. كانت هي صبري من ضعفي حقاً ، والآن هي بداخلي تحيا ، أراها تبتسم لي أني نجحت

في تربيتك .. أتلمس يدها تربت علي كتفي و تداعب خدودي كعادتها ، و تقول لي بارك الله لي فيك !! نعم هي ميتة و لكني أعشقها و سأظل .. أليس هذا حباً !!

سأقول لكِ شيئاً آخر احفظيه عن ظهر قلب .. الفتاة إذا حبت وهبت و لكن لمن تهب ؟! و ماذا ستهب ؟! هل تهب كل الحب الذي عاشته مع أهلها لشخص هي بالكاد تعرفه ؟! فكل مصادرها عن هذا الشخص كلامه عن نفسه .. كلا يا ابنتي ، إذا لم يكن حلالاً يُرضي الله فلا تقبليه .. لهذا يا ابنتي اجعلي واقعك الله تتحصني و تكفي نفسك شرور النفوس و قسوة التفكير .

- و بالفعل نجح أبي في إقناعي حينها بكلام منطقي أكثر من كونه يلمس القلب ، فهو يريح النفس و يطمئنها ، وأضحي وثيقة عندي - .

فرزقني الله بأبيكِ بعد حوالي أربعة أعوام من موت أبي ، جاء ليتقدم لعمي ؛ ليطلب يدي و لكني كنت ما زلت في سبات الحزن علي أبي واعتزال الناس و كأني كنت أحرِّم علي نفسي الضحك ، أو الخروج .. لم يكن لدي أصدقاء حينها حتي أولاد عمي حاولوا كثيراً ، و علي الرغم من هذا لم يفلحوا ، فعندما يقف الإنسان أمام حزنه باكياً ، غازيه شعور العجز ، فإن هذا كفيل للعيش في هذا الألم لسنوات ، فأرسل الله لي من يعوضني و كان أبيكِ ، و لكني لم أوافق عليه فوافق عليه عمي ؛ لأنه رأي فيه جزء من أبي

.. هكذا قال لي عمي و كنت أثق بقراره ، فهو تربي علي يد أمي و أبي ، و مع مرور الوقت أثبت لي أنه المناسب حينما قال لي :
- الحب نظرة يفهم من خلالها كل شيء .. ابتسامة منك لتحتويني ، لتجعلني رغم ما بي سعيداً فرحاً .. الحب ليس معناه أخذ أو عطاء ، الحب معناه حياة بها كل شيء من السعادة و الحزن ، و من الفرح و الألم ، ولكن بها أمان دائم و اطمئنان بها أنت الشخص الذي سيقف بجانبي مهما عصفت العواصف ، الشخص الذي يتحملني إذا شعرت بالضجر ، الشخص الذي سيكون معي في قلبي و بالي و أمام عيني عندما أرغب أن اعتزل الجميع .
. الحب هو همسكِ في أذني أن الخير قادم بالصبر لا محالة .
. الحب هو أن أكون حزيناً ، و لكن أود إسعادك و فرحك .. الحب هو أن أفرح معكِ .. الحب هو يقين النجاة في هذه الأرض ، دستور للطموح و لتعمير الكون .. الحب أن أفتخر أني أعرفك ، أني زوجك و أنيسك ، أني من تقصدين في ثنايا تعريفك الخاص عن العشق .. الحب حقيقة هو تلك الشعور الذي نتجرد فيه من كل مشاكل واصطناعية الحياة ؛ لنتقابل في النهاية كطفلين أحبا بعضهما ، ليس بالعقل و التفكير ، و لكن بالقلب ! تبادلا النظرات والابتسامات فأحبك كأنه لم يرى شيئاً حزيناً أو مؤلماً قط ، وعندما يفكر فيكِ يرى فيكِ السند ، يراكِ الأمان .. الأمان الذي يبعده عن الأحزان .. الاحتواء الذي يجلب له السعادة و ارتياح البال .. مهما

وصفت الحب عن أبيك سيكون قليل عليه !
سيتوجب علي التاريخ أن ينشأ له تعريفاً خاصاً به ، فيمكننا أن نعرف الحب علي إنه يشبه ملامح أبيكِ ، فيه شيء من نظرته التي تهون على النفس فيه من الصبر الذي يُعطَى في نهايته حياة جديدة ، تستحق أن نكافح من أجلها ، فهو تعرَّف عليَّ في أوقاتٍ حرجةٍ .. كنت أردد فيها مقولة واحدة - لم أعد أشعر يا أبي !! هل أنا المخطئة ؟! هل أنا الملامة على كل شيء ؟! هل أقتل نفسي بيدي بتركها تتصارع مع الألم بمفردها ؟! و ها هي الآن تشاهدني في صمت دون حتي أن تسألني لماذا ؟! لأُحدِث معها حوار .. أنا بحاجة له فلربما أهدأ به و لكن أعتقد أنها اختنقت مني ، تتمني لو وُهبت لغيري ، لكان قدَّرها و حافظ عليها بدلاً من أني أهملها ، وأتركها وحدها دون سؤال يتضمن بعض الكلمات ، كحاربي حتي تصلي ، فكنت أقتلها في صمت مخيف دون نزاع لا مني و لا منها ، فقد اكتفت مني واكتفيت أنا من العالم -
و لكن كان أبوكِ طوق النجاة الذي رزقني به الله ، أكرمني به رحمة منه و جبراً بخاطر أبي ، الذي كان يدعو لي في كل سجود و في الليل أن يرزقني الله زوجاً صالحاً يراعي الله فيَّ ، ويأخذ بيدي للجنة .
صمتت أمها ، فتحدثت أماني :
- أمي .. !

دخل عليهم مصطفي فلم تكمل أماني سؤالها ، فنظر لأمه و أخته و وجدهما مبتسمتين ، فخرج فأوقفته أمه :

- أجئت لتخرج ؟!

لم يستطع مصطفي أن يتكلم أو يخبر أخته ما كان يتوجب عليه بسبب ابتسامتها التي كانت ستبدد ، فقرر أن يخرج و رد على أمه :

- كلا .. أنا أتيت لأري كيف حال صغيرتنا ؟!

فردت عليه أماني :

- صغيرتكم بخير يا كبيرنا !

فضحكت أمها وغادر مصطفي ، وذهب إلي بيت عمه .. ظل يطرق علي الباب طويلاً فازداد قلقاً علي قلقه حتي فتح له عمه ، فسأل عمه :

- كيف حالك يا عمي ؟! هل كل شيء بخير؟! و كيف هي هناء؟!

- بخير الحمد لله .. لماذا تأخرت ؟!

قال هذا و كانت تظهر عليه ملامح من الحزن ، و كأنه يكتم في نفسه شيئاً ، ولكن مصطفي لم يفهم علامَ تأخر ؟! فرد علي عمه بنبرة حيرة قائلاً :

- تأخرت علي ماذا يا عمي ؟!

- ألم تخبرك أختك أماني أني أريدك ؟!

- كلا .. هي لم تخبرني .

- هل اتصلت بك رضوي ؟! هل أخبرتها بما حدث لهناء ؟!
كان أبو رضوي يتحدث بنبرة عالية ، فشعر أنه كاد أن يفقد أعصابه ، لاحظ مصطفي أن هناك شيئاً ليس جيداً ، و لكنه ترك عقله و تفكيره ليُطمئِن عمه أنه لم يخبر رضوي شيء ، فظل أبيها يحمد الله و فجأة سمع زوجته تنادي عليه ، فهرع إليها فوجد ابنته تتشنج ، فلم يعرف الزوج ماذا حدث ؟! فظل يسأل زوجته ، و لكنها كانت لا تعرف ، فظلت تصرخ فنادي مصطفي علي عمه حتي يفهم ، فخرج له عمه بسرعة و أخبره أن يدير سيارته الآن ، و حمل هو هناء و رحل الجميع إلى المكان الذي عهدوه ، عهدوا ريحته ، ورواقه ، حتي همساته المزعجة ، بل المخيفة .. فكانت الأم تبكي منهارة علي ابنتها دون أن تنطق ، وتحرك رأسها بشدة ، وزوجها يبكي بجانب زوج ابنته الذي ذهب إلي حماته ؛ ليحاول تهدئتها و لكن عمه أوقفه ، فظلت زوجته هكذا حتي خرج الطبيب و طمأنهم ، فدخلت زوجته إلى ابنته ، وظل الأب واقفاً مكانه لا يحرك ساكناً سوى دموعه التي تسيل علي خده ، واقفاً بجانبه مصطفي ينظر له مُسائلاً نفسه .. كيف أنه واقفٌ دون أن يدخل لابنته هكذا ؟! متعجباً منه .. لماذا أوقفه عندما حاول تهدئة حماته ؟! ظل الزوج هكذا لمدة طويلة و كأنه لا يعي ما يحدث ، حتي خرجت زوجته فأمسكته من يده برفق ، فشدته ليدخل إلى ابنته .. كان الزوج يتحرك مع زوجته دون أن يهمس

، أو أن يوقف دموعه حتي أدخلته زوجته فلم يتحرك مصطفي ، يراقب من الخارج ، وبينما كان مصطفي متعجباً لم يلاحظ أن رضوي ترن عليه ، فقلقت عليه ولا تنفك ساعته تصدر الصوت الذي يشير إلى أن ضربات قلبه قد توقفت ، فظلت تبكي حتي توقفت الساعة بتلقاء نفسها ، عندها أيضاً لم تكن تفهم ماذا حدث ، فحادثت ندي صديقتها محاولة أن تخفف عن نفسها ، فأرسلت لها رسالة مكتوب فيها :

- كيف حالك يا صديقتي ؟!

فردت ندي في رسالة :

- حالي بخير الحمد لله .

فلم تُرِدْ رضوي أن تكمل المراسلة ، لأنها جافة من كل شيء ، فدخلت علي صفحتها لتطمئن عليها فوجدتها تنشر بوستاً ..

(أصبحت أعجز عن الرد أو حتي الصد ! أتظاهر أني صامتة و أنا أقود بداخلي مظاهرة .. أوزع منشورات علي أعضائي .. أحاول أن أقنع زعيم العصابة الذي كان نتيجة للكتمان - ألا وهو فكري - و لكن نائبه القلب يقف صامداً لا يهتز لأي من حواراتي مهما عظمت ، لا يتأثر لمناشدتي إياه أن يكف ، بل يعاندني و يدير لي ظهره .. فأضحيت أنا ضحية نفسي لكتمانها ، لصبرها علي أمور كانت يجب أن تنهيها في لمح البصر .. أضحي ما بداخلي يتبرأ مني ، فربما رآني برؤيا مختلفة عن التي أريها لنفسي ، فأضحي جافاً

حتى علي نفسه ، فلم أعد أتعرف علي نفسي ، بل بتُّ لا أجد وقتاً لأتعرف فيه عليها ، فطوال الوقت أنا مشفقة عليها بعد أن قست ، و ابتعدت .. هل يعرف أحد كيف ابتعدتُّ عنها ؟! كيف لم أشعر أني جعلتها تضجُّ من الألم دون أن أستشعر بها ...) .

رنت آلاء علي رضوي و لكنها لم ترد ، فقد أرهقها كلام ندي معنوياً بالحد الذي يكفي ليتداخل فكرها في بعض الكلمات ، فأكملت القراءة ..
(حقاً هل رحلت ؟! أم بات الجميع يبتعد بعد أن استنزفت ضحكتي و ابتسامتي ، حتي نظرتي .. فعندما كنت في حاجة لم أجد أحد حتي نفسي ، و لِمَ تبقى هي معي ؟! فمن غادرتها لأجله قد رحل ، و لم يبقى هو .. هل يعرف أحدكم طريق أحد؟! فعليَّ أن أخبره ان نفسي تعبت ، بل انتهت ، اكتفت حتى مني ، فكنت أنا الجانية لعدم إظهار اعتراضي على كلامك الزائف ، وودك المتصنع ، واهتمامك الخادع ، وكنت المجني عليها بكتماني .. فأين السبيل يا سندي لطريق يريح النفس مما هي فيه ؟! أما عن - أحد - الذي أنا أسأل عنه فإنه المعظم من الجميع ، نعم المعظم من الجميع في حياتي يتمثلون في شخص - أحد -) .
قرأت رضوي هذا الكلام و قد تذكرت كل ما فعلته معها .. لم تكن تعرف ماذا ألم بها ؟! لم تكن تعلم بمحنتها ، فهي كانت

تحسب كل تألمها هذا لفراقها و كانت جاهلة لما يحدث لها كل ليلة وهي في غرفتها ، عاجزةٌ حتى عن البكاء ، حتى آلت بها الحالة للاعتكاف على فراشها ، و كانت رغم حالتها تلك تسأل نفسها هل سيكشف الستار عما كتمته ؟! هل سيعم القهر على أهلي ؟! ألم يكن كافياً لقلبي مرارته التي تجرعها ليلحق بأهلي؟! هل هذا القهر ذئبٌ يصطاد مشاعري و متعة حياتي ؟! و لو صح هذا .. ألم ينجح ؟! فلماذا يستهدف أهلي الآن ؟! ما ذنبهم !! هل أنهم أنجبوني ؟! فكانت كل معلومات رضوي عن أهلها و صديقتها من باطن نفسها ، تحاول أن تقنع نفسها أن الجميع بخير ، إلا أن إحساسها كان مغايراً لما تجاهد به نفسها أنهم بخير ، فكانت تشعر أن مكروهاً قد حدث ، و بالفعل قد حدث مكروهاً لذاك الشاب الواقف أمام عنبر ، أختها دون أن يفهم حالة أبيها الصامت ، ودموعه تأبى الصمت .. وظل هكذا حتى أتى الطبيب ، و طلب أبيها فذهب هو مع الطبيب ؛ لأن عمه كان فاقداً القدرة لاستيعاب ما يحدث حوله ، فأخبر مصطفى الطبيب أنه أخوها ، فسأله الطبيب أسئلةً لم يعرف إجابتها ، بل ظل متسمراً مكانه ، وملامح الدهشة على وجهه حتى فهم الطبيب أنه ليس ، أخوها فسأله مستنكراً :

- هل أنت أخوها حقاً ؟!

ظل مصطفي ينظر للطبيب و لا يتكلم ، فهو لم يفق مما حدث

لأخته مع أميمة ، وما حدث لأميمة مع أختها ، و ما فعله هو مع نور الهدي ، و ما حدث مع عمه منذ لحظات ، ليأتي الطبيب و يكمل عليه بأسئلة لا يعرف مصدرها ! كان مصطفي متمسك بحزنه حتي شعر بهاتفه ، فأخرجه و رد عليه قائلاً :

- أرجوكم كفاكم !! لكل منا طاقة تحمل ، و طاقتي لا أعلم أين ذهبت !! هل انهارت أم فرت مني ، خوفاً من ضياعها ؟! عفواً ، لقد تعب عقلي و لم يعد فيه من القوة ليكمل هذه المهزلة ، فهل أريتموني طريق الخروج من هذه المتاهة التي لا أعلم متي دخلتها أو حتي كيف ؟! هل كنت فاقداً الوعي حينها ، أم كنت مستيقظ و لكني غير مدرك ؟! هل أنا من دخلت وحدي ، أم كان معي الكثيرون ؟! و هل نجى أحد من هؤلاء الكثيرون ، أم أن الأمر كله ينتهي بهذا الجنون ؟!

و أنا المتبقي الوحيد في هذه الطاحونة وحدي .. أبعدوني عنكم فإني أعلن أن جوانب السلام داخلي لم يعد لها وجود .. قد غادرتني كما غادرتني أنا خاصتي ، صديقي الذي كنت أعرفه فبت أجهلني ! أنا أقسم برب من خلق السماء أني لا أعرف في أي بقعة أنا الآن !! فهلّا صمتم و رحلتم ؛ لأنه لم يعد عندي صمود !

خارت دموعي كالسيول .. خارت قواي ، وما عدت أحتمل المكتوب! من أين لكم بهذا الجبروت ؟!

ولماذا لا تبتعدوا و ترحلوا في هدوء ؟! فلست منكم ولا أشبهكم

، كفاكم عني و كفاني عنكم ، و كفاني الله شر أنفسكم .
إني أعلمك أني لن أتحمل خسارتها ، فابتعدي عنها و حاولي مع أخري .. أليس هناك أخريات كثر لم يجهدوا منها ؟! أقسم بربي أنها في البيت علي حافة الجنون فتلطفوا بها !
خرج مصطفى من عند الطبيب بعد أن استأذنه و ذهب لعمه ، و لكن مصطفي لم يرى اتصالات زوجته التي تمشي الآن مع صديقتها لتتعرف علي الأماكن التي ستشتري منها مستلزماتها .
. كانت آلاء تصف لرضوي بهدوء حتي بدأت رضوي تفصح عن الكلام الذي أرَّقها طيلةَ الليلِ قائلةً :
- آلاء ! أنتِ قلتِ لي أنه كان هناك قبلي الكثير في هذه الغرفة فأين ذهبوا ؟! و كيف و أنا عرفت أن فيهم اثنتين تفوقوا طيلة عام ونصف ، حتي أن الجامعة كرمتهم ؟! ألم تفكري لماذا رحلوا؟!
كفانا حديثٌ عن هذا .. لقد دار حديثٌ بيني و بين زوجي البارحة ، و لامني لأني أخبرتك ، قال لي :
- أنت هكذا تشتتينها و تخوفينها وهي وحيدة هنا ، والخوف قادر علي أن يقتل صاحبه من هدوئه ، فيسلب منه سلامه الداخلي فيتركه و كأنه مُعرى من السكينة و الرخاء .. غارق في انهيار عصبي ، و في النهاية قد يكون هذا الخوف وهماً ، فإن الغربة تمتاز بهذا !
ولكنها أرادت أن تخبر رضوي الحقيقة كاملةً ، فقالت :

- هؤلاء الفتيات رجعن إلي أهلهن غير محققين أي شيء سوى الموت ، هن لم يعلنوا أي شيء سوي الانتحار .. انتحار حلمهم و رغبتهم في النجاح ، تركن التفوق لشيء لا نعرفه نحن .
كانت تستمع لها بحرص حتي صرخت ، ووقعت فالتف الناس حولها ، فأخذتها في عربتها إلي بيتها ، فبعد أن أفاقت رضوي وجدت نفسها في بيت كبير جداً ، كأنه قصر ! لم تكن واعية بالكامل بعد ، فحاولت أن تقف فوقعت علي الأرض .
سمع الخدم الصوت فأسرعوا إليها ، فوجدوها علي الأرض طريحة فرفعوها ، و ذهبوا ليخبروا آلاء فأتت بسرعة ، و ظلت بجانبها حتي استيقظت ، وعندما فتحت عينيها وجدت آلاء بجانبها ، فحاولت أن تسألها أين هي ، ولكنها كانت تعبةً مرهقةً ، غيرَ قادرةٍ علي التكلم ، فقالت آلاء :
- رضوي ! هذا بيتي و أنتِ هنا منذ عشرة أيام ، قال لي الطبيب أنكِ تعرضتِ لصدمة كبيرة ، و بحاجة للراحة و الهدوء .
نظرت رضوي لآلاء دون أن تفهم شيء مما قالته ، وغرقت في النوم دون أن تدري بشيء ، وكانت حالتها مثل حالة أختها هناء التي لا تدري بما حدث لأميمة ، فهي ما زالت غير قادرة علي الحركة ، بل علي أن تشعر بما يحدث لها و لكنها كانت تتحسن يوم بعد يوم ، وكذلك رضوي فظلتا مغمضتين عينهما عن الدنيا لمدة أسبوع آخر ، لتستيقظ رضوي و تجد نفسها في غرفة كبيرة

و أثاث فخم ، وبجانبها ممرضة ، فما إن تحدثت حتي أخبرتها المريضة أنه عليها أن تستريح و لا ترهق نفسها أبداً ، واتصلت بسيدتها فأتت ، فسلمت علي رضوي ، وسألتها عن حالتها الآن ، فردت :

- آلاء .. أين أنا ؟!

- أنتِ في بيتي ، كنتِ تعبة و مرهقة و تحتاجين للرعاية ، وأنت هنا منذ أكثر من ستة عشر يوماً .. سأخبرك بالباقي و ما حدث ، ولكن إهدأي قليلاً !

فهمست رضوي :

- مصطفي ؟!

قالتها بعفوية ، و تلقائية ، على غير دراية ، و كأن صوت قلبها هو من كان يتكلم ، فسألتها علي استحياء :

- هل اتصل بي مصطفي ؟!

- نعم ، وهو يعرف الآن أنك صحوت و بخير ، هو كان يكلمك وكان قلقاً حقاً ، وكأنه يشعر أنكِ لستِ بخير !

استغربت من كلام آلاء ؛ حيث كانت نبرتها غير مطمئنة ، و ظنت أن هناك شيء قد حدث له ، وكان معها حق فهو حزن عندما أخبره الطبيب بحالة هناء ، فحاول مجاهداً أن يُصمت فكره عن كيف وصلت هناء لحالتها تلك ! حتي فرغ من مجاهدته تلك لنفسه ، فذهب إلى عمه بعد أن تحسن عمه قليلاً ، و فرغ من

بكائه الذي دام لأيام متواصلة ، حتي أن الطبيب لم يستطع أن يسأله ، فانتظر مصطفي حتي هدأ من حالته الباكية ، و سأله قائلاً :

- عمي ! أعرف أن هذا ليس الوقت المناسب ، و لكن ماذا حدث لهناء و هي صغيرة ؟! لأن الطبيب يريد أن يعرف !

نظر عمه إليه قائلاً :

- نحن يا ولدي كنا نحاول جاهدين أن ندفن الماضي ، فدفناه حقاً ، و لكن في أنفسنا ظللنا نحفر له ، ونحفر حتي مهدنا له كل العوائق ، زللنا له ما قد يعيقه من ذكريات حلوة قد تكون السد أمامه ، أو حتي تحجبه عنا قليلاً فحفرنا له عميقاً ووطدنا له أعمدة ، وأساس ثابت ؛ ليقف عليه فكان صلباً كاسراً لقلوبنا ، و لكن لأكون واقعياً .. كيف ندفنه خارجنا و هناء هكذا دائماً؟! لا تسمح لنا حتي أن نتناسى ما يؤلمنا ، بل تأتي لتلهب ما كنا نعتقد أننا نجحنا في أن نضمده ، ولو قليلاً ، و لكن كلا .. بعض الذكريات تأتي كما تأتي الرياح العاتية فتنسف صاحبها نسفاً ، يكون أشد عليه من أن يُرشَّق بالخناجر تأتي لتغرقه في محيط من الحزن اللانهاية له ، ليجد نفسه غارقاً في ركن ذكرياته ، ولا يعرف كيف ينجو منه !! و علي الرغم من هذا لا يمكننا أن نخبرها أنه يجب عليها أن تهدأ ، و لا تفكر ، أو ترهق نفسها .. كيف لي أن أطلب من ابنتي أن تكف عن حياتها ، لتعيش في هدوء ، معتزلة؛

لتضمن سلامتها !! فأي سلامة هذه ؟! إنها لن تكن إلا سلامة البؤس ، حتي البائس يا بني لديه أمل أن يتغلب علي ما بداخله في وقت ما ، و لكن هذا حتي لا يمكن لابنتي أن تملكه ، فأنا قررت أن أتركها تعيش حياتها حتي إن كنت سأمتنع عن راحتي في بعض الأوقات ، ولا أنكر أني أحكم عليها في كثير من الأمور ، و لكن لا يمكنني أن أجعلها أن تكف عن سعادتها و فرحتها و بهجتها .. أن تمتنع عن الحياة !

ما كاد الزوج يكمل كلامه ، حتي أتت إليه ممرضة تخبره أن الطبيب يريده ، فأسرع الزوج إلي الطبيب تاركاً مصطفي وراءه ، حائراً سائلاً نفسه عن الماضي الذي يحكي عنه عمه ، و لكن لم تكتفي الأمور بهذا الحد ، بل كان إغماء رضوي لمدة عشرة أيام صفعة من كل الآلام النفسية و الجسدية التي تزيد من وجعه ، و تشغل فكره ، فكانت بمثابة شرارة العجز الثانية له بعد حادثة أمه ، فظل متكتماً علي الموضوع ، فلم يخبر أحداً ، فكان يذهب إلي أمه في المشفى في الصباح ، وإلي عمه في الظهيرة ، ولا يتكلم ، داعياً الله لها ، إلي أن أتت له الصفعة الثانية ، فكانت السبب في تحوله و خروجه عن طور صمته ، وخصوصاً بعدما أخبره عمه بما حدث لندي ، و ظل عمه حزيناً علي هذه الطفلة التي كانت في مقتبل العمر ، وحدث معها كل هذا ، ولكن هذا الأب لم يكن يعرف حال ابنته رضوي ، أو ما تخبئه زوجته عنه .. فأشفق

مصطفي علي عمه و ظل يردد في سره - ليتك تعلم يا عمي حال ابنتك ، حينها ما كنت ستظل واقفاً علي قدميك .. ليتك تعلم حال أميمة ، أو خالها و أختها .. ليت إحساسك يُبصر أختي فتنصحني ماذا أفعل لها ؟! لكي أخفف عنها و تنصحني كيف لي أن أصحح خطأي ؟! فالظلم ظلمات يوم القيامة .. ليت نفسي تدرك أي شيء مما يدور حولها ، ثم إني بعد كل هذا يتوجب علي أن أقف صامداً صلباً ، أرى نفسي بداخلها و خارجي واقف كأنه غريب عنها ، لا يمكنه أن يشفق عليها فتصيبه بجزء من ... لا أعرف ماذا أسميه ؟! ما عكس كلمة الصلب في موقعها هذا ، بل ما موقعي أنا في حياتي هذه ؟! أوَليست هي حياتي ؟! فأين ملامحها التي معلوماتي عنها لا تتجاوز معرفتي لملامح الماضي الذي أخبرتني أنه هناء !! والذي تردده لي ابنتك في كل اتصال و يكون سبب بؤسها و حزنها ، فإذا حزنت من ندي تذكرت الماضي في كلامها و إذا حزنت علي ندي تذكرته ، وإذا حزنت علي أنها فارقتكم تذكرته ، و يكأنه الحزن الخفي في حياتها ، الذي يهيج في كل مرة تحزن فيها ، وكأنه يريد أن يكون الحزن الوحيد .. الشيء المتفرد بحياتها ، حتي متفرد بها منها ! -

فنظر مصطفي إلي السماء ، و قال مناجياً ربه :

- يا ربي أنت أقرب إلي من نفسي ، فهون علي نفسي و ارحمنى من شر تفكيري ، فإني أنهكت !! -

كان يناجي ربه من أجل أخته ، و رضوي تناجي ربها من أن تخرج من هذا البيت قبل أن تجن ، و لكنها لا تعرف كيف ؟! فهي لم تكن تستيقظ سوى عدة دقائق معدودة فقط ، ترى فيهم ما لا يمكن أن تتخيله ، و تنام و هي مقتنعة أن ما تراه ليس خيال واهم !! فقررت ألا تشرب العلاج و أن تصر علي آلاء لتذهب إلي غرفتها ، فظلت تصر عليها حتي نفذت لها طلبها فذهبت رضوي لتعيش يوماً لا تعلم له ، ملامح فليتها ظلت عند آلاء ، و لكن لم يكن يوماً واحداً ، بل توالت الأيام يوماً بعد يوم حتي استيقظت في يوم تشعر فيه بالراحة ، فأخبرتها الممرضة التي أرسلتها آلاء إليها أن الطبيب أعطي أمراً بأن نوقف العلاج؛ لأن جرعتها من الأدوية انتهت ، وأتي دور العلاج الذهني و النفسي ، وهي لا تدري بأي شيء بل كانت هي حزينة ؛ لأن مصطفي لم يسأل عليها في هذه الأيام سوى يوم واحد ، فكانت تبكي وحيدةً وحاولت أن تراسل صديقتها ندي التي تتزايد عليها الأوهام ، و يزداد عجزها وعجز أهلها ، و لكنها لم ترد عليها ، و ما زاد من بكاءها أنه قبل أن تغادر الممرضة أخبرتها بكلام لم تفهمه فظلت تبكي ، ثم فتحت لابها و هي تفكر في كلام الممرضة و لا تفهم شيئاً ، بل ظلت ممسكة برأسها حتي صدمت بخبر موت صديقتها !! تلك الصديقة الرحيمة الهادئة الجميلة ، التي تعد أيقونة للوفاء و الهدوء ، التي كانت تسترسل في حديثها معها في

الفترة الماضية ؛ لأنها كانت تعرف أن بها مكروه ما ، فكانت آخر رسالة أرسلتها رضوي إليها محاولة منها أن تعرف ما بها ، تخبرها فيها عن فرحتها ؛ لأن أختها هناء أرسلت لها هذه الرسالة ..- كلما ترهقك الحياة تعالي و اتكأي عليَّ يا صديقتي ، ولا تلومي نفسك أبداً ، بل لُمني أنا فهذا أهون عليَّ فإن نفسك مرهقة أكثر منك فلوميِن أنا لأني لم أكن موجودة .. لوميني أنا لأني تركتك تتألمي دون أن أطرق علي باب قلبك فأرفق به ، أو حتي باب عقلك لأخفف من حدة تفكيرك التي تهيئك و ببرودة تامة إلي الانعزال عن الناس ، واعتزال الحياة كلها ، حتي عن حلمك و دفتر أمنياتك .. لوميِن أني عجزت عن فهم ملامحك .. فكفاك ما أنت فيه ، وأنا أعتذر عن غيابي .. أعتذر عن أني لم أكن أفهمك في كل مرة جئتِ لتطرقي فيها بابي ، و لكنكِ كنتِ تستحيين أن تتكلمي لألَّا تحزنيني ، أو ربما لم أكن موجودة بذهني معك فبت أجهل خارجك و باطنك ، حتي إني ظننت أني أجهلك تماماً إلي أن رأيت دموعك تلمع في عينيك و كأنها تلخص كل ما آذاك في كلمة واحدة ألا و هي ..- لماذا لم تشعر بي يا صديقي ، ألا تحتضنني كما يحتضن الزمان المرء ليعلمه ، كما تحتضن الثقة الصبر فتعززه ، ألا تحتضنني تحت أي مسمي ، سواء صديق كنت أو غريب - .. فلم أعِ بنفسي إلا وأنا مرمي في حضنك يا صديقي وليس العكس ، فأنا في هذه اللحظة كنت ألتهب لكل لحظاتك الماضية ، كنت أحترق

لكل دموعك المسجونة بين جفون عينيك ، كنت ألوذ بالفرار من نفسك الباكية المعاتبة ، فلم أشعر سوي و أنا بداخلك و كأن كلي أختلط ببعضك .. فأنا أعتذر ! أعتذر كوني كنت صغيرتك دائماً ، ولم أجعلك في يوم صغيرتي ! أعتذر أني قلت لك كل ما كان يؤلمني في وقت كنتِ أنت تحترقي فيه في صمت ! أعتذر عن بكائك بين ضحكاتك الخادعة التي تبتدعيها لكِ ، تبكي في ثناياها ، فعندما أسألك عن سر بكائك تقولين لي أنه من كثرة الضحك ! أعتذر عن كوني كنت أنا في فترة أمثل لكِ مقولتي الدائمة - ثم إنك يا صديقي ركني الحزين المشوه بذكريات الماضي ، الكئيب الملطخ بأحلام الطفولة اللامتناهية التي غابت عن سمائي لتحتل سماء ملامح فكرك وعقلك ، فأتوه بين ثنايا وجهك الذي يذكرني بكم كنت بريئاً طيباً ، وكم أضحيت حزيناً باكياً -

فأنا أعتذر علي هذه المقولة التي فيها خيبت ظن نفسي ، فكنت أقصد بالصديق أنا و ليس أنت ! أعتذر عن أني أراكِ تبكين بعد كلامي و تنظرين لعيوني و كأنك تبحثين فيهما .. من أين عرفت هذا الكلام ؟!

ثم أعتذر اعتذارا خاصاً لقلبك عندما كتبت لكِ علي ورقة كلام منك إليك محاولة مني لاستنباط ما بداخلك ، فأتكلم علي لسان داخلك فكتبت فيها :

- ربما أكثر ما ستتوجعين منه يا ابنتي هو الصمت ، عندما يكون

لديك ملايين الكلمات ، عندما يكون بداخلك أوجاع تقتلك فتكتميها لأنك في نفس الوقت الذي يملك عقلك فيه ملايين الكلمات يتملك قلبك جملة .. فما خفى كان أعظم .. تتملك مشاعرك التقدير فتتغلب تلك الكليمات علي ملايين الأحاسيس ، علي ملايين الدموع فتصمتي جبراً للخاطر ، جبراً لخاطر حلمك الذي تسعين إليه ، جبراً لذلك الصمود الذي هو سد منيع أمام العجز ، الذي في بعض الأحيان قد نتصنعه نحن فنسميه عجزاً بشرياً واهماً ؛ جبرا لشغف بسيط بداخلك ، جبراً لهدف يمثل جزء منك .. جزء لا يتجزأ من واقعك أو خيالك .. عذراً لأني كنت أنا الصغرى وأنت الكبرى .. عذراً لشعوري ذاك الذي كنت أتمني فيه أن أقول لكِ لا أمانع أن أكون شماعتك التي تعلقي عليها الحزن يا صديقتي .. ليس عندي اعتراض أن تضحكي أمام الجميع ، و تأتي عندي و تعددي لي همومك ، و لكني أقسم لك أنك حملتيني أمانة ، ووضعتيني في مكانة ما كنت أحلم بها .. أن أكون صديقتك التي تأتمنيها علي سرك ، التي لا تتصنعي أمامها ابتسامات زائفة لتخفي الشوك الذي يملأ قلبك ، بل إني فخورة بكوني جزء منك ، بكوني أنا أول من يتلمس ضحكك الحقيقي ، بكوني أني من تركت علي قلبك جبلاً من الثلج والسلام ؛ ليزيح تل مشاكلك فتترأس علي جبينك علامات من الفرح و الارتياح .. جعلتيني أخت لك فكنت واقعي و خيالي ، فدمتِ لي أختاً وسنداً

.. دمتِ لي بأفضل حال . -

فبعد أن أنهت رضوي كلام أختها هناء ، قالت لصديقتها :

- عذراً لكلامي السابق إذا جعلك تبكين !

كان رد صديقتها عليها أن قالت :

- أدامها الله في حياتك زهرةً متلألأةً مخففةً عنك آلامك .

فأرسلت لها رضوي :

- ثم إني يا صديقي أحاول بكل جوانحي أن استطرد معك الحديث في اتجاهات شتى ، محاولةً مني أن أتلمس ما تخفيه عني من ألم و من حزن ، و لكن أرجع كل مرة خاوية الوفاض دون أن أخفف عنك .. فماذا بك يا صديقي ؟!

فردت عليها صديقتها :

- كيف ترجعين خاوية الوفاض وأنت الوفاض كله !! صديقتك بخير فقط تشتاق إليك يا ملجأ الفرح ، كما أني أعرف أن هناء لم تكتب لكِ الرسالة ، بل أنت من ابتدعتيها من أجلي ، فهل يمكنني أن أحزن ؟! أليس وجود شخص مثلك في حياتي كفيل ليريح النفس؟! فنحن لا نجد من يحبنا لهذه الدرجة ، فللحب خانات عدة و خانتك أنت يا صديقتي تضمنهم جميعهم !

الفصل السابع :-

- الصبْرُ -

ظلت رضوي تتذكر رد صديقتها التي أضحت هي تعيشه الآن ، حتي اتصل بها مصطفي و ظلت تتكلم و تبكي ، و كان يستمع لها متعجباً مما تقوله ، بل مصدوماً و لكن لم يكن مصدوماً من كلامها فقط ، بل شعر بشيءٍ غريبٍ فيها في نبرة صوتها ، شعر بخوف يصرخ بين حروف كلماتها ، إحساس بالرعب ، و لكن إذا لم توصف الغربة بأنها رعب ، فبماذا ستوصف ؟!

لم يكن يفهم أي شيء حتي أغلقت ، وهي في بداية كلامها لم تطلب منه غير أن يسمعها فقط ، ولكنه كان يبحث عن العشرة أيام التي تتحدث عنهم ، فإنه كان يحدثها منذ نصف ساعة وتركها باسمةً بعد أن طمأنته الممرضة ، فكيف تعاتبه أنه لم يتصل بها منذ هذه المدة ؟! ولكنه ما إن حاول أن يتكلم طلبت منه أن يؤجل كلامه مبررةً هذا بموت صديقتها فأضحي مشتتاً بين الجميع .. أضحت نفسه تهيم في كل ما يحيره .. تتنقل بين حيرته طارقة كل جزء من عقله ليفكر فيما سيفعله ، وكأنها لا تريد له أن يستريح فتارةً يقول سأذهب لأخبر أختي الحقيقة التي أجبرته أمه والظروف علي كتمها ، وتارةً يقول سأذهب لهناء و أقنع عمي أن تساعده ، لا من أجل أحد سوى من أجل نفسه ،

ولكن عمه كان مصرّاً علي رأيه في كل مرة ، حتي خرجت زوجته لمصطفي قائلةً بنبرة حادة تنم عن الغضب :

- مصطفي ! كفاك كلاماً عن هذا .. حسناً ، لقد اكتفيت ! ألم تري هناء كيف كانت حالتها آخر مرة ؟! ألا يكفيك أني سمحت لها أن تذهب معك ؟! وعندما رجعت ازدادت حالتها سوءاً إلي هذا القدر .. ويكفي .. يكفي بكاءاً إلي هنا يا مصطفي .. عليك أن تتفهم هذا جيداً أول مرة أرسلناها من أجل أختها ، و ثاني مرة من أجل من ؟! أخبرني ! اسمع يا مصطفي ! هناء بها ما يكفيها لنهاية عمرها ، فكفاها هذا !

قالت الأم هذا الكلام بنبرة غضب ، و لكن بهدوء و كأنها تحفر بداخلها لتستخرج و تستمد منه القوة ، لتعلمه برفضها التام ، بأنها اكتفت من تصرفاته و تصرفات أخته ، بل و تصرفات ابنتها ، اكتفت أن تكون المتحاملة دائماً دون أن تفسر لابنتها شيء ، اكتفت من كتمان شعورها مما تخفيه عن زوجها ، اكتفت أن تكون هي كارثة حياتها ، أو أن تكون هي أول شخص يعلم بها ليحملها فيخبر بها الآخرين ، ولكن الأمر هذه المرة كان صعباً عليها ، فهو كان مختلفا بطريقة تشبه ماضيها ، وكأن نكهة الماضي ذاك الضيف المقيم في بيتها يجدد ثيابه فيأتي إليها بملابس جديدة ، فتتهيأ المصائب ليجن عقلها .. نست الزوجة كل شيء إلا تفكيرها هذا ، فهربت من أمام زوجها التي تتمني أن تخبره ، و لكنها لا

تعرف ماذا تقول له ؟! بل ماذا تخبر ذاك الشاب الصغير أمامها وهي تري ملامحه تعبر عما مر به حتي أثقل جبينه ، فتجعد بل و أخذ حزنه يتشكل بين ثنايا فكره و نبرة صوته ، فدخلت الزوجة غرفتها و حاولت أن تُكفِّر عن تفكيرها هذا فرفعت يديها للسماء قائلةً :

- رباه !! أنت تعلم بي .. تعلم بحالي .. فعندي واحدة ملقاة علي السرير و أخري لا يدري بها إلا أنت يا ربي ! إذا كان مقدَّر لي أن أري أبنائي كلهم يموتون أمام عيني ، فلا تجعلهم يتألمون و يعانون مثلي يا ربي ! ما عدت أحتمل الوقوف ، وما عدت أحتمل الكتمان ، فإلهم قلب زوجي الهدوء !

و ظلت تدعي لابنتيها ألا يحصل معهما شيء ، وأن يكون ما بداخلها كذب .. ما كانت تعلم الزوجة حالة ابنتها التي تبكي الآن في قسم الشرطة ، ولا تعرف كيف حدث لها هذا ؟! فظلت تبكي فكلمت آلاء التي اتصلت بشخص فاشتاط غضباً وظل يفكر ماذا سيفعل الآن ؟! فهو لم يكن يعرف أن هذا سيحدث .. ظل يفكر كيف سيخرجها بدون أن يحدث ما يخافه فاتصل بمعارفه ، وعرف كل شيء و لكن لم يستطع أحد أن يخرجها حتي أخبره أحدهم بفكرة ، وبالفعل قد نجحت فخرجت بعد يومين من السجن ، ولكنها لم تذهب للبيت ولم يكن معها هاتفها ولا أي من ممتلكاتها .. لم تكن ترى شيئاً سوى تلك الهاوية التي حدثها عنها

زوجها ، و لكن أين أباها لينقذها ؟! فشعرت باليُتم متذكرة كلام والدتها عن المكتسبات الكاذبة ، محاولة أن تري أين المكسب في غربتها تلك سوى أن قلبها لم يعد يستطيع أن يتواصل مع عقلها ، ولا مع أعصابها فكان قلبها يغزوه الخوف ، عدم الارتياح وعقلها لم يكن يتذكر كيف وصل لهنا ؟! فكانت أعصابها منهارة ، تعادل أعصاب أم ندي بعد أن عرفت بما حدث لابنتها ، وهي منهارة منذ سمعت الطبيب و لم تعرف ماذا تفعل ؟! هل تدخل لابنتها التي ليس لها ذنب فيما فعلته ؟! ولكن أمها لم تكن تتقبل فكرة أن ابنتها أخفت عنها ، ولكنه لم يكن حزنها الحقيقي لكتمان ابنتها ، بل لقلة حيلتها ! ماذا ستفعل ؟! و كيف ستخرج بابنتها أمام الناس دون أن تتأذي مشاعر صغيرتها التي تحملت وأخفت من أجلها ؟! فشعرت الأم أنه قد أتي دورها لتحمل العبء مع ابنتها ، وتحميها من نظرات الناس المؤذية الممتلئة بكلمات قد لا يجرؤ لسانهم علي نطقها ، فأخبرها الطبيب أنه يجب أن تجلس طوال الشهر في المشفى فظلت الأم تبكي لا تعلم ماذل ستخبر الناس ؟! و هل سيصدقونها و سيتعاملون معها ؟! فهي لم تنسَ ملامح الناس لابنتها طوال الطريق للمشفى ، فذهبت لتحاول أن تفهم من الطبيب ، ولكنها لم تفهم شيئاً ، فكلامه كان أكبر من أن تتفهمه دموعها التي تنزل علي خديها .. كان أثقل علي قلبها أن تستوعبه .. كان عقلها غير متقبل أن يفهم ما يقوله ، بل غير

متقبل لسماعه ، فذهبت إلي ابنتها وسألتها :
- لماذا أخفيتي عني ؟
و لكن ابنتها لم ترد عليها ، بل ظلت صامتة تنظر لها و كأنها تراقب إلي أي مدي تمكن منها الفزع .. إلي أي مدي وصلت روحها من الضيق .. هل قطعت طريق البكاء كله التي حاولت جاهدة تأجيله ، أم ما زالت في منتصفه ، أم أنه لن يكون له نهاية ؟! هل واقفة عند الحد الذي لا تفهم فيه كيف وصلت ابنتها إلي هنا ؟! كيف أنها تركت لها حريتها الكاملة في حياتها حتي جعلت لها عالم آخر تخفيه عن أمها ؟! هل ما زالت تلوم نفسها علي ما هي فيه الآن ؟!
كانت كل هذا يدور في عقل ندي و هي تري أمها و لكن كيف كانت ستقول لها ؟! من أين كانت ستأتي بصمود أمامها ؟! كيف تخبرها أنها رأت أن الحل الوحيد حينها هو الصمت ؟! الصمت الذي فج في نظرات الناس إليها اليوم .. الصمت الذي كانت تخبئه تحت ملابس فضفاضة تلبسها ؛ لعل هذه الملابس تداريه أو تطيله ، فهي كانت تعرف أن كل شيء سينكشف ، ولكنها لم تكن تعرف كيف ستواجه النظرات ، فإن خَرِصت الألسنة فإن النظرات ستبوح بكل شيء ، ستتكلم عما يخالج أصحابها في صدورهم ، وهي لم تكن تريد أن تعيش أمها في هم ليتزايد و يتكاثر .. حاولت أن تفعل كل شيء ممكن و لكنها فشلت في هذا ، فكان

ابتلاء من عند الله عليها أن تتقبله ، بل و تتقبل أيضاً اعتراض الناس في نظراتهم و تصرفاتهم ، فكانت تحاول أن تتحمل قدر ما تستطيع ، حتي عندما تسقطِ السقطة الكاشفة و يُعلَن عما تحت الغطاء ، تكون قد كسبت من المرِّ ما يجعلها تتأقلم مع قساوة و كلام الناس ، بل و خوفهم علي أولادهم منها .. كانت تجلس محاوطة نفسها علّ الجاذبية تأخذ بثأر تلك الدموع المأسورة من عينيها فتهزم تلك القوة و الجبروت الذي بها ، متعجبة من أين لعينيها كل هذا الجبروت والصمود الفريد اللا مثيل له ؟! من أين تستمده وقد أستسلم كل جزء منها ؟! كل أشلائها قد تركت بقاع المعركة و تقهقرت إلي بقعة واحدة ؟! هل كانت مظلمة أمام فكرها و مضيئة أمام عينيها ؟، أم هل انفصلت عينيها عنها فلم تعد تدري بواقعها فتخالفت مع فكرها المُضعف لأي قوة ؟! أم أن الله يعلمها الصبر بما يتلاءم مع طبيعتها ؟! فكانت تقول في دعائها ..- رحماك يا سندي - ، حتي بدأت تردد في خاطرها متخيلة أنها تحادث أمها .. - رحماك يا أرحم الراحمين .. يا عليم- قد تركت كل ما آلمني يا أمي إلا رؤيتك متألمة لي ، لقد عشت في هذا المستقبل فالحزن ماضيه و حاضره تاريخه و دستوره واحدة لا تتغير قيوده ، ألا و هي العزلة و الكتمان .. أنا آسفة يا أمي لا أستطيع أن أقول لكِ أي شيء ! بل إن الطبيب سيخبرك و سأحكم عليكِ أنا بالجور ، بأن تواجهي كل هذا وحدك ، تواجهي الناس

وتواجهي أبي وحدك ، أعانك الله يا أمي .

ذهبت الأم إلي بيتها تبكي ، و كانت رضوي لا زالت هي أيضاً تبكي ، لا تعرف أين هي ! ليس معها هاتف تتصل بأحد ، فظلت تفكر في زوجها .. ذلك الزوج المشرد ليس في الحياة بل منها ، تائه أو يُجِدُّ في التوهان من نفسه عله يستريح ، فهل يخالف أمه و يخبر أخته بالحقيقة ؟! أم يتركها و شأنها كما قال الطبيب له ، وزوجته التي انتكست ! هكذا أخبرته آلاء ، لم تخبره أنها سجنت ، وأنها الآن في مكان مخيف ، يصرع الشخص ، يفقده توازنه لا إرادياً ، وخصوصاً مع أمثال رضوي ، ولكن كانت هناك من تساعدها و تدعي سليمي ، فهي قد مكثت فيه من قبل فكانت تعتصر فيه من الخوف ، كادت علي شفا حفرة أن تشبه الباقي ، و لكن الله نجاها .. كانت تساعدها و تبكي علي سُلْيم ، وكان مصطفي بداخله ما يكفيه ليضج لما يحدث له ، فهو يقف بين باب أخته و باب أمه خائف أن يدخل لأخته فيخبرها بدون قصد ، و لا يقبل أن يدخل إلي أمه فتستشعر منه سوءاً فتحزن عليه ، فظل حائراً ، فهو بإمكانه إسعاد إنسان بل إرجاعه للحياة مرة أخري و إرجاع البهجة لتصل لقلب أخته مرة أخري ، و لكن هيهات فحقاً لقد تعب كونه الأكبر ، بل كونه الرجل الوحيد في هذه العائلة ، وصل لمرحلة من الإرهاق استنفذ فيها كل قوته .. شعر فيها بضعفه وقلة حيلته ، حتي أنه إذا سند مشاعره تلك علي نفسه لخرت

واقعة علي الأرض ، ولكن هل يدري كله أنه واقع علي الأرض ؟! أنه لم يعد لديه تلك الاستماتة علي الصمود ؟! حتي بات عاجزاً أن يتكلم ، رافضاً بكل ما لديه من قيم و مبادئ الصمت ، فيترك تعابير وجهه المنهكة تعبر أن به شيء ؛ لعل أمه تتنازل عن إصرارها عليه ، ليكتم الموضوع عن أخته .

كان يحاول أن يتفهم موقف أمه فهو يشعر أنه بهذا الشكل يجور علي الإنسان الذي بداخله ، فهو متيقن أن الموضوع كله يمكن أن يحل إذا جلس مع أخته ، و لكن كان عليه الخضوع لقرار أمه دون مناهدتها ليظل يناهد كله المنهك طيلةَ الليل ، حتي يكون النوم طوق الرحمة من عند الله له .

ولكن سليمي لم تستسلم لذكراها ، فجاهدت لتساعد تلك المسكينة ، فذهبت إلي غرفتها و هنا قررت أن تترك رضوي و شأنها في الحين الذي كانت تود فيه أم رضوي أن تسمع صوت ابنتها ، و تقرر للمرة الرابعة أنها ستخبر زوجها ، و لكن يستوقفها كيف تخبر ذاك الذي أرهق و أتعب في صمت و لم ينطق ببنت شفة ، بل فضَّل أن يراعيها ، يهتم بها .. كان يستغل كل يوم قسطا من صبره من أجلها من أجل أن يراها أفضل ، الذي كان دائماً يرد علي سؤال عقلها الذي لم ينطق به لسانها قط حينما كان يتردد علي عقلها سؤال (كيف لإنسان أن يحتمل كل هذا ؟!) ليأتي هو و يحتويها بنظراته ، بدموعه التي تسيل علي المخدة ساهرةً

معها أثناء انتكاستها ، و لكن لم تكن تتخيل أن زوجها به من القوة ما يخوله أن يصمد ، فقررت أن تكلم مصطفي و تحكي له ، فبعد أن خرج زوجها طلبت من هناء ابنتها أن تأتي لها بهاتف من السنترال ، ورنت عليه ، و لكنه لم يُرِدْ أنْ يردَّ ، فماذا إذا سألته علي ابنتها التي لم يسمع صوتها فيما أكثر من أربعة أيام ؟! حيث كانت آلاء تخبره أنها مرهقة ولا تستطع التحدث ، فيزداد قلقه ، وكان محق ؛ حيث أن ابنتها درة عينها الآن في ذاك المكان ، حتي أعطوها ورقة فكتبت ما طلبوه منها ، ودخلت إليها طبيبة ! هكذا أخبروها .. كانت مترددة من أن تسأل رضوي وهي بهذه الحالة ، فقالت لها :

- أنا فهمت من الورقة التي كتبتيها أنك أتيت هنا من أجل المنحة ، ولكن أنا أعتذر لكل ما حدث لكِ هنا .. أخبريني أين كنتي تسكنين في آخر فترة لكِ هنا ؟!

- كنت في غرفتي طوال حوالي أسبوع .. لا أخرج من غرفتي ! كان هذا أول يوم أخرج فيه بعد مرضي !

كانت رضوي تتكلم و هي تبكي ، و لكن ما جعلها تتماسك أنها لم تجد من الطبيبة أي ود في كلامها ، مما أجبر عقلها علي أن يكفكف دموعه و يمسحها ، و لكنها عجزت أن تسيطر علي أعصابها ، فظلت تنظر للغرفة التي فيها وسألت الطبيبة التي كادت ترحل دون أن تظهر أي مشاعر اهتمام بتلك المسكينة

الغارقة بين خوفها و دموعها ، تسألها و هي تجتهد في أن تمسح تلك الدموع التي تنم عما بداخلها ، وعن قسوة من أمامها ، فقالت بنبرة صوت ترتجف متألمة لصاحبتها :

- أين أنا ؟! و لماذا أنا هنا ؟!

خرجت الطبيبة دون أن تلتفت حتي إليها ، فظلت تبكي و تتخيل لو أن أبيها معها الآن لما كان سمح بكل هذا أن يحدث ، لما تركها تذرف دمعة واحدة ، ظلت تتخيل و كان هذا له تفسير آخر عند الطبيبة .. بدأت رضوي تهرب من بكائها متخيلة صديقتها ندي تفكر فيها ، و لكن ندي لم يكن لديها الوقت لتفكر في شيء سوى أمها ، فكان نهارها كليلها محجوزةً في المشفى دون أن تنطق مع أحد ، تراقب أمها و دموعها التي تنزل علي وجهها ، و يتردد علي فكرها كلمات أمها (رزقني الله بكِ بعد صبر يا ابنتي ، فكنت بمثابة الكنز لي و لوالدك الذي لم يتخل عن ثقته بالله وعوضه ، ولم يجرحني و لم يتركني لكلام الناس و لا لحزني كوني أنا أكبر بنات عائلتي و لم أنجب ، فعوضه الله بكِ وعوضني الله بأبيكِ ، بصبره ووده ، و بكِ ؛ لأفرح وأبتهج من جديد ، بعد أن كان قلبي موجوع و عيني تملؤها الدموع دون أن تنزل حتي يأتي الليل ، فأجلس في مصلاي و أبكي لله الواحد الجبار ، فجبر الله بخاطري و عوضني بأيقونة فرح و حب من عنده .. أنت يا ابنتي ! سأفرح غداً بأحفادي في البيت ، يلعبون و يمرحون ، فإن للأطفال بهجة

تقتل الحزن ، بل تنتشيه ظاهرياً و باطنياً !) كان كل هذا يتردد علي فكرها فتبكي ، و تذكرت هناء الطفلة المسكينة و ما حدث لها آخر مرة و هي عندها ، فحاولت أن تترجي الطبيب ليسمح لها أن تطمئن علي تلك الصغيرة الوحيدة ، و لكن الطبيب رفض و أخبرها أنها لا تحتاج لإجهاد نفسها ، فبكت علي نفسها ، علي أهلها ، ليس علي هناء فهي تعلم أن لهناء عائلة لن تتركها إلا وهي بخير ، و بالفعل كانت هناء تجلس مع هدية أختها و تبكي غاضبةً من أمها ، فهي تراها تمنعها من أبسط حقوقها دون أن تدري .. ماذا حدث خلال الشهر الماضي كله ؟! و لم يكن بمقدور أمها أن تخبرها بشيء قط ، فصغيرتها بها ما يكفي حتي إن لم تعِ تلك الصغيرة ، و لكن أمها قررت أن تخبر زوجها بكل شيء علّه ينقذ ابنتيها من الخطر التي هي انغمست فيه ، ظلت تحاول تتمرد علي كتمانها حتي نجحت ، فطلبت من مصطفي أن يأتي و لكنه و للمرة الثانية لم يكن متفرغاً ؛ حيث كان عليه أن يذهب مع أمه للطبيب ، فحاول أن يفهم منها لماذا تريده ؟! ولكنها كانت متكتمة حتي لا تصيبه بالحزن و التخبط أكثر مما هو فيه ، فأخبرته أنها تود أن تراه و تطمئن عليه و أنها ستنتظره حتي يطمئن علي أمه و يطمئنها ، و كان هذا بمثابة رجوع خطوة للوراء ، فبدلاً من أن تخبر زوجها فكان عليها أن تنتظر ، و بينما هي في كل هذا إذا بأم ندي تطرق الباب ، فرحبت بها و أدخلتها

غرفة الضيوف وهي تتمني بداخلها ألا يكون هناك أي شيء سيء ، فيكفي ما هي فيه وما إن جلست حتي قالت لها أم رضوي علي استحياء :

- هل ندي بخير ؟!

فهي تعلم أن هذا مجرد سؤال ، لربما يعتبر من الأسئلة الروتينية في حالة ندي ، علي أنها تعرف إجابته ! و لكن يجب عليها أن تسأل حتي و إن كانت تعرف أن أم ندي تسأل هذا السؤال آلاف المرات من نفسها و أقاربها !! و لكن بعض تلك الروتينيات يجب أن تؤدى ، حتي و إن كانت تؤذي ؛ لأن عدم فعلها غير متوقع ، بل قاتل لكل أنواع الاهتمام و مراعاة الإحساس لمن أمامها ، فكانت حزينة علي أم ندي و هي تراها قد فقدت وزنها ، وأضحي شكلها مخيف يوضح حجم ما تعانيه ، ولكنها لاحظت دموعها تملأ عينيها ، فقالت لها محاولة أن تخفف عنها :

- سأحضر لك شاياً .. ما رأيك ؟!

- كلا .. شكراً لكِ ! ندي بخير الحمد لله .. هي أرادت أن تطمئن علي هناء من آخر مرة !

- هناء بخير الحمد لله !

- أديم الخير عليكم جميعاً !

- متى ستخرج ندي من المشفى ؟!

نظرت أم ندي لها بعين ، و كأنها تستعطفها ، تقول لها كفى هذا

السؤال ! كفى لقد اكتفيت بمقدار ما ابنتي فيه ، و لكنها مع هذا ردت قائلة :

- لا أعلم ! قال الطبيب يجب أن تحجر هذا الشهر في المشفى ، و بعدها ... خيراً بإذن الله !

تلمست أم رضوي حزنها الذي أتي في هيئة الصمت ، فالصمت أحياناً يكون أبلغ طريق للتلميح عن الوجع ، حتي أقيم من دمعة تنزل فلا يشعر بصمتنا إلا المقربون أو الذين ما زال بإمكانهم و قدرتهم أن يشعروا بدونهم ، فحاولت أن تترفق بها مع أنها تعيش حالة مشابهة إلا أن نظرة الناس ستكون مختلفة في الحالتين ، بل لا يصح أن يوضعا في نفس الخانة من المقارنة ، فقالت مترفقة بها :

- خيراً بإذن الله !

لم تكن تجد شيئاً تقوله ، و لم يكن بمقدورها أن تساعدها ، بل أم ندي هي التي ساعدتها عندما طلبت منها أن ترحل لأنها تاركة ابنتها وحدها في المشفى ، فرحلت تاركة ورائها أم أخري متألمة علي حال ابنتها ، و لكن ما تسبب في انهيار أم رضوي حقاً هو طلب ابنتها هناء التي لا تعرف كيف ترد على ابنتها !! و كيف تفسر لها أي شيء سوى أن تتركها حتي يأتي أبيها ليتصرف معها هو !! فهي حقاً لم تعد تتحمل أكثر من هذا ، فطلبت منها أن تدخل إلي غرفتها .

كانت أمها خائفة أن ينتهي بها المطاف كصديقة أختها .. ينتهي بها المطاف في غرفة طوال عمرها كندي الصغيرة التي أضحي الجميع ينظر لها نظرة تفتقر لكوننا بشر ، لكوننا كائن يحيى علي هذه الأرض ، كائن مبتلى فلا يكتفي هذا العالم بمعاناته ، بل يأتي ليعبر عن وقاحة بعض مما فيه بنظرة لها ، نظرة لا إنسانية تفتقر لملامح الرحمة والعطف إن لم يكن عليها فعلي أهلها ، فالبنت أضحت لا تريد شيء فالله أعلم بها و بحالها ، ربما هي ما زالت في حالة الانهيار و لم تنس ملامح أمها و دموعها ، بل و كيف لهذه الفتاة و كل ما بها أن ترسل أمها لابنتها لتطمئن عليها !! لم تكن أم رضوي تفهم هذا و لكنها لم تكن تعلم أن أم ندي هي التي أتت وحدها و لم ترسلها ابنتها ، و إنما سمعتها و هي تحدث الطبيب فأرادت أن تلبي طلبها و تأتي لها ، فبعد أن خرجت من عندها و ذهبت لابنتها و كعادتها اليومية كمحاولة منها أن تتغلب علي الأمس في أن تجاهد أن تفتعل حديثاً بدون أن تقطر عيناها ، حتي أن تكون مبتسمة راضية بحالة ابنتها و قدرها فهي لا تعرف هل ابنتها أذنبت أم لا ؟! و لكن ابنتها سلبت منها حق أن تتحدث .. تعاتب وهي بحالتها تلك ، فحاولت أمها الكلام قائلةً :

- كيف حالك اليوم يا ربيعة قلبي ؟!
- بخير و الحمد لله ! كيف حال أبي ؟!
- بخير الحمد لله !

نظرت الأم إلي ابنتها و هي ممسكة بشدة بطرف مفرش السرير ، فبكت الأم و قامت و مسكت يد ابنتها و قالت لها بعد أن تركت نفسها لكل التساؤلات التي تدور في عقلها :

- لماذا لم تخبريني من قبل ؟! متى كنتِ تنوين أن تخبريني ؟! أنا لا أعرف هل ألوم نفسي على أني أعطيتك مساحة من الحرية لدرجة أوصلت الأمور إلى هذا الحد إلي أنكي كنتي تخفين عني ؟! و إذا سألتك و لم تردي كنت اتركك كما تشائين ! لا أعلم مدي تألمك من نظرتهم ، و لكن ماذا عن تألمي أنا من نفسي ؟! منك أنت يا صغيرتي ؟! في ماذا كنت تفكرين طيلة هذه المدة ؟! كيف كنت تواجهين وحدتك و فكرك و مشاعرك ؟! أنا حقاً لا أفهم هل أنت تبرعين في تمرس الصمود أمامي ، أم أن بداخلك ألم تحاولين السيطرة عليه بذاك الصمود ؟! أخبريني يا ابنتي إلي من تصمدين و إلي متي ؟!

كانت نبرتها يتشقق لها القلب .. كانت دموعها تنزل و تتكلم و هي ممسكة يد صغيرتها ، فكانت دموعها تنزل على يد ابنتها ، فشدت ابنتها يدها و بدأت تمسح دموع أمها قائلةً بكل هدوء :

- أنا أعتذر !

- ماذا ؟! تعتذرين عن ماذا ؟! ما كل هذا الهدوء ؟! متى ستخرجين ما بداخلك ؟! أم أنك ستظلين في إخفاءه و كأني لا أشعر به ؟!

أنتِ ابنتي و أنا أمك ! هل تدركين هذا ؟!
كانت الأم تتكلم و هي تصرخ ، ثم شدت على يد ابنتها :
- ردي علي لمن تصمدين ؟!
- أمي أترجاك أن تهدأي فقط ، فأنا أتألم لدموعك تلك أكثر من أي شيء ، أترجاك كفى دموعاً !
كانت الفتاة تتكلم بكل هدوء ، وربتت على ظهر امها التي استندت من انهيارها علي السرير ، سائلةً إياها :
- لماذا كل هذا ؟!
- قضاء الله يا أمي ! إذا كان ما حدث ليس بإرادتي و لكن الرضا به إرادتي ، كما أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، و بالتأكيد هو وسعك أن تصبري و أنا كنت أصمد حتي لا أرى دموعك هذه ، حتي لا أراك تكبرين في السن و تشيخين قبل أوانك ، فكنت أصمد لأؤجل من حزنك أياماً ؛ لأن ضحكتك تهون علي أشواطاً قد قطعت !
و لكن إني أشهد الله أني كنت أنتفض كلما تذكرت أنكِ ستعرفين ؛ خشيةً من بكائك هذا ! فهلا تكفين عن البكاء و أنا أعتذر عن ... .
صمتت ندي ، فنظرت لها الأم فأشارت لها أن أحداً قادم ، فتلفتت فوجدت الطبيب فسألها :
- كيف حالك اليوم ؟!
فردت عليه بابتسامة :

- الحمد لله بخير !

كانت الأم ترى ملامح ابنتها وهي تكاد تجن من هدوئها هذا ، و لا تعرف هل هي حقاً هادئة ؟! أم أنها تتظاهر ؟! فبعد أن خرج الطبيب نظرت ندي إلي أمها مبتسمة ، محاولة أن تداعبها قائلةً :

- ماذا يدور في عقلك يا زهرة العمر ؟!

- العمر !! و هل تبقي عمر !!

أجهشت الأم بالبكاء و مسحت وجهها بيديها بشدة ، ثم استأنفت حديثها قائلةً :

- أخبريني ماذا بك ؟! من أين لك بكل هذا الهدوء ؟! أنت لم تكوني هكذا قط ! تكلمي معي .. هل ستظلين تتحسسين بطنك من تحت الغطاء و تتخيلين أني لا أرى حركة يدك ؟! ماذا بك ؟! ألست أمك ؟! قولي لي لمن يمكن أن تحكي و تتكلمي ، و أنا أقسم بالله سأحضره لكِ و لكن أخبريني فقط !! أنا لا أتحمل رؤيتك هكذا حقاً !!

أنهت كلامها و ابنتها تنظر لها صامتةً ، ثم قالت :

- أمي ! لماذا تبكين ؟! إني أخاف علي عينيك الجميلتين ، أما عن بطني فهو قضاء الله و قدره ! أنا أعلم أنك تريني ، ولكني أقسم بالله أن تحسس بطني شيء خارج عن إرادتي ، فأنا أقول لها اصمدي .. هوني عليك فإن معنا الله !! خففي عما تحمليه فإن لك الرزق في الآخرة فاصبري و صابري واربطي علي قلبك بيد

من حديد لين ، فإن لم تستطع فبيد من رفق و مداعبة تستميلين بها الوجع و الألم تحت جناح الطاعة و الرحمة ، فإن رحمة الله واسعة علي جميع عباده و علي الصابرين خاصةً حينما خص الصابرين بقوله تعالي :

﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فصلت : آية ٣٥ ..

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] ..

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١١] ..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]

أأقول لك يا أمي ؟! لننسي الجزاء ! ألا يكفينا أن الله معنا ؟! ألا يكفي هذا لتجبر جروحنا و تثلج صدورنا ؟! ألا تتذكرين كلامك لي عندما كنت أخاف من امتحاناتي ؟! تذكري هذا الكلام يا أمي .. ألم تخبريني دائماً إنما العيش عيش الآخرة ! أقسم بالله أني ادعوه ليخفف عنك يا حبيبتي ! أنا أعلم أن تألمك يفوق تألمي ، تُوجعك كل آهة ، و لكن صبراً يا أمي و لا تلومي نفسك لأني لم أحكِ لكِ ، فوالله لم أخبر أحد ، و أنا و الله لأتألم الآن لبكائك أكثر من تألمي عليَّ ، فكفى بكاءاً يا أمي ! لا تلومي نفسك عليَّ وعلى وحدتي ، فأنا التي كنت أبتعد و ليس أنتم فلا تبكين ! فهذه الدموع أغلى

عندي من ألمي فابتسمي يا كنزي الكبير الرحيم !
تعرفين يا أمي ؟! أغلب الكنوز ترهق صاحبها و تتعبه للحصول عليها ، إلا أنت يا أمي .. كنز خلقت وجدته معي ، لم أبحث ، لم أدفع ثمنه سواء أكان فكراً أم جهداً ، بل لا أخاف أن يضيع ، و كيف يضيع و أنت تسكنين في كل شيء !! أتعرفين ؟! من يحارب الألم بداخلي هو أنت .. و كيف لكلمة مثل الألم أن تذكر في وجود الأم !!
فلتبتسمي يا نبع الحنان .. يا دار التفاؤل !
يا حصني المنيع أمام التشاؤم !
قلت لكِ شعراً فلتبتسمي .. صبراً يا أمي !
كفت الأم عن البكاء ، و نظرت لابنتها و هي لا تعلم ماذا تقول لها ؟! فتذكرت رغبة ابنتها فأخبرتها أنها قد ذهبت إلى هناء ، و أنها بخير ، فردت ندي عليها :
- أدامك الله لي نعمةً ، بهجةً ، و كرماً لي في الحياة ، إني أشتاق لرضوي حقاً ، لقد طال فراقها و لا أعلم كيف حالتها ؟! لعلها تكون بخير !
انتهي ميعاد الزيارة و رحلت أم ندي لتترك ابنتها تفكر في رضوي و حالتها ، فظل بالها مشغول عليها لأيام عدة حتي أتي الفرج من عند الله ، و لكن بقدر فرح ندي كان حزن رضوي بل يزيد ..

الفصل الثامن :-

- الضيقُ -

فرضوي ترى أنها لم تحقق حلمها ، بل إن دفتر أمنياتها تحول لدفتر يحكي عن مخاوفها ، عن جدران طموحها التي تهدمها ، عن مكانتها أمام نفسها حيث تكتب فيه (تطاردني أحلامي و كأني فريسة ، تطاردني وحيدة و أنا في عزلة عن الناس فتحاصرني . كنت أظن أني صعبة المنال و أنها لا تستطيع النيل مني ، و لكن بمرور الوقت اكتشفت أني كنت سهلة المنال لدرجة لم ألاحظها و هي تضرب داخلي ، حتي هشَّته فجعلته كهشيم تذره الرياح ، فما عاد لي غير خارجي المُتصور أنه صلب ، المُعتاد علي الابتسام أو بالأجدر الكتمان ، فيكتم انهياري الفكري من طموحاتي ، و انهياري الجسدي من كوني أجهدت حتي سال العرق في كل مكان ، بل حتي أوقعت نفسي لأقنعها أن هذا القدر يكفي ! لقد إنهار تحملي فليس بيدي شيء !! أليس هذا القدر يكفي ؟! فإن لم يكن هذا القدر يكفي فأعلمي أنه لا سبيل إلا للجنون) فكانت تتألم من أحلامها التي كانت نجاتها من الماضي ، تراها الآن بعبع مستقبلها ، و لكنها كانت متماسكة و لم تُخبر ندي بشيء مما فيها ، كل ما يعلق في ذهن رضوي هو أبيها و أمها التي تصرخ وحيدة دون أن يواسيها أحد ، فليس في بيتها أحد مهيأ لسماع

الصمت سوى والدها ، وهو أيضاً يتألم لألم زوجته .. أرادت أن تخرج عن طور صمتها و أن تطمئن علي أهلها فاتصلت بمصطفي و لكنها لم تخبره ، فقط ظلت تسأل علي أهلها و طلبت منه أن يطمئن عليهم ؛ ليطمئنها فبعد أن أغلقت معه ظل يبكي ، و ظل يردد اللهم ما كل هذا ؟! اللهم ما كل هذا ؟! لقد زاد الثقل يا الله ! يا الله إنك تراني و تسمعني ماذا أفعل يا رحيم ؟! يا علام الغيوب أكتب لي في الغيب عندك فرجاً ! يا رؤوف بالعباد لملم شتات أمري ! أختي يا الله و أمي و الآن زوجتي فاللهم رحمتك ! و خرج و هو لم يمسح دموعه و ذهب إلى أمه ، وكانت روحه أجهدت حتي أنها ذهبت تبحث عن أي ركن للهدوء .. للسلام! و كان هذا الركن أمه ، ولكنه لم يستطع إخبارها ، فقط جلس بجانبها يتمني أن تحتضنه فيصرخ و يبكي و يفرغ ما به ، فشعرت أمه أن به شيء فسألته عما به فأخبرها أنه قلق عليها ، فطمأنته .. كانت تعلم أنه يكذب و لكنها خافت أن تسألها فيطلب منها ثانيةً أن يخبر أماني ، فقالت له :

- لا تتحامل علي نفسك بما يفوق حد تحملها ، وربك لا ينسي عبيده !

حاول أن يتماسك قدر المستطاع ، و رد قائلاً :

- و نعم بالله يا أمي ،

ثم استأذنها و خرج ليكلم زوجته متغلباً علي خوفه عليها :

- رضوي ! كيف حالك ؟!
- بخير الحمد لله .. كيف أنت ؟!
- رضوي ! ماذا بك ؟! أنا لم أرد أن أضغط عليك ، و لكن حقاً بات الأمر لا يحتمل .. ماذا بك ؟! و لماذا تخفضين من نبرة صوتك ؟!
- لا شيء بي ، أنا بخير ! كيف حالك أنت ؟!
- كيف سيكون حالي إن كان يعلم أن بك شيء و أنت تخفينه !
فبدأت رضوي بالبكاء ، و انهارت و قالت له :
- لا شيء سوي أن الغربة قد نالت مني ، و الوحدة قد هزمتني شر هزيمة !!
أرادت رضوي أن تغير الموضوع عندما استشعرت أنها قد بدأت تبوح و ستقول له حقاً ماذا بها ، حتي إنها لا تعلم ماذا بها ؟! فما هذا المكان الخنيق الذي يفقدها حتي رغبتها في أن تحلم ، و تلك الطبيبة التي لا تتحدث بل تسألها فقط ، فلا تستطيع أن تعرف لماذا هي هنا ! حتي عينات الدم التي تؤخذ منها لا تعرف لماذا كل هذا ؟! فلم ترد أن تقلقه عليها أكثر فقالت لهم :
- قد أرسلت ندي لي رسالة ! انتظر سأقرأها لك .
كان مصطفي يعلم علم اليقين أن مكروه قد ألم بها ، و لكنه يعرف أنها إذا لم ترد أن تحكي فلن تحكي أبداً ، فتركها تتكلم لعلها هكذا تنفس عما بها .. (مرحبا يا أجمل صديقة لدي ، أم أقول غاليتي كعادتي ، أدامك الله في حياتي وأدام عليك الفرح والسرور!

أنا فخورة بك سعيدة ، كون أنك صديقتي تخافين علي مشاعري حتي أنك تخافين علي ألمي ، فتجعلينني أخفف منه وفي نفس الوقت أنسي أن هذا الألم كان في حياتي !

أنت مميزة في حبك .. فرحك .. ضحكك .. بكائك .. ألمك ، مميزة كفاية لتعيشي ألمك وتجعليه سبب قوتك وصمودك ، مميزة بتلك القوة وذلك الصمود في جبروتك الذي تتحملين به هرائي من عدم سؤالي وتقصيري ، وكلامي الذي لا يُزين ، فكلماتي موحدة !

غاليتي ! أحبك وأشتاق لك .. تلك ما أملكهن من كلمات ، ولكن أنا دائماً أحاول أن أبوح لك بحبي ، بسعادتي بك ، بأنك من تجعلين يومي أحلي ، أنك ثمرة حياتي ، حصيلة ونعمة علاقاتي مضاعفات لخير أكبر من أن أسدد حمدي لله عليه ، ولكن لا أعرف كيف أعبر عن حبي سوي بتلك الكلمات الثلاث ، ولكني صدقيني عندما أقول لك أحبك أو أشتاق لك فأنا أعيها ، وعندما لا أسأل عليك فهذا بغير قصد مني ، والآن أنت سافرتي ، سترجعين وسأكون أول من ينتظرك في المطار .. ستعودين من السفر كما كنت تعودين إليَّ ، وتعودين لي إلي حضني الذي مازلتِ فيه حتي لو بعدتي ألف ميل ستظلين فيه يا ثمينة الفؤاد يا عشق السنين ، سأشتاق لك وستشتاقين .. سأذوب في بحر الهوا بحبك الياسمين .. عشت بك أتنفس من هوا عشقك ، أسبح في نهر ضحكك .. كل حين تتباعد الأجسام ، والأرواح باقية .. تتلاشي الأماكن والعيون

مقبضة تشرد الطرقات ، والقلوب ممسكة علي صديقة في القلب مخلدة .. لن أقول لك اشتقت أو أحن للقاء منك ، ولكني سأقول لك .. أنا أحبك وسأحبك حتي آخر رمق ، وكما كنتي تطلبين مني أن أعاهدك ألا تنزل دمعة لي سوي في فرح أو حزن علي تقصيري في طاعة الله ، فأنا أذكرك به وإن كنت أعلم أنك لا تنسين كلام بيننا فما بالك بعهد ! ولهذا أنا أطلب منك أن تكفي عن البكاء !! سلاماً يا حبيَ المصون ، وعشقيَ المحفوظ)

هي قالت لي هذا فماذا فعلت أنت ؟! أخبرني ماذا فعلت ؟!

-أنا تهت بين حبك لصديقتك ، وبين كلام صديقتك .. سأقول لك ماذا فعلت ... .

وما كاد مصطفي يكمل حديثه ، حتي كاد أن يبكي ، و لكنه كان عليه التماسك فسأل رضوي :

- ماذا بك يا رفيقة الدرب أخبريني ؟! أنا أشعر بوجعك يخرج من بين نبرات صوتك ليبكي وحده دونك ، مبتعداً وحده عنك فماذا بك بحق الله ؟! أترجاك بكل شيء أن تخبريني ماذا حدث لرضوتي التي وعدتني أمام أبيها أنها لن تخفي عني شيء ؟! أين ذهبت نبرة الفرح ؟! أنا فقط أريد أن أطمئن عليك !

كان متألم بما يكفي ، و لكن ما فعلته رضوي كان يبرهن له أنه قد أصابها شيء ليس بالهين ، وبرغم ما به من ألم كان يتمني أنه لو استطاع أن يذهب لها ليحمل عنها عبئها ، و لكن أنَّى له بهذا ؟!

و هي أيضاً لا تريحه بل متمسكة بكتمانها للأمر .. لا تتنازل عن صمتها هذا ، فقرر هو أن يتكلم فقال مستعطفاً إياها :

- ألن تتنازلي هذه المرة و تخبريني ماذا بك ؟! أريحي قلباً يتمني أن يأتيك الآن و يحتضنك ، أرفقي بعقل لا تغيبين عن فكره من أجل الله ! أخبريني ، فسري لي ما كل هذا الخوف الذي أشعر به عندما أكلمك ؟! لما يعتريني شعور رعب عندما أفكر فيك ؟! ماذا بك ؟! إني لن أستريح بصمتك ، بل يؤذيني فأخبريني ، ووعداً مني عندما ستقولين كفى كلاماً لهذا الحد ، حينها سيكون كفى ، و لكن أعرف ولو جزءاً قليلاً فقط مما حدث !! يا رضوتي عليك أن تقولي ! كفي لصمتك الآن و تتحدثي !

عليك أن تقفي بجبروت و تحكي فأنت بعيدة عن أبيك الآن ، و أنا أعرف أنه الوحيد الذي تحكي له فوالله لتعلمي أن اصراري هذا ليس لشيء إلا من أجل أنك بعيدة عن هدوئك و أمانك ! أليس هذا حديثك لي عن أباكِ ؟! فكيف لي إذا الآن أن أتركك فريسة للحزن ؟! أولستِ ابنتي ؟! هل يترك الأب ابنته تدمع حتي بل هل يتركها تتغير ملامح وجهها بأي هيئة سوى الابتسامة و الفرحة ؟! فهيا أخبريني و بوحي بما يزعجك !

صمت مصطفي فبدأت هي ترتب كلامها ، تتخلي عن صمتها بينها و بين نزاعاتها الداخلية قائلةً :

- ماذا أقول لك ؟! أأقول لك أنه أضحي يكفيني أن أعرف فقط

ما هو اليوم ؟! كم التاريخ الآن ؟! كم الساعة ؟! أو أقول أخبرني كيف يبدو النهار في هذه الأيام ؟! كيف الليالي المقمرات ؟! و كيف تغدو الطيور في الصباح ؟! هل ما زالت محتفظة بزقزقتها؟؟! و إن كان الجواب نعم فابحث إذن عن مسامعي فإني لا أسمع شيء غير صوت نفسي ، حتي إني بت أخاف منه ، بت أخاف أن أموت هنا وحدي ! لا أعرف حتي أين أنا ! و بات لا يهمني أن أعرف فكل ما أريده أن أذهب من هنا .

أأقول لك أني أشتاق إلي حضن أبي و تهدئته لي ؟! أشتاق إلي أمي إلي غرفتي إلي أختي ؟! أم أني في الحقيقة أشتاق لأن أري سماء من فوقي و أي بشر من حولي ؟! لا يفرق ، هل كانوا أهلي أم لا ؟! و لكن أنا الآن قد أكتفي برؤية أي أشخاص ، علي شرط أن أكون تحت سقف السماء ، لا سقف ، غرفة قاتلة خانقة ، ليس لي فقط ، بل حتي للأصوات من حولي .. للعصافير .. لضوء النجوم .. لشعاع شمس يتسلل منها إليَّ .

أأقول لك أني دائماً كنت أخاف الماضي و لكن أتضح لي أنه كان لا بأس مع ما أنا فيه الآن ؟! فلتتركني و صمتي بدلاً من أن أنزع راحتك ، ألا يكفيني أني نزعتها بغربتي ! فماذا إذا أخبرتك إني لأهاجم الآن من أحلامي نفسها ! بت عاجزة أمام أن أتخيل أين حلمي ؟! أين اختفى مني ؟! لقد كان معي طوال الوقت .. كلا ، لقد كان معي طوال الأمان ، فالإنسان لا يحلم إلا إذا كان مُأمناً،

وإلا فيكفيه أن يكون طموحه و مبتغاه من الدنيا الأمان ، لا تتكلم معي و أنا بت افتقر الحياة .

كانت رضوي صامتة لا تتكلم ، فقط دموعها تنزل متخيلة رد مصطفي علي محادثتها الوهمية ، مبالية بكل شيء إلا نفسها ، حتي أغلقت معه و هي مصرة علي أنها بخير ، ولا شيء و دخلت عليها الطبيبة فرأتها واضعة يدها علي فمها ، منهارة من البكاء حتي أنها لم تشعر بدخولها ، فقالت بنبرة رقيقة متعاطفة :

- ألن تنتهي من بكائك ؟! هذا قط و الله أنت موجودة هنا لأسباب لا يمكنني لك البوح بها ، و لكنها لسلامتك !

فردت عليها رضوي منهارة :

- عن أي زيف تتكلمين ؟! ما كل هذه القسوة التي تفوح من المكان فيجعل المرء يري نفسه و هي تتعفن دون أن يستطيع أن يفعل لها أي شيء !! فتالله عليكِ لا تقولي سلامة .. أي سلامة تتكلمين عنها في مكان كاره للبشر ، بل كاره لمعالم الحياة كلها .. صادٍّ لكل مصادر التنفس ، حتي إنه مانع لنور الشمس أن تدخله ، لا تخبريني عن أمان لا أسمع فيه سوى صوت نفسي ؛ لأنه هذا التعذيب النفسي في أبهي مراحله .. هل يمكنك أن تخبريني في أي يوم نحن ؟! و كم تاريخ اليوم ؟! للصدق فقط أنا أشعر بأن هناك ملايين الجثث قد تعفنت هنا قبلي ، و الآن دوري أنا ، وأنا فعلاً بدأت مرحلة التعفن منذ أن أتيت هنا ، منذ أن أعطيتموني

هاتفي و أنا لا أفهم أي شيء ، بل أقسم أني علي وشك أن أجن ! فأخرجوني من هنا !!
كانت رضوي تصرخ ، ولكن الطبيبة كانت هادئة لدرجة تفقدها صوابها ، مما جعلها تقول :
- سؤال واحد فقط ! سؤال أنت ستجردينه من كل شيء في العالم إذا كانت إجابتك نعم ، هل أنت من بني البشر ؟! و لا تقولي نعم .. لا تقولي أنك امرأة حتي ؛ لأن مثلك لا يصح أن تذكر أنها أنثي خلقها الله بعاطفة الرحمة فيها تكون فطرية بل جذرية في حياتها ، فأراكي لا تتغير لك نظرة بكلامي و لا ببكاءي ، فأخبريني من أي طين أنت ؟!
كانت سليمي واقفة أمامها لا تعرف ماذا تقول لها ، فأعطتها ورقة و خرجت دون أن تحرك شفتاها حتي ، فرددت رضوي باكيةً :
- اللهم إني بثُّ لا أطيق حياتي فابعدها عني يا الله ، اللهم ردني إليك رداً جميلاً يليق بكرمك و عفوك و رزقك و غفرانك يا الله ، اللهم إما رحيلٌ صامتٌ هادئٌ يكون فيه هدوء و طمأنينة ، يكون عوضي عن حياتي نفسها ، أو اللهم رجوعاً إلي أهلي ، فاللهم مالك الملك بث في قلبي الصبر حتي يأتي فرجك في أحد الخيارين ، اللهم عفوك و غفرانك في الحياة و في الممات ، اللهم آنس وحدتي و نور قبري و أجعله واسعاً مريحاً منيراً لي يا الله ، و يكون موتي موتاً مخففاً في سكراته رحيماً بقلب قد مرض ، بحلم أوصله لهذا

الحال ، و ما ذنب حلمي يا الله اللهم .. رحماك علي قلب يصرخ بين ضلوعه ، يكاد يهرب من صاحبه فيتوقف عن النبض لكي يستريح فيهنأ بذلك براحة أكثر مما يريد ، فاللهم فراقاً في الدنيا و لقاءَ أهلي في الجنة ، فما عدت أحتمل وجودي هنا أكثر من هذا .. أكاد أختنق يا الله ، فاللهم رحمةً من كل شيء ! -

كانت تبكي و تنظر حولها كحال نور التي تشهد ضياع أختها الصغرى بعد ضياع أخيها ، وهي واقفة دون حراك لا تعرف ماذا تفعل !! حتي اتصلت بخالها و أتي إليها و أخبرته أن يتصل بمصطفي ، و يطلب منه عنوان عمه فأخبرهم بالعنوان ، فذهبا إليه راجين إنقاذ أميمة ! و ما إن طرقوا الباب حتي استقبلتهم هناء شر استقبال ، تلك الطفلة التي استمدت فكرتها عنهم من أميمة ، فكانت حاقنة عليهما سواء من خالها التي بسببه شعرت باليتم أو من أختها التي تركتها وحيدة ، بل و جعلت لها ورقاً في كل غرفتها ، حتي إذا لمسته وجدت نفسها تغفو و تستيقظ في مكان غريب مختلف عن عالمها الواقعي والخيالي ، مضاد لكل معالم الإنسانية و الرحمة .. فأدخلتهما فطلب الرجل أن يقابل أبيها ، فنادته له فخرج أبوها ، ولم يكن يريد لهناء أن تسمع كلامهم ، فطلب منها أن تذهب لتشتري فاكهة ، وخرج لهما :

- مرحباً !

- مرحباً .. أنا خال أميمة ، و هذه أختها .

و صمت الرجل و هو مقر في قلبه غصة من رفض أبو هناء لتقديم المساعدة ، فحاول أن يتكلم :
- نحن آسفان علي إزعاجكما ! أنت تعرف أن أميمة في مشفى الأمراض العصبية ، يفصلها عن الجنون قليلاً من الوقت أو ربما دعوات تلك الباكية أختها .. أنا أعلم ما مرت به هناء ، و لكن ليس لنا منقذ في هذه الحالة غيرها !
صمت الرجل متأملاً خيراً ، وكان أبو هناء لا ينطق بحرف واحد ، ينظر إلي الأرض لا يعرف ماذا يرد ؟!
- أنا أدعو لأميمة كل يوم ، ولكن ابنتي هناء لا تعرف أي شيء مما حدث ، فإنها نست كل ما دار ذلك اليوم .. فكيف ستنقذها؟!
-فأخبره عمها أن الطبيب قال أنها قد تستجيب لأصدقائها الذين كانوا معها عند وقوع الحادث ، ليس شرطاً أن يحكوا لها ، بل لأن عقلها يثق بهما فقط .. كان يحاول أن يستعطف ذاك الأب الذي رد :
- أنا أقول لك أن هناء لا تذكر أي شيء مما حدث ذلك اليوم ، فكيف ستفيد في هذه الحالة و أنا لا يمكنني أن أخبر ابنتي أنها فقدت جزء من مخها وهي طفلة ، بل كلنا سنكون كالأطفال في البكاء و الانهيار إذا أتى أهلنا و أخبرونا أننا فقدنا جزء من مخنا ، فإن الحياة لن تعود كما كانت ، بل ربما تفقد ابنتي جزءاً منها لن تستطع التعامل مع العالم بعدها ، أنا أعلم أنك آت إليّ متأملاً،

باحثاً عن حياة لأميمة ، و لكن أنا لا أستطيع ماذا أقول لابنتي؟! أنا حاولت مرات أن أجعلها تذهب إليها ، ولكن كيف و هي من حينها مريضة لا تبارح فراشها ؟! حقاً هذا البيت و خصوصاً غرفتها ، لقد تشبعتُ بالدموع بالتعلق بأمل أن تصحو ، أن تفتح عينيها فقط .. فأعذرني أنا أحاول أن أبقيها علي قيد الحياة ! إذا كان لديك حل لا يقتل شيء ، أو يميت مشاعر ابنتي تجاه نفسها ، فأنا سأنفذه و لكن حقاً دون أن تتضرر ابنتي الصغيرة ! أنا أعرف أين كانت نور الهدي ، وأعرف كيف كان ذاك المتوحش معها ، أليس هكذا تسميه ؟! و لكني أعرف أن زوجتي لن توافق لو أخبرتها أن تذهب هناء معكم ، ولا أريدكم أن تظنوا بها سوءاً ، و لكن الحال في هذا الوضع متوحد علي الجميع أنت تخاف علي ابنة أختك ، و زوجتي تخاف علي ابنتها ! و أماني أمها لا تملك غيرها هي و أخيها ! لا تظلمونا جميعاً ! فجميعنا في هذه الحالة يجب أن نتمتع بالأنانية ؛ لأنها ليس من أجل راحة أولادنا ، بل من أجل إبقائهم علي قيد الحياة و هذا حقنا علي أنفسنا قبل أن يكون حقهم علينا .. أنا لا أعترض علي كونكم مصرين علي أن تذهب ابنتي ، خصوصاً إذا كان خيط النجاة الوحيد ، و لكن أي خيط هذا إذا كان المتعلق به و الذي يلزم عليه واقعان لا محالة!! أنا لا أعرف ماذا أقول ؟! و لكني سأرسل ابنتي فور أن نجد حلاً ، غير أن تعرف هناء أي شيء عن إصابتها و هي صغيرة !!

لم يتكلم أبو هناء و لا هما ، فقد دخلت تلك الصغيرة المدللة بالوهم ، فرحلت نور الهدي و خالها خارجين خاليي الوفاض ، لا يعرفان كيف يدبران أمرهما ، و ظل الأب في مكانه ينظر إلى تلك الغرفة التي لم تري سوى الدمع أنهاراً و انهياراً ، لم تشهد حتي دموع يكون محلها فرحاً و بهجةً ، بل الخوف فقط .. ظل يفكر حتي انتبه إلي زوجته واقفة أمامه و في عينها تلك النظرة ، كاد الرجل أن يبكي بل بكى ، ولكنه كتم صوته فأسندته زوجته علي كتفها قائلةً :

- تخالَط كلي مع حزني فاخترتكَ أنتَ .. تضاربت أعضائي كلها و غامرت ، بل راهنت علي انسحابي من الدنيا إلا ذاك الجزء الذي تسكنه أنت ..صارع و كافح و أعادني الحياة من أجلك أنتَ .. نهايتي في الكلام مخالفة لذاك الواقع ، فهي سعيدة ، خالية من شوائب الألم و الخوف حتي مهما ، عظمت المواقف و وهلت الأمور ، فكل جملي نهايتها أنت و كيف تُذكر إلا في الخير !!

ظل الرجل ينظر لزوجته متعجباً باكياً ، لا ينطق فاستكملت كلامها قائلةً :

- سبب اختلافي مع نفسي أنتَ ، فأنتَ تحملتني في حياتي حتي و أنا كنت أدمرها ، تحملتني دون همس أو حتي نظرة ضيق ... كان قلبك يطمئنني وأنا آلمته بما يكفي للحد الذي سيهجرك و يهجرني إذا تألم أكثر .. أنا لم أركْ يوماً عاجزاً ، ولا ينبغي حتي لو

تلاشى الكون بأكمله .. يجب علي قوتك و صمودك و إيمانك ألا يتلاشوا ، ليس لأنك السند و الصديق و الحبيب و الزوج و الأب و العائلة ، بل لأنك أنت !

لأنك لم تكن ذاك الشخص الذي أعرفه في المشفى و ابنتك متعبة ، و أنت لم تستطع أن تحرك قدميك إليها ، و لكنك أنت الشخص الذي خاف علي زوجته من تفكير أحد كسوء ظن بي ، لقد رأيت اندفاعك عندما قلت لهم أنني لم أرضي ، لمست حينها المودة التي في قلبك لي !

ظل الزوج ينظر لها ضاحكاً قائلاً :

- يا سيل الاطمئنان ، و بئر الأمان الذي أغدق قلبي الآن .. ما هذا الجمال الذي يشبه ، بل لا يُشبَّه بشيء ! فهو فريد متميز متألق ، يصل سلامه لملايين العقول ؛ ليغير نظرتهم التشاؤمية للحياة ، لينظروا نظرة الأمل حقاً .. إنها المودة كما قلتِ ليس أعظم منها ، فنحن قد نحب و لكننا نكابر في حبنا ، ولا نجهر به ، و لكن المودة هي التي نتهافت فيها علي بعضنا من همومنا ، نتهافت علي سندنا لكي نطيح بمشاكلنا .. تلك هي التي ألقاها الله في قلوبنا ، و هل يلقي الله في قلوبنا إلا الأسمى ؟!

- بل يا زوجي ، الحب هو بداية المودة ! و أنا قد وجدت حلاً من أميمة ، و لكن هل لي بطلب ؟! أنا أود أن أكلم رضوي ابنتي! فقد اشتقت لها ، هي متغيبة أكثر من ثلاثة أشهر و أنا أود أن

أطمئن عليها ، و أنا مدخرة مالاً من أجل هناء حتي إذا مرضت فجأة فسندفع منه حق المكالمة ، فأنا أعلم أنه ليس معك مالاً يكفي لنهاية الشهر !
رفع الزوج رأسه من علي كتف زوجته ، وقبَّل يدها قائلاً :
- أنا لا أعرف ماذا حدث لتظهر الفرحة علي وجهك مرة أخري ، و لكني سعيد بها ، أشعر بانشراحة صدر ، و لكني في نفس الوقت أشعر أن بك شيء ، فما هو ؟!
فقالت الزوجة بنبرة يملأها حسرة :
- إني وجدت أن الحزن يعيشني ، و لست من أعيشه .. هو المتمكن من حياتي ، و لست أنا المسيطرة بل هو الممسك بالزمام، حتي جعلني أعيش أياماً أوليس لي الله يرحمني كما ... .
صمتت الزوجة و أخذت نفساً عميقاً يوحي بشيء ما بداخلها تكتمه ، فوضع الزوج يده علي كتف زوجته و بدأ يمسح بيده الأخرى على شعرها ، فأكملت كلامها قائلةً :
- لقد اشتقت لرضوي ! فهلا نزلت لتكلمها و إذا أجابت أحضر لي الهاتف !
نزل الزوج إلي السنترال الذي بجوار بيته ، و كانت الزوجة تردد في نفسها قائلةً :
(ماذا لو أتي الموت طارقاً للباب و فتحته له ، بل تركت الباب علي مصراعيه ! ألا يتوجب عليَّ أن أتغير ، فنحن نتغير عندما يطرق

الموت بابنا .. كلا ، نحن نتغير خشية أن يضيع بقاؤنا في الحياة، ففي البداية أولادي و ما حدث لهم ، والآن أتي الدور عليَّ ، و لكنه بتحذير وكأن الله يعطيني فرصة لأصحح كل لحظات الحزن .. أصحح كل دمعة قد سالت .. أصحح كل تشقق في وجهي من لهيب الأوجاع القاتلة ! ألا يجب علي أن أتغير من أجل فرح هذا البيت ؟!)

أنهت دموعها آملةً أن تكون آخر دمعة تَهَبَهَا للحزن بداخلها لتبدأ الفرح ، فقامت تري زوجها من الشرفة لتعلم هل ردت فتنزل لتكلمها .

الفصل التاسع :-

- غصةٌ مكتومة ، وأخرى أُعلنتْ -

و لكنها لم تجب ، وكيف تجب و هي الآن تجن من الوحدة !!
حتي أتي الفرج و خرجت من هذا المكان البائس مغطي وجهها ، و أذنها لم تكن تعرف أن هذا خشية عليها من أن تري أو تسمع ما يصيبها بالألم طيلة حياتها ، ما يهبها وقتاً للتوجع في غربتها ، فكان هذا اقتراح سليمي .
خرجت رضوي و لم تكن تعرف إذا كانت فرحة ؟! أم لا لم تتكلم مع سليمي فهي تألمت منها بما يكفي لتتجنبها طيلة عمرها ، فاتصلت بمصطفي و لكنه لم يرد ، فكان غاضباً من أبيها و من كلامه ، فكان يريد أن يهدأ فذهبت إلي غرفتها فوجدت آلاء تنتظرها في الداخل ، فسلمت عليها فسألتها آلاء :
- أين كنتِ كل هذا الوقت ؟!
كانت رضوي تختنق منها ، فهي حتي لم تتصل لتطمئن عليها ، و عندما هاتفتها لم ترد ، فقالت و هي تنظر إليها من أعلي لأسفل :
- كنت بخير و الحمد لله .. فهل هناك سبب لمجيئك ؟!
- أنا أعتذر أني أكلمك بهذا الشكل ، و لكني المسئولة عنكِ هنا ، فأين كنتِ ؟!
زاد ضيق رضوي فباحت بغضبها قائلةً بطريقة شخص يكاد أن

ينهال علي من أمامه سبّاً :
- كنت في مصحة عقلية لا يدخل فيها شعاع شمس ، حتي شعاع الأمل كانت تحجبه جدرانها عن قلبي و عن فكري .. كنت جليسة نفسي ووحدتي وغربتي .. فيا ليت صمتك قليلاً يا آلاء ، فأنا أود أن أستريح !
فتركتها لتنام ، و ذهبت إلي ذاك الشخص الذي أخرجها من السجن تبكي منهارةً فاستفزه حالتها ، فسألها بجفاء شديد :
- ماذا بك ؟!
- لماذا تكلمني بهذا الشكل ؟!
تركها قليلاً ، واستأذنها ليقوم باتصال ..
- مرحباً أيها الطبيب .. هل لديك آ ٢ أم ١ في المعمل ؟!
- لدي آ ١ لأن آ ٢ تعبت ، وأرهقت فأبدلتها صباح اليوم ب آ ١.
- تمام .. حسناً !
ثم رجع و علي وجهه ابتسامة :
- أنا أعتذر يا آ ٢ علي طريقتي !
- نعم و ماذا آ ٢ هذه ؟! ما هذا الكلام ؟!
- هل يمكنك أن تهدأي أنا متعب قليلاً ؛ علّني بدأت أهلوس قليلاً ، فهل يمكنك أن تتركيني أستريح ؟!
فبعد أن سمعت هذا الكلام ، ذهبت إلي رضوي و ظلت تبكي ، فلاحظت رضوي أنها متغيرة عما تعرفها فهي كانت صلبة دائماً

ليست هكذا أبداً ، كانت تتبرج بشكل عنيف مثير للاشمئزاز ، وهي الآن تتخلي عن تبرجها و تحتشم بشكل يليق بكونها أنثي ، فحاولت أن تسألها عن سبب بكائها ، و لكنها كانت ترفض أن تتكلم ، وغادرت من عندها فظلت تفكر في أهلها و في مصطفي الذي يصر أن يعرف ما بها دائماً ، فاتصلت به فرد عليها :

- مرحباً يا رضوي ، هل أنت بخير ؟!

- الحمد لله بخير .

و أخلف ظنها هذه المرة إذ قال لها بنبرة فرح :

- يا الله ! يا لجمال نبرتك التي يستعيد فيها المرء سلامه !! ماذا حدث لك الأيام الماضية ؟! بل ماذا حدث لك اليوم لأشعر بتلك الانفراجة في صوتك ؟! أقسم عليكِ بمن خلقك أن تخبريني ماذا حدث معكِ ؟!

- أنا بخير !

شعرت رضوي أن مصطفي لن يصدقها أبداً ، فواصلت كلامها قائلةً :

- أنت تعرف أني أخاف من التحاليل ، و أخذ العينات ، و خصوصاً إن كان تحليل دم ، فكنت قلقة و لكن الحم دلله نتيجتها كانت جيدة جداً .

تذكرت رضوي تحاليل أمها ، فطلبت من مصطفي أن يذهب إلي أمها ليسألها علي النتيجة ، بعد أن طمأنته أن تحاليلها بخير ،

و لكن مصطفي صمت لم يرد عليها فإنه كان يموت قلقاً عليها حتي طمأنته الآن ، و لكنه هدأ نفسه و أخبرها أنه سيذهب ويسألها .. أغلق الخط و ذهب إلي أمه يحدثها ، ليجد حلاً نهائياً و حاسماً :

- أمي ! ما رأيك فيما قاله عمي ؟!

كان يسأل أمه و في نفسه رافض لرأي عمه ؛ لأنه يعرف أن أخته لن تتحمل أن تعرف أن صديقتها الوحيدة مهددة أن تفقدها في أي وقت .

- أنا لدي حل أفضل سأخبرك به وتخبره إلي عمك ، و بهذا لن يتضرر أحد .

فحدثته أمه ووافق علي رأيها ، و ذهب لعمه و لكنه لم يجده ، فأخبرته حماته ببعض من الماضي و السر الذي تخفيه عن زوجها ، و كان يعلم أن حماته ستدخل الآن في صراع مع نفسها .. صراع آخر غير الذي يسبقه إذا أخبرها سبب مجيئه ، و ما هي إلا لحظات و أتي عمه فحسم بداخله موقفه ، و قرر أن يخبر عمه بما تخفيه زوجته إن لم تخبره هي ، فذهب و تكلم معه علي ما قالته أمه فوافق ، فظل ينظر إلي حماته و اتصل برضوي وأعطاها لها حتي يشغلها فيخبر عمه ، وليته لم يفعل ؛ حيث شرعت الأم في البكاء من أول المكالمة بمبرر الغربة للجميع ، بمبرر الفقدان لمصطفي ، فلم يتحمل بكاءها ، فأخبرها أنها بخير ، و أن التحاليل

الدورية التي تقيمها الجامعة أثبتت أنها بخير ، فابتهجت الأم بطريقة أدهشت زوجها ، تحث مصطفي علي أن يبوح بسرها و لكنه كظم نفسه حتي لا يكون خائن لسرها ، ولا يُحزن عمه أن زوجته أخفت عليه ، و لكنه كان مقتنع أنه إذا أخبر عمه سيصون ما تبقي لها ، فأبقي علي فمه مغلقاً حتي يُحل موضوع أميمة ، فما إن خرج حتي طلب عمه من زوجته تخبر هناء بما حدث لأميمة ، فوافقت الأم علي هذا الحل ، وأخيراً ستخرج أميمة من ظلمتها .

رجع مصطفي إلي بيته ودخل إلي أمه متصنعاً الابتسامة ، فهو محمل بماضي زوجته علي كاهليه ، يحاول أن يتكلم و لكن الكلام لم يخرج من فمه ، بل لم تهتز له الأحبال الصوتية ، و اهتزت له كل أركان جسده وفكره .. كان بداخله شعور الطفل الرضيع وهو يصرخ من شيء يخيفه في أول خطواته من حبوه ، فيجري علي حضن أمه فينسي كل شيء أو يأخذ أمه إلي ما يخيفه وكأنه أتي بمن سيلقنه درساً .. كان يعلم أنها لن تتحمل أن تراه هكذا ، ولكنه كان يتمني أن يأخذ بيدها إلي ما يخيفه ، إلي قلبه ، يمسك بيدها و تمسح علي وجهه علَّ كل دموعه تنزل ، فخرج من عند أمه دون أن يتكلم ، فلم تنتبه عليه أمه النائمة وهي تحتضن أخته التي لا يعرف ماذا ستفعل عندما تعرف أن الرجل الذي رأته لم يكن أبو أميمة !! فبعدما خرج حاول أن يتصل برضوي ،

ولكن ماذا سيقول لها هذه المرة ؟! هل سيكون أول سؤال يسألها كيف حالك ؟! أم يسألها كيف تحملت كل هذا دون همس حتي ؟! بل كيف ستتحمل الأخبار عن أمها وأختها ؟! وندي تلك التي ترقد في المشفى منتظرة شهرها الأخير من التعب والبكاء ؛ لينتهي و تستريح .. ماذا سيخبرها ؟! هل يخبرها أنه صارخٌ علي هذا الماضي ؟! و علي ما عاشته وحدها ، و علي تعيُّشها وحدها في غربتها ؟! و مع هذا اتصل بها ، ولكنها لم ترد .. فإنها كانت تراسل ندي و تتفقد ما تنشره علي صفحتها ، فوجدتها كاتبة .. (و ماذا يا صديقي لو اختبئتُ تحت جعبة حبك لي ، و تحصنت بها ضد كل ما يغضبني ؟! ماذا لو جئتك هاربة من العالم كله حتي من نفسي لتحتضنيني أنت بدلاً عني ؟! لترفقي بي و بحصني من الألم الذي يُشيَّد بداخلنا ، بغير أن ندري بمرور عمرنا ؟! فهل تبقَّى في عباءتك بعض الحنان لتشعري بي ، أم استهلكتِه في تحطيم حصن الألم خاصتك ؟!) .. فلم تصمت رضوي هذه المرة ، بل ردت عليها في رسالة .. (أنا أعتذر لأني لم أشعر بوجعك ، متأسفة لأني وعدتك بأني سأكون بجانبك .. هل تذكرين ؟! عندما قلت لك سأظل معك حتي النهاية ، ولن أكن من أولئك الذين يستمتعون بجمال البدايات ، ويرحلوا بعد أن نكون قد أعطيناهم جزءاً من مشاعرنا .. عواطفنا .. أعطيناهم جزءاً من أهم ما وهبنا الله ، وهو وقتنا .. أنت كنت تقولين لي أنك لو اختفيت سنة لن يسأل

عليك أحد سوى أهلك ! وماذا كان كلامي حينها ؟! أني سأسأل عليك لو غبتِ يوم واحد ، وكان ردك يا صديقتي أعظم ، فأنت قلتِ لي ومن قال أنكِ لستِ من أهلي ؟! ثم تأتي و تقولين لي أنك لا تعرفين كيف تعبرين عن حبك ، وأنت تعبرين عنه في كل ثانيه ببساطتك ، وبصدق ملامحك ، وبراءة عينيك في زمن أضحي فيه كذب الكلام وكذب المشاعر وكذب الملامح شائعاً .. لا أريدك أن تزيني الكلام ، أنا أعشق تلك الكلمات الثلاث ، أعشقهم كعشق العطشان للماء ، ولكن لماذا قلمك فيه وجع لدرجة تؤلم القلب ، وتعذب الفكر .. حتي كتابتك ؟! ما سبب بكاؤك الذي تكتميه بداخلك ؟! ماذا بك يا غاليتي ؟! أنا لو كان بإمكاني لأتيت لك الآن وضممتك ومسحت دموعك الغالية ، ولكن صدقيني قلبانا معاً دائماً متماسكين ، ولو كان بيننا السبع محيطات .. فلماذا تبكين ؟! أما عن جعبتي فتعالي وخذيها كلها ، فإنها وُجدت منك لأجلك !)
.. كتبت الرسالة و لكن ندي لم ترد هذه المرة ، فقد تأزمت حالتها وأرهقت ، و أمر الطبيب أن تُعزل لوحدها حتي لا يخاف أهل المرضى الآخرين ، ومنع عنها الزيارة حتي أمها وظلت هكذا لمدة أسبوع دون أن تتكلم مع أحد ، حتي أتت أمها ومعها هاتفها بعدما أتاح لها الطبيب استخدامه ، فطلبت أمها منها أن تحكي لرضوي ، ولكنها ظلت تنظر لأمها وتسأل نفسها .. كيف حالك يا أمي ؟! هل إذا سألتك ستجبين بالحقيقة أم ستصمتين كعادتك ؟!

فكان أقصي طموح تلك الفتاة أن تطمئن علي حال أمها فسألتها :
- كيف حالك يا أمي ؟!
- بخير و لكن تحدثي مع رضوي ! تحدثي مع أحد حاولي أن تتكلمي !
نظرت الفتاة المتشقق قلبها علي أمها ، و قالت :
- أمي ! هناك صحة الفكر ، وصحة القلب ، وصحة الستر ، وصحة البدن ، و إذا ابتلاني الله في صحة البدن ، فله حكمته التي قد لا نبصرها ، و لكن أنا لدي الثلاث الباقية ، و أنا فرحة بهم وسعيدة لا أود أن أتكلم مع أحد عن حالتي ، وإذا وددت هل يجوز لي أن أخبرها ؟! بل هل من حقي أن أحزنها ؟! وإن كان من حقي أن اشاركها حزني فإني أتنازل عنه لكي أراها فرحة مبتسمة .. وما ذنبها !! هل أني صديقتها ؟! كلا يا أمي ، إن لم أكن بصيص النور في حياتها ، فلن أكون أبداً من يقودها للدموع ، لن أكون سبباً في أن تفتح ذراعيها للحزن لتستقبله من أجلي ، لن أجعلها تذرف دمعة علىَّ من ورائي وتأتي لتصبرني و أنا أعلم أنه لن يصبرها أحد .. أأقول لها أن لدي مرض في الأعصاب يصيب البشر بمعدل واحد في المليون ؟! و كنت أنا الواحد في المليون خاصتي !! يا أمي أنا بخير ولننهي حوار المرض هذا ، فإني أختنق منه ، فالجميع مريض وما الضرر الذي وقع علي العالم ؟! لا شيء ، فإنه ليس بلاء ليلتفت له العالم أجمع فيجدوا له علاج ، وأما بالنسبة لي فقد كنت أنهار

في غرفتي وحدي ، أنظر من شباك غرفتي و أقول أنت تراني يا الله ، ثم أمسك بإحدى يداي يدي الأخرى التي كنت أعجز عن تحريكها ، و أضعها علي قلبي وأقول .. الله يراني يا نفسي أهدئي !
صمتت قليلاً ، ثم قالت :
- أتعرفين ما العجيب ؟! أني بمرور الوقت هدأت حقاً ، وشعرت بالرضا بل وابتسمت وخرجت من عتمتي تلك ، و تالله تعلمت أننا في بعض الأمور نهلك أنفسنا ونحن لا ندري ماذا إذا رضينا بقضاء الله !! فما أجمل قلوبنا عندما ترضي ! فالخيار في يدك ، إما أن تبكي عليَّ طوال العمر ، و إما أن تفرحي معي ! فأنا سأغادر .. اليوم سيغادرني كل ألم في بطني من كثرة الأدوية .. ستغادرني رائحة المستشفى .. ستفارقني دمعتك ! فلنخرج ونبدأ حياة جديدة .. كما إني متخذة قراري أني لن أتكلم مع أحد ، بل و بمشيئة الله سيفارقني المرض بوجعه و آهاته ، حتى بصوت الليل المخيف .. سأصطحب الآن ضحكة معي .. سأصطحب الرضا .. سأصطحب نظرة من عينيكِ تخفف ما قضيته هنا ، لا يهم كم تعبت و كم بكيت ، المهم أني تعافيت و خرجت ، المهم أني لن أبتعد عنك مرة أخري .. ربما أضحيتُ ندى المشوهه قليلاً لا أنكر هذا ، و لكني علي الرغم من التشوه الداخلي سأتخطى كل الأيام التي كنت أسأل نفسي فيها من أنا دون أن أجد جواب على نفسي .. سأرحل من هنا مفارقة دموعي و صمتي و كتماني .. سنبدأ من

جديد !!
ابتسمت الأم و قالت لابنتها :
-أعاهدك أني سأدفع ثمن دموعك كلها بضحك و فرح و هدوء ، و لكن عليكِ ان تتحملين ليوم آخر .. عليكِ أن تحاربين لآخر يوم و هذه المرة من أجل أبيكِ ، من أجل كبريائكِ ، و لتغلق هذه الصفحة من حياتنا .
- حسناً يا أمي ! لا تقلقي أنا أفهم ما تريدين قوله .
خرجت ندي حامدة الله ، ولكنها وجدت مصطفي يرن عليها ، ففوجئت و عندما ردت عليه جعلها تدمع ، فاتصلت بصديقتها رضوي و كانت ندي تضحك من بداية المكالمة ، وعندما سألتها رضوي عن سبب ضحكها ردت عليها قائلةً .. (لربما في البعد عشق متطرف مستعصي) .. فعَلَتْ ضحكة رضوي وقالت ..
(ثم إن الحلم يحلو معك يا صديقتي !) .. فشعرت ندي بسعادة بداخلها من ردها ، جعلت أمها بجانبها تذرف الدمع مبتسمةً ، و أخبرتها أنها لم تفهم شيئاً من الجملة ، ولكنها تشعر أن معناها عميق ، وحاولت أن تفهم رضوي معني الجملة ، فضحكت ندي و أخبرتها أن تسأل مصطفي ، فاتصلت به بعد أن أغلقت معها ، و لكنه لم يرد ، بل رد عليها أبوها فقال لها ...
(من قال أن البعيد عن العين بعيد عن القلب ؟! من المؤكد أنه لم يراك قط .. فأنتِ من يراك لن تبعدين عن خاطره و لو ثانيةً!)

فتعجبت رضوي من كلام أبيها فسلمت عليه ، وظلت تتحدث معه لوقت ، ثم طلبت منه أن يعطيها مصطفي فتكلمت أمها و قالت .. (قد سُطرت كل قوانين الحب و دستور العشق قبل ولادتك ، و لكنها لم تطبق علي مر العصور إلا علي محبوبك ، فهنيئاً لمن أحبك فتمتع بالحياة ونظرة السعادة تحت جلباب حبك !) ضحكت رضوي و ابتسمت و ظلت تتكلم مع أمها و تطمئن عليها و طلبت منها أن تعطيها مصطفي ، فسمعت صوتاً صغيراً يتكلم .. (في وصفك تُغزل كل المشاكل لتتحول إلي بهجة زاهية .. تضفي علي القلب الهدوء !) .. ابتسمت رضوي وظلت متعجبة فقد كانت أماني من تتكلم ، فلم تفهم رضوي شيء و أعقبتها هناء وقالت لها .. (برؤيتك تُعاد للروح هوية الطفولة والبراءة والمرح خاصتها ، و كأن رؤيتك تطهير لكل ذاك الغبار من الألم و الحزن من تسربات الماضي المبلل بدموع آهاتنا ، المصاحب بصرخاتنا الصامتة .. رُزقت الرحمة في الدنيا علي هيئة أخت .. أدامك الله !) .. ظلت رضوي تبكي بعد كلام أختها هناء حتي سمعت .. (بصوت ضحكتك أكتفي من العالم أجمع ، فتكون ابتسامتك هي زاوية الانفراجة في قلبي التي رزقني بها الله !) .. ظلت رضوي بعد كلام مصطفي تضحك حتي طلب منها مصطفي أن تفتح الكاميرا ، و لكنها رفضت فتعجب مصطفي ، فأخبرته أنها ليست في البيت و أنها يجب أن تغلق ، فبعد أن أغلق معها ترك

أخته مع هناء لتفهمها كل شيء .. كان الجميع في البيت متخوف علي هناء ، و لكن علم أبيها أن هذا الحل الوحيد لهؤلاء الفتيات الثلاث ، و خصوصاً أن أماني قد تعبت بعد أن عرفت حقيقة أميمة ، وأنها لن تتحمل أن تعرف أن هناء لديها مشاكل في مخها ، فجعل زوجته تفهم ابنته أن أماني كانت في حالة نفسية سيئة دون ان تخبرها السبب .

ظلت أماني تنظر ولا تتكلم ، ثم قالت :

-اشتقت لرؤيتك ، و ما كنت لأراكي لولا المفاجئة التي رتبها مصطفي لرضوي أختك ، أريد أن أخبرك بشيء .. آخر مرة ذهبنا فيها لأميمة حدثت لأميمة حادثة ... .

هنا أمسكت هناء قلبها و لم تتحمل ، وسألت أماني بنبرة تعبر عن خوفها :

-أي مرة تلك ؟! و ما هي الحادثة ؟! هل هي بخير ؟!!

و لكن أماني لم تكن تعرف كيف ترد علي هناء !! كيف تقول لها أنها تخلت عنها و تركتها !! فحاولت أن تهدأ هناء كذباً قائلةً :

- أنها بخير ، وعليكِ أن تسمعيني الآن جيداً !

فاستكملت حديثها مُخبرة إياها أنها عندما كانوا عندها في آخر مرة ، و طلبت من أميمة كوب ماء و من كثرة بكائها علي أخيها المتوفي ، ارتعشت يداها فأسقطت الكوب علي مشترك كهربائي ، و كانت قدمها عليه فتعرضت لحرق في قدمها ! توقفت أماني عند

رؤية دموع هناء ، فقالت :
- لقد أنقذتُها و فصلت الكهرباء .. لن أنكر أن قدمها تضررت ، ولكنها بخير !
ثم أخبرتها بما حدث في المشفى ، و أن الطبيب أخبر مصطفي أنك تعرضتِ لصدمة ، وعندما تستيقظين ربما ستكونين فاقدة لكل ما حدث معك .
لم تستطع أماني تحمل تصرف هناء ، فقالت لها :
- اسمعي ! حاولي أن تنظري لي ، لا تبعدين بنظرك عني ! أنا أشعر بأني أُقتل هكذا ! أنا ليس لي أخت و كنتما أختاي ، ولكن ما رأيته لم يكن سهلاً إطلاقاً ، فأنت كان مغشي عليك ، و كانت أميمة تصرخ بأعلى صوت لأختها و تقول لها أنها من فعلت فيها هذا ، و أنها كلما دخلت غرفتها و لمست ورقة تنتقل من خلالها لعالم مختلف مخيف لدرجة موحشة تكسر حيوية المرء و تضيع طمأنينته ، فأخذوا أختها للشرطة ، و ذهبت أنا صباحاً للشرطة بعد أن عرفت أن أميمة قد احتُجزت في مشفى للأعصاب ، و في قسم الشرطة وجدت أبو أميمة الذي قالت أنه مات منذ سنة ، فانهار كل شيء بداخلي وخارجي ، حتي رجلاي لم يعودا يحتملاني ، فوقعت علي الأرض .. هذا كل ما حدث ، حاولي أن تتكلمي معي ،
كانت هناء تستمع لها فقط دون أن تفعل أي شيء ، حتي دون

أن تنظر إليها فاستكملت أماني حديثها قائلةً :
- ظللت طوال المدة السابقة مقتنعة أن خال أميمة هو أبيها ، و لم أكن أعرف كيف أتأكد ، بل و مرضت أيضاً و أخبر الطبيب أهلي أنه يجب أن أبتعد عن كل ما يسبب لي الإزعاج ، و أنتِ كنتِ مريضة ، وأميمة كانت وحيدة .. أنا لا أريدك أن تحكمي عليَّ ، فأنا فقدت أبي و كيف لي أن أعرف أن خالها ليس أبيها ؟! و أنا أراها كل يوم بعد أن نخرج من المدرسة تهرع إليه و تقول له أبي ! حاولي أن تفهمي ! أن تنظري لي !
فردت عليها بهدوء قائلةً :
- أماني ! أنا لست غاضبة منك ، أمي قد أخبرتني ببعض ما حدث و خصوصاً عن مشاعرك حينها ، فأنا أتفهم كيف كانت مشاعرك! قد حكت لي حتي لا أجرحك في كلامي أو ردة فعلي ! صدقيني أنا فقط أريد أن أطمئن علي صديقتي .. هذا كل ما يفرق معي! ما حدث كان قدر الله .. فأباها مات بعد ولادة أخيها الصغير بأسبوع ، فتكفَّل خالها بها ، لهذا تناديه بأبي ، و لكنه سافر قبل سنة لهذا شعرت باليتم .
كانت ردة فعلها مغايرة لتصور أماني ، فقد كانت تتخيل أنها ستلومها لتركها أميمة وحدها ، و هي كانت تحتاج لها ، بل تعجب مصطفي و أبيها أيضًا حينما وجدا هناء خارجة من غرفتها ، و بكل هدوء تطلب من أبيها الإذن لكي تذهب لصديقتها أميمة،

فذهبت و أماني و مصطفي إليها في مشفى الطب النفسي و لكنهم صدموا من الخبر ، فقد كانت أميمة تلك الطفلة المسكينة بكل ما حدث لها من جروح التي لم تكن تندمل بل تتوغل و تتزايد جسدياً و ذهنياً ، فقد حدث حالة انتحار في المشفى و حالة سرقة للأدوية المخدرة ، و في الحالتين كانت هناك صلة بأميمة ، فرحلوا دون أن يجبروا بخاطر نور الهدي ، أختها التي سعت بشتي الطرق لإقناع مصطفي حتي تأتي أماني و تخبر أختها الحقيقة ، فبكى علي أميمة و لكنه مسح دموعه قبل أن تراها أخته التي كانت تنظر لهناء ، التي أعلنت الصمت دون حتي أن تبكي أو تهمس بشيء ، سوي أنها طلبت من مصطفي أن يتصل بأختها رضوي ، فلم يستطع أن يرفض لها طلبها مع إنه لا يريد لرضوي أن تعرف بكل هذا ، فاتصل بها و لكنها لم تجب فحاول مرة أخرى ، ولكنها لم تجب فقلق عليها فظل يرن عليها ، و كل مرة لم ترد فيها كان يزداد قلقه عليها ، و لكن قلقه كان مشتبه بأن يكون في محله ، حيث كانت رضوي بخير و لكنها كانت ترتعب بداخلها لما يجري مع آلاء التي ذهبت إليها باكية و تسألها عن أي ذكريات معها ، و لم تكن رضوي تفهم ما هو سؤالها ؟! فسألتها رضوي عن سبب بكائها فأخبرتها آلاء أن زوجها كان يقول لها دائماً .. (أنه كان يتذكر حديثها مع أمها و آلاء ، حيث تقول لها كم مرة أتيت بابك و نسيتِ فيها ملامح وجهي ، بل تنسين من أنا !

إلا أنك دائماً كنتي تنظرين إليَّ نظرةً حنونةً عاطفةً ، ربما أصبتِ بالزهايمر في فكرك ، و لكنه لم يصيبك في مشاعرك فكنتي دائماً ، تربتين علي كتفي دون حتي أن تعلمي أنني ابنتك ، فمن قال أن الحب يُنسى أو يقل بالبعد فإنه منافق ، بل لم يعرف ما هو الحب !! لا يقل الحب بعدم الاهتمام ، و لكنه قد تتراكم عليه مسؤوليات الزمن ، لهذا نحتاج الاهتمام حتي يعلو هو الزمن .)

صمتت آلاء ، و نظرت لها باكية ، ثم قالت :

- و لكن لم أهمل حبه ، بل اهتممت به .. فلماذا انعدم حبه ؟! هل انعدمت الجاذبية في المكان الذي كنت أسكن فيه قلبه ، فتطايرت أنا ؟! أم ماذا حدث ؟! لماذا يخونني و أنا برغم ما فقدته إلا إني كنت متمسكة به ؟! نسيت كل العالم إلا هو ! فماذا حل به اليوم ليهملني إلي هذه الدرجة ؟! أنا أشعر أني خرجت إلي فوق الأرض منذ أسبوع .. وهو منذ إحساسي أني تعافيت لم أجده بجانبي .

كانت رضوي تنظر متعجبة ، و آلاء تخبرها أنها سمعته يتحدث مع الطبيب عن آ١ و آ ٢ ، فلم تكن تفهم شيء حتي تكلمت معه ، فأخبرها أنها قردته التي تستميت علي رفقته .

فزادت دموعها ، و قالت بنبرة باكية مستنفرة :

- هل رأيت يوماً إنسان يفضل رفقة القردة علي حساب زوجته ، و يعتزل البشر !! و لكني أقسم أنه لم يكن يوجد قردة في بيتي

حتي سألته عن مكانها ، فهو كان يجلس معي ليل نهار ، و ذهنه ليس معي فوجدته أول أمس يأتي لي بقردة يخبرني أنها آ٢ ، كرهت نفسي بسبب سؤالي له و بسبب تجسسي على محادثاته مع الطبيب ، كرهت كل شيء بي ... إلا ذاك الجزء الذي يحبه .. إلا شعوري أني أحبه و أنه سندي مهما غارت عليَّ الدنيا .. فأين هو الآن أنا ؟! لا أتذكر أي شيء قبل أسبوع ، فأخبريني أنت .. ماذا كنت أفعل معك منذ أسبوع ؟! هل رأيتني أنا أجرح أمامك الآن كما جرحت أمام نفسي من قبل ؟! أنا لدرجة غضبي خرجت دون أن أخبر زوجي !

كانت رضوي تنظر لها و بداخلها شيء يقول أنها ليست آلاء التي تعرفها حتي أغمي عليها ، فهرعت إليها واتصلت بزوجها ليأتي إليها ، فصدمت رضوي من ردة فعله حيث أرسل إليها طبيبين و ممرضة ، ولم يأت ، و خصوصاً أنها لم تطمئن له عندما كانت تتعالج في بيته .. تركت رضوي تفكيرها في آلاء لتذهب بعقلها حد الجنون عندما أزاحت سريرها من مكانه لتنظف غرفتها ، فعندما ارتطم الحائط بالسرير تساقط عليها ورق كثير ، فأمسكت بورقة فقرأت .. (هل ستكسر صوت الخوف حتي من داخلك ؟! هيهات أنت قد تكسره أمام الناس أما داخلك سيظل مرتعباً هائماً بين كل حدب و صوب دون الهدى لسبيل واحد ، بل ستظل روحك مشتتة بين ما تريد و بين وضعها الحالي

دون اللجوء لزاوية واحدة تخفف من حدة متاعبك !! لقد كُتب عليك الشقاء إلي رحمة الله !) .. و لكنها في النهاية صدمت من التوقيع و ظلت تفكر فاتصلت بآلاء بغيةً منها أن تساعدها ، فلم تجب فاتصلت بخادمتها ، وطلبت منها أن تكلم سيدتها فأعطت الخادمة لآلاء الهاتف ، و ما كادت رضوي تخبرها حتي أخبرتها أن زوجها قد أخذ هاتفها و خرج من غرفتها ليهاتف الطبيب ، و كان يظن أنها ما زالت فاقدة الوعي فسمعته يقول .. (مرحباً ، أنا أريد أن استرجع ما لديك بأقصى سرعة ، وأريد رجلنا في الحال أسرع ! لم يعد هناك مفر ، لقد كادت آ٢ أن تخرب كل ما لدينا .. لقد خرجت اليوم دون أن تخبرني ! فأسرع لقد كادت تهرب من مسارنا ! كما أن تلك الفتاة لم يؤثر عليها بعد أيٍّ من مخططاتنا ، بل تحدث أشياء معها لم تكن في بالنا ! فأسرع و جدّْ حلاً !) .. فأخبرتني أنها خائفة منه ؛ حيث أنه أخبر الطبيب أنه يريد هذه الفتاة بالأخص ، وأخبره أن يفعل ما يشاء حتي ينهي المشروع .. فشعرت أنه تغيَّر خاصةً عندما سألته :

- من هي هذه الفتاة ؟!

همهم قائلاً بصوتٍ منخفضٍ :

-لو لم تكوني تشبهينها ، و أني أريد دماغك هذه ما كنت لأصبر عليك !

فهو كان يظن أني لا أسمعه و كأني صماء ، ثم وضع يده علي رأسي

و بدأ يردد بعض الكلمات .. لم تكن تفهم منه شيء .. كان كلام غريب مهمهم ، ثم أعطاها الهاتف لترن عليها و لكنها لم ترد .
كانت رضوي تستمع لها و هي تستعجب فلم ترد ، و كذلك آلاء صمتت فجأة فأخبرتها الخادمة أنها نامت ، فأغلقت رضوي و بعد أن جمعت الورق المكتوب عليه و ذهبت إلي الجامعة لتري أنها قد حُولت إلي معالج نفسي ، دون أن تفهم ما السبب ! فبدون وعي رنت علي مصطفي ، الذي كان يستشاط من القلق عليها ، و لكنه لم يرد ، فهو كان جالس مع والدها و والدتها يخبرهم بما حدث لأميمة تاركاً أخته وهناء في غرفة رضوي ؛ حتي لا يسمعوا حديثه ، و لكنه فوجئ بأخته خارجة تبكي عليه ، تخبره أن هناء تُصر أن تذهب إلى أميمة صديقتها ، و تصرخ علي أمها !
- لقد اخبرتني أنني كنت مريضة ولم يكن لي حول و لا قوة ، فماذا الآن يا أمي ؟! هل أنا مريضة الآن ؟! و إن يكن ، أين صديقتي ؟! ألم تخبريني أنها بخير ؟! فأين الخير هذا ؟!
و صرخت هناء بأعلى صوت قائلةً :
- أين هو الخير أين صديقتي ؟! يا ربي أنت تعلم أين هي فأحضرها لي يا رب !
كانت نبرتها بدأت تنخفض حتي أصبحت تبكي دون همس ، فقامت أمها و احتضنت هناء و أماني و أدخلتهما إلي غرفتها ، ثم طلبت من زوج ابنتها أن يحاول مجدداً أن يتصل بنور الهدي فلم

ترد ، فحاول أن يتصل بخالها فكان هاتفه مغلق ، فظل أبو رضوي قلقاً على ابنته التي تبكي بهستيريا ، وظلت هكذا بعد أن رحل مصطفي و معه أخته ، و كان يريد أن يرد علي رضوي التي ترن عليه ، و لكنه لم يكن يريد أن تلاحظ أخته أنه يصرف اهتمامه عنها ، فتحزن منه حزناً لن تنساه و هي مشاعرها مرهفة ، فكان حينها يتذكر جملة أمه .. (ما أجمل أن نُرزق بمن يراعينا ! يتحمل حزننا و غضبنا و أمورنا الشخصية المصّغرة للبعض دون أن يتذمر أو يقلل من شأنها ! بل يجعل همك همه و يواسيك و يطهرك من ضعف الحزن و كسرته ؛ ليحوله إلي قوة و تجربة بدرس مستفاد لم تُكسر منه ، بل اشتدت به و عظُمت همتك و قوتك ، فتكون الحياة تجارب و دروس مستفادة بمتعة الإيمان ، واليقين أن معك من يساندك !) .. فلم يرد علي رضوته ، وهي كانت واقفة عاجزة دون أن تتكلم أو ترد علي المسؤول عنها في الكلية ، فذهبت إلي الطبيب و لكنه أخبرها أنها بخير فكانت سعيدة !

الفصل العاشر :-

- غموضٌ -

رجعت إلي البيت و معها الورق ، و رنت علي آلاء فردت عليها ، فأخبرتها رضوي هذه المرة بما وجدته فذهلت ، و بعد أن سمعت كلام رضوي ورأت الورق أغشي عليها ، فاتصلت رضوي علي زوجها و هذه المرة أتي هو وأخذها ، فغضبت رضوي كثيراً من طريقته معها ، و بعد أن رحلا ظلتْ تفكر من هي آ١ ؟! ومن هي آ٢ ؟! و لماذا آلاء حزينة هكذا ؟! و كيف تكون آ ٢ قردة ؟! فشعرت بالوحدة من كثرة تفكيرها ، و غضبت أيضاً من مصطفي ، لأنه لم يرن عليها فرنت علي ندي صديقتها ، وظلت تكلمها حتي سألت ندي كيف عرفت أنها سافرت ، فأخبرتها أن تسأل زوجها .. لم تكن ندي تريد أن تكذب و أنها عرفت منذ أن بدأت حقيقتها ، التي كانت تجاهد حتي تخفيها تتكشف حين شرعت تبكي بكاءاً مريراً بصوتٍ عالٍ ، وبدأت تتحرك تحركات مخيفة وتقف وترمي نفسها علي الأرض ، وتصرخ وتضرب بجسدها عرض الحائط وتمسك رأسها كمن يكون لديه صداع ، بل تكاد رأسه تنفجر منه ، وتشد شعرها وتصرخ وتلطم خديها .. فأخذها أهلها إلي الطبيب ، فأخبرهم أنها تحتاج إلي طبيب أعصاب نفسية ، فأخذ أهلها ابنتهم وهي بهذه الحالة إلي الطبيب النفسي ، وكانوا

وهم في الطريق الناس تنظر لابنتهم ، وتخاف وتبتعد عنهم ، وكانوا يدعون لابنتهم ، ولكن كانت النظرة علي وجوههم مخيفة تعبر عما بداخلهم من خوف ، كأنهم رأوا عفريتاً وليس شخصاً مريضاً! و بخاصة تلك الأم التي سحبت ابنها من ذراعه بقوة .. ذاك الطفل الصغير الذي وقف أمامها و أضحي يقلد حركاتها ، فلم تنجرح منه بقدر ما انجرحت من كلمة أمه ، حين سحبته قائلةً له إنها مجنونة ! وما زادها عندما أخبر الطبيب أهلها أنها دخلت في حالة عصبية صعبة ، وسألهم إذا ما تعرضت لظروف أثرت علي نفسيتها ، فكان يسأل عن السبب الذي أوصلها لهذه الحالة! ولكن أهلها لم يعرفوا ، فسألهم إذا كان لها صديقة مقربة ربما تعرف هي ، وأخبرهم أنه يريد أن يري صديقتها تلك لربما عرفت هي ، فهرعت أم ندي إلي بيت رضوي وظلت تطرق الباب لتجدها قد سافرت منذ شهر أو شهرين ، لم تُرِدْ ندي أن تعرف رضوي أنها مريضة ، فلذلك طلبت منها أن تسأل مصطفي ، فسألتها لماذا تسأل مصطفي ؟! فأخبرتها أنه من أعطاها الرقم ، وهو من أخبرها عن ردة فعلها عندما أرسلت لها رسالتها بعد أن سافرت ، فظلت رضوي تضحك فضحكت ندي و تعالَى صوتها في الضحك ، فكانت أمها فرحة مبتهجة لابنتها التي عانت شهراً من العزلة وحدها ، ومن نظرات الناس لها بعد أن رجعت إلي البيت ، وما أثَّر فيها نظرات زوجها لابنته الذي لم يكن يعرف لكونه في

غيبوبة . ظلت أمها هكذا حتي أغلقت ندي بعد أن أخبرتها أن مصطفي هو من قال لها أن تقول ، ربما في البعد عشق متطرف مستعصي ، فأرادت أن تتصل به و لكن كان الوقت قد تأخر ، فلم ترد أن تزعجه فانتظرت حتي الصباح ، ولكنها انشغلت و في آخر النهار رنت عليه ، و قالت له قبل أن تسمع صوته :

-مرحباً ! يا بهجة عمر ، وشريان حياة ، وملجأ من الأحزان ، وبركان فرحة ، وعاصفة أمل تعصف بالحزن و تسحقه ، ونهر طموح وطوفان سعادة وحب وأمان ، يا أحلى من أن تقارن بأي إنسان ، يا سكينة وهدوء فوق الخيال .. أحبك وأعشقك يا غالي .. يا قصة حب ستخلد في كل الأزمان شكراً لك ! كلمة شكر لن توفي حقك فشكراً علي حبك لي .. علي صون مشاعرك لي .. شكراً لأنك زوجي .. شكراً لأني زوجتك ، ليتني أراك الآن ! أقسم بالله أني أشعر الآن برغبة رؤيتك و كأني نسيت العالم أجمع بين جفنيك ! وكأني تركت نفسي و عشقي يسافرون إلي قلبك الآن ، فأتوه بين ابتسامتك فأكون جزءاً لا يتجزأ منك !

كان مصطفي يستمع لها و يبتسم حتي صمتت ، ولثاني مرة يبكي أمامها فسمعت صوت بكاءه ، فسألته ماذا به ، فأجابها :

- لقد كنتِ أنتِ !

لم تفهم شيء فصمتت ، ولكنه استأنف حديثه قائلاً :

- أنتِ و لا أحد سواكِ .. أنتِ نصر الله و رحمته لي أمام نفسي !

أنتِ من نصفتني أمام نفسي ! أنتِ و لا أحد سواكِ ! ما رأيك أن آتي آخذك لترجعي ليوم أو إثنين ، و بعدها تعودين مرةً أخرى ؟!
كان مصطفي متخذ هذا القرار بعد أن بدأ يستشعر أن حماته حزينة ، بعد أن فشل أن يخبر عمه لأنه لم يقبل أن يكسر خاطر عمه ، بعد ما قد خسر ما خسره .. فظل يلح عليها ، و يقنعها أن يذهب ليأخذها ، و لكنها رفضت لأن لديها امتحانات خلال يومين ، فلم يبقي له إلا حلٌ واحدٌ ، وهو أن يذهب إلي حماته ليقنعها أن تخبر زوجها حتي يخف وجعها ، فذهب إليها بحجة نور الهدي التي اتصلت به ، وأخذ معه أخته و كان عمه في عمله فدخلت أماني إلي هناء ، التي كانت ترفض تخرج من غرفتها ، فجلس مع حماته و أخبرها محاولاً أن يستعطفها أن تخبر زوجها فأوقفته قائلةً :
- مصطفي ! حاول أن تفكر كيف سأقول له ! جد لي طريقة و سأخبره ! أنا تخيلت نفسي و أنا أخبره فوردت علي ذهني جملة واحدة .. (مهما سيمر علينا من حلو لن ننسي أبداً هذا الموقف ، ومشاعره التي ستعقبه حتي الموعد الموعود !) و مع هذا حاولت أن أخبره ، وتخيلت المشهد .. سأحكيه علّك تتفهم وضعي .
بدأت إخباره قائلةً :
- أعلم بما تمر به جيداً ، ولكن هناك ما يتوجب علي أن أخبرك به .. نحن فقراء ولم نحزن يوماً علي فقرنا وصبرنا ، ورزقنا الله

بابنتين مثال للأدب والاحترام ، كنت أحس بقلقك علي رضوي عندما كانت تعمل لتجمع مصاريف الإقامة لمنحتها ، وكنا نفرح علي قدر المستطاع ، كنا دائماً نجري وراء ما يسعدنا لنسعد ، وكان الله يعوضنا .

ولكن فجأة أصمت صمتاً يقتل قلبي فتبدأ دموعي تنهمر فأخذت القرار فتسيل علي وجهي .. تلك الدموع التي كنت أخفيها منذ أيام وأكتمها ، ولكن ليس بعد اليوم من صمت ، فعلا صوتي وأجهشت بالبكاء .. قد انفجر كل ما فيَّ ليلتحقوا بقلبي المفجر الذي ينزف بصمت ، ورغم هذا لساني عاجز أن يخبر زوجي ! وما إن أجهشت بالبكاء ، يأتي هو إليَّ يربت علي كتفي قائلاً :

- درة قلبي ! لما كل هذا البكاء ؟! صبراً ! أنت لم تبكين منذ ... .

ثم يتوقف الرجل عن الكلام ، بل يتوقف نبضه فأنظر له نظرة منكسر مستضعف ذليل ومشرد الفكر ، و أحتار هل أطلب منه أن يكمل كلامه ؟! أم أكمله أنا قائلةً منذ موت ولدينا الإثنين؟! أم أصمت يا بني ؟! رأيت أني سأختار الصمت ! وفي هذه الأثناء وبين كل هذا الحزن المقيت ، وكأني معزولة عن العالم في عالم يحاول فيه زوج أن ينتشي زوجته من بكاء لا يعلم سببه .. من عتمةٍ داخل عقلها وشعور ألم يُوجع صدرها ، وتحاول تلك الظلمة الاستيلاء علي زوجته فيحاول الزوج جاهداً ليخرجها من هذه الحالة ، ولكنه لم يستطع فهي تظل تبكي وكأنها كانت تدخر

البكاء طوال المدة الماضية من حياتها كلها ؛ لتخرجه الآن .. امرأة خسرت ولدها و ظل الآخر في الرعاية لمدة سنة ، كل يوم يمر عليها وهي تنتظر أن يستيقظ .. أن تحتضنه وتبكي علي كتفه .. امرأة دفنت جزء و جزء آخر منها يُبتر كل يوم ، وهي عندها أمل أنها ستلملم كل جزء قد رحل وستبقي ناقصة ، ولكنها كانت سترضي بهذا النقص وستتقبله بكل ما لديها ، فماذا تفعل تلك المرأة سوي أن تصمت .. بعد أن لامت زوجها علي موت ولديها ؛ لأنه هو من أرسلهم إلي بيت جدتهم وقت انهيار البيت ، وزوجها يتحملها بكل نظراتها التي ربما يكون الموت ألطف منها ، لتكتشف بعد هذا أنها فكرة ابنتها الكبرى !

نظرت الزوجة ناحية مصطفي وقالت :

- لقد انتهي مشهدي يا مصطفي ، و انتهي كل ماضي المجهول بالنسبة لك ؛ ليصبح معلوم ، انتهي مشهدي دون أن أعترف له بالحقيقة ، بل انتهي علي انتباهي لما قدمه لي طيلة هذه المدة ، انتهي علي سعادتي و أنا قررت أن أسعد ، فامسح دموعك هذه فقد ودعناها داعيين الله ألا يرزقنا بها ثانيةً حتي ولو كانت دموع الفرحة يا بني .. أبي نصحني مرةً قائلاً .. (تعلمي أن تهتمي و يُهتم بكِ ، فأنا أربيكِ للآخرة) .. فهكذا هي الحياة يا بني ، إنما هي للآخرة ، وأنا سأجتهد حتي يعيش زوجي في سعادة ، ربما أنت تراني أني أخطأت في حقه ، وأنا أقول لك إن الله غفور

رحيم ، سيعفو !
كاد مصطفي أن يتكلم ، فأوقفته قائلةً :
- لا أريد أن أتكلم مرة أخري في هذا الموضوع ، وأخبرني كيف حال صغيرتي رضوي ؟!
فأخبرها مصطفي أنها بخير ، وأن لديها الامتحانات في الفترة القادمة ، و أنها اجتازت الامتحانات السابقة لها ببراعة ، بل و أنها أضحت سعيدة بهيستريا بعد مكالمته ، فقد منحتها الكلية كورس لتعلم لغتهم حتي تستطيع أن تتعامل مع الناس ، واجتازت حتي مستوي المبتدئين ، و لكنه لم أن الورق الذي وجدته كان مكتوب بلغتها هي و ليس بلغة تلك البلد ، و ما أثار دهشتها أن بعض الورق لم تكن تفهمه ، مع إن حروفه هي نفس حروف لغتها إلا إن الكلام ليس له معنى ، ولم يكن موقَّع ، وورقة أخري كان التوقيع عليها مختلف عن باقي الورق .. كان التوقيع حرف ورقم ألا وهما آ٢ كان مكتوب فيها .. (سمعت بعضاً يقولون أنهم يعيشون حياتهم في السجود .. يمارسون فيه الأمل واليقين فيحلمون ويسعون .. كنت أشبههم فأنا كنت في الماضي أحلم! أستطيع أن أحلم ! أفلا يكفينا ان نعيش احلامنا و لو حتي لدقائق من الوقت ، تكون كافية لمرور عقرب الساعة علي حياتنا مرور التفاؤل و الأمل ، والله .. تالله كان يكفيني فأنا حينها عندما كان لدي طاقة لأحلم كنت أطمئن عليه كل وقت ،

وكأنه رضيعي الذي أخاف أن أفقده ، شغفي الذي يحافظ علي وجداني بداخله ، فكنت لا أعلم هل كان هو بداخلي أم أنا التي بداخله ؟! أم تداخل بعضنا البعض لنهنأ بعيشنا .. كنت أقاوم حتي بت في مكان لا أسمع فيه صوت نفسي ، و لكني أسمع فيه ضحكة الخوف و هو يتملص مني .. لقد اشتممت فيه رائحة الألم الذي أكننته ، ولكني كنت أهرب منه دائماً و لوقت طويل ، حتي غرست فيه اليوم ، بل تداخل بعضنا و تزاحم عليَّ و بدأتُ أنازعه في الخفاء ، وها قد جاء في العلن فبدأت أتعايش معه دون نقاش في هذا المكان المقيت ، الذي هو جزء مني المفقود فيه ، الشغف والطموح و لا أعلم ما سر فقداني لهذا الشغف ، ربما لم أكن مدركة لواقع الأحلام غير حلاوتها .. لم أكن أدرك مدى التحمل الذي يجب أن أتحمله حتي أتت بعض الكلمات ، فكانت كالحمم البركانية ولكنها لم تعد في مرحلة الثوران بعد لتأتي ثلاث حروف فقط ، لست أنت من تنطق بها ، بل كلك .. قلبك ، وعقلك ، ونفسك ، وكل جزء حي في جسدك يستطيع المقاومة والدفاع ، عن نفسه ليقول كفى ! وكأن كلك لم تعد تنصاع لأمرك ، وأنها قد خانتك ليس انقلابا عليك ، أو عليَّ الذي أمامك ، حتي لو كان من أمامك هو أنت بشخصك ، ولكنها تنقلب بعزلك عن حلمك ليتفرد بك هذا المكان !

جُنت رضوي من أن آلاء لا ترد عليها ، خافت عليها و نامت ليلتها

خائفةً ليس علي آلاء ، بل من أصوات تسمعها بجوار السرير ، و كأن الصوت معها في الغرفة ، و لكنها لم تقم من مكانها ، فهي كانت مرهقة ، وكانت متيقنة أنها أغلقت باب غرفتها جيداً ، فاستيقظت و ظلت تصرخ ، فسمعت صوتاً من إحدى جيرانها تقول لقد بدأت ، كنت أنتظرها حتي ظننت أن ظنوني ستخيب ، و لكن ظنونها حقاً خابت حينما دخل عليها جيرانها ، ووجدوا كلباً أسودا ! فاعتذر أحد الجيران وأخبرهم أن هذا كلبُه ، كان ينزهه كل يوم ، و لكنه البارحة بعد أن نزهه ترك الباب مفتوح ، و أنه ربما تركتْ هذه الفتاة بابها مفتوح فدخل الكلب ، ثم أخذ كلبه و خرج ، و علي الرغم من أنها واثقة أنها أغلقت الباب تغاضت ، ونهضت لتغتسل لتذهب إلي كليتها ، وحرصت علي أن تغلق بابها جيداً ، ولكنها وجدت أن البلاط أمام الباب كان محطما كلياً ، ولا يمكن لهذا أن يكون من الكلب .. فاتصلت بآلاء حتي تشتكي لها و تطمئن عليها ، ففتحت آلاء الخط و لم تنبت ببنت شفة حتي كادت أن تنهار رضوي من الصوت المزعج الذي كانت تسمعه ، فأغلقت الخط و ذهبت إلي كليتها لتجد أنه لديها امتحان مفاجئ ! و هي لم تكن ملمة بكل المواضيع التي يتضمنها الامتحان ! وتذكرت رضوى آخر امتحان امتحنته ، وهو كان بعد خطوبتها بأسبوع ، وعن اهتمام مصطفي بها بعد خروجها ؛ حيث حضر لها مفاجئة وسعدت بها ، فدخلت

الامتحان باسمة ، متذكرة زوجها الذي كان يبحث عن الابتسامة الآن ، حتي اتصلت به نور الهدي فأخذ أخته وذهب إلي حماته ، واستأذنها أن يأخذ هناء ساعة ، وبالفعل وفَّى بكلامه وعاد بعد أن ذهبوا إلي نور الهدي ، ولكن هناء رجعت فرحة مبتهجة ، فتعجبت أمها فطمأنها مصطفي أن أميمة بخير ، وأن خالها واقف في الخارج منتظر أن يشكر عمه ؛ لأنه سمح لهناء رغم تعبها أن تذهب إلي ابنة أخته ، فطلبت من مصطفي أن يدخله و أن عمه سيأتي خلال نصف ساعة ، فخرج و أخبره أن عمه سيأتي قريباً ، فأراد الرجل أن يرحل فأصرَّ عليه ، ولكنه كان يرفض أن يدخل ، وأنه لديه عمل ، وأنه يجب أن يطمئن علي أميمة .. فتركه مصطفي و دخل واستأذن من حماته أن تنادي لأماني ليذهبوا ، ولكنها وجدتها نائمة هي وهناء فلم تُرِدْ أن توقظها ، فخرجت إليه ، وقالت له :

- أنا أرى مرهقتين من الحياة ، قررا سوياً أن يرتاحا بعد شوط تعب خاضوه مرتين ، مرةً في الروايات التي حكمت علي عقولهم أن تكبر ، و مرةً في الواقع مع صديقتهم أميمة .. هما نائمتان الآن فاتركها لبعض الوقت !

فرفض مصطفي و أخبرها أنها يجب أن تذهب معه ؛ لأن أمه لديها موعد مع الطبيب ، ويجب أن يأخذها ، فدخلت حماته وأيقظتها ، وذهبا .. وفي الطريق اتصلت رضوي بمصطفي ، وكانت

منهارة من البكاء ، ولكن المكالمة لم تكتمل فقد انقطعت علي صوت صريخها ، فظل يصرخ مردداً رضوي ! رضوي ! وأخته بجانبه تسأله ماذا حدث لها ؟! فأخبرها أن هاتفها قد سرق ، وظل مصطفي في نفسه يقلق ، ولم يكن في يده إلا أن يذهب إلي أمه ؛ ليأخذها إلي الطبيب .

كان منهاراً ، ولكنه تظاهر أنه بخير أمام أمه ، علي الرغم من أنه كان متأكد أن رضوي ستكون منهارة ، وهو لا يعلم السبب ! و كانت بالفعل منهارة و تبكي حتي نامت ، فهي عادتها أنها كلما حزنت نامت ، وبعد أن استيقظت كلمت مصطفي ، فرد عليها و سألها إذا كانت بخير ، فأخبرته أنها بخير ، وأضطر أن يغلق معها حتي يسأل الطبيب عن حالة أمه بعد فحصها ، وبعد أن أطمئن هو و أخته عن أمهما سألته أخته .. مع من كان يتحدث ؟! فأخبرها أنها سكرتيرته ، تذكره بموعد غدٍ ، فأخذ أخته و أمه إلي البيت ، وذهب إلي شركته و طلب من أحد موظفيه أن يحجز له تذكرة للبلد التي فيها رضوي ؛ حتي يفاجئها ! بينما هي كانت متفاجئة بتصرفات آلاء ، التي أضحت هادئةً تماماً ، متبرجةً ، فسألتها رضوي عن إذا ما كانت بخير ، وعن حال زوجها ، وأرتها الورقة ، فقالت لها :

- أنا بخير وهو بخير ! لا أعرف شيء عن هذه الورقة ، و لكني أتذكر أنها كانت موجودة عندما كنت في الغرفة ، وأني قرأتها كلها

ولم أفهم منها شيئاً ! فتركتها في مكانها .. رضوي ! أنا أستأذنك يجب أن أغادر ، فزوجي ينتظرني ، يمكنك أن تجلسي هنا إلي ما شئتِ !

تضايقت رضوي من طريقة كلامها ، بل شعرت أن آلاء تطردها من بيتها ، فغادرت دون أن تعاتبها علي طريقتها .. رحلت و قلبها مكسور .. كانت تتمني لو أنها في بلدها ؛ لتذهب إلي أمها و تبكي .. كانت لتجد من يحتضنها فذهبت إلي غرفتها لتجد ذلك الكلب واقف أمامها ، فطرقت باب جارتها و طلبت منها أن تخبر زوجها حتي يأتي و يأخذ كلبه ، فأهانتها المرأة و سبتها بالمجنونة، وأغلقت في وجهها الباب ، فرجعت إلي غرفتها ولم تجد الكلب ! فدخلت وجاهدت لكي تتناسي ؛ حتي تدرس من أجل امتحاناتها، فنعست لمدة وقت قصير ، واستيقظت ووجدت غرفتها متسخة، واكتشفت أنها تركت الباب مفتوح ، فقامت وأغلقته و نظفت غرفتها ، ولكنها شعرت بشيء يسكب علي رأسها ، وبشيء يصطدم بها عندما خرجت من غرفتها في الصباح ، فرجعت و استحممت، وعندما خرجت كان الليل قد حلَّ ، وقد ضاع عليها الامتحان ، فجُنَّ جنونها ، وعلي الرغم أن بداخلها كان يصرخ تعباً .. ظلت مستيقظة تنتظر الصباح حتي تهرع إلي آلاء ، ولكنها غفلت لتستيقظ ، وتجد أن المساء التالي قد حل ، فخرجت رضوي من بيتها و ذهبت إلي آلاء ، فوجدتها تقيم حفلة كبيرة كان فيها

أناس مخيفين ، أشكالهم تنم عن الضياع فاستأذنت الخادمة أن تنادي لسيدتها آلاء ، فذهبت الخادمة وأعطت خبراً لسيدتها ، فأخبرتها أن تقول لها أنها ليس لديها وقت الآن ، فهي مع ضيوفها .. فغادرت متمنية لو أن تري صديقتها ندي ، تري تلك الابتسامة التي كانت تثلج صدرها ولا تقفل أمامها باب ، فتريح نفسها ، وكان شعورها تبادله ندي ، التي كانت في غرفتها ممسكة بألبوم صورها مع رضوي ، وتفكر فيها ، وتدعو لها الله أن تكون بخير ، وسرحت في الموقف الذي رأته عندما كانت في المشفى ، حين رأت طبيبتها تهرع إلي زوجها ووضعت وجهها في البالطو الخاص به ، وظلت تبكي بعد أن سمعت بموت أبيها ! فأخذها الطبيب و هي يضع يده علي كتفها ، ويسندها ! هذا الموقف خفف عنها الكثير وأراح قلبها مما كان فيه .. حينها رأت أن القوة قد نستمدها من الحب .. أن الاحتواء ليس شرطاً أن يكون مُدْرجاً تحت الوجود الدائم ، بل تحت الوجود في الوقت الملائم .. أن الاهتمام معناه التواجد وقت الحاجة .. وأن الأنوثة ليس في الصوت المنخفض أو الهدوء ، بل في المودة ، في العاطفة التي تُوجَّه نحو ما يرضي الله! فالأنوثة تعني العفة و ليس العفة بالمظهر فقط ! بل إن العفة عفة بصر ، وفكر ، وقلب ، وعفة جسد .

كانت ندي تتقبل مرضها ، فرزقها الله بدرس تتعلمه عن الحب ، وبعد خروجها من المشفى قد رزقت به ؛ حيث تقدم لها عريس

طبيب أخو تلك الطبيبة التي مات أبيها ، وكانت تتصل برضوي حتي تخبرها ، ولكن رضوي لم تكن ترد ! انتظرت أسبوع و لكن كان الوضع قائم ، لا ترد علي هاتفها ، ولم يستطع مصطفي أيضاً أن يهاتفها ، فهاتفها قد سُرق و لم يستطع أن يسافر إليها ، فأمه كانت مريضة و يتوجب أن تتجهز لعملية كبيرة خلال أسبوع ، فأرسل أماني إلي بيت رضوي حتي تجلس عندهم هذا الأسبوع، فذهب إليهم ، ولكنه وجد خال أميمة ومعه أميمة ، فاستأذن مصطفي عمه في الرحيل بعد أن ترك أخته مع صديقتيها ، فأذن له عمه ؛ لأنه لم يرد أن يسمع حديثه مع خال أميمة ، وطلب من زوجته أن تغلق الباب علي الثلاث فتيات ؛ حتي لا تخرج إحداهن و هما يتحدثان .. فبدأ خال أميمة الحديث معبِّراً عن شكره لأبو هناء ؛ لإرساله لهناء رغم حالتها تلك ، فأخبره أبو هناء عن أهمية أن تعرف أميمة عما حدث لأختها ، فصمت خالها ، ثم قال :

- و هل ستستوعب أميمة ؟! كيف لي أن أقول لها أن أختها قدمت في مسابقة شعر عن الغزل والفراق ، و كانت كذبة فسجلت تسجيلين وأرسلتهما إلي اللجنة لتكتشف في النهاية أنه ليس هناك مسابقة أو شيء آخر ، وأنه تم التشهير بها حتي في جامعتها ؟! كيف لي أن أخبرها بهذا ؟! هل هي تعرف معني كلمة تشهير؟! لا أعتقد أنه صائب أن أخبرها بمثل هذا إطلاقاً .. أنا متأكد أن

الوضع بينها و بين أختها سيكون أفضل بمرور الوقت ، وأنا لا أريد أن أخبرها عن كسرة قلب أختها في هذه الفترة ، كما أنها لم تمر بالقليل علي رغم صغر سنها ! لقد مرت بما يكفيها من وجهة نظري !

إنَّ الوقت هو أفضل مهدئ و مسكن للآلام ، وإيماننا بمرور الوقت يتضاعف عندما يَكشف الستار عن الأمور التي حدثت لنا ، ونعلم حينها علم اليقين قلباً وفكراً أن أمر الله لا يأتي إلا بالخير !

و بينما هما يتحدثان في الخارج ، كان الفتيات الثلاث يمارسن هوايتهن ، و يقرأن كتاب - كيف تتصرف مع واقعك دون ترك خيالك - ، بل دون لمس الشقاء الذي يحدث حولنا يومياً ، كان الفتيات منسجمين بعد أن اجتمعت بهم أم هناء وأخبرتهم أن السعادة اختيار ، ربما يكون الحزن إجباراً لبعض الوقت حتي نصل إلي المرحلة التي نستسلم فيها ، فيكون حينها قرار ، فلا يصح أن نعيش حياتنا تحت إجبار الحزن ، فنحن لنا الله نقوى به ، وإلكم تجارب تفيدكم رغم صغر سنكم ، أنتم لكم في حياتكم الخاصة حياة تجمعكم أنتم الثلاثة فقط ، فتمتعوا بحياتكم هذه !

فكان لكلامها أثر كبير في نفسيتهم ؛ حيث رجعوا إلي القراءة من جديد ، وكان له أثر في نفسها ؛ حيث ظلت تدعو لابنتها رضوي .. كانت تستشعر أن الحزن أصابها ، و كانت رضوي حقاً حزينة، فكان جيرانها أصواتهم تعلو ، وتسمعهم وهم يسبون فيها ، وأنها

كل يوم تصرخ ، إلا أنها لم تصرخ إلا عندما وجدت الكلب ، ووجدت العظام تحت بلاط سجادة غرفتها الذي تخرَّب وحده ، حتي هم أيضاً خافوا عندما رأوا العظام ، فاتصلت جارتها التي أهانتها بآلاء ؛ حتي تأتي لتجد حلاً لصديقتها التي تصرخ طوال الوقت ، فأتت و لكن رضوي كانت غاضبة منها ، من معاملتها وطريقتها الغريبة ، ومع هذا كان عليها أن تتغاضي حتي تفهم لماذا هذه العظام في غرفتها !! فسألت آلاء فأخبرتها أنها تخص الفتاة التي قبلها ، فقد كانت تدرس الطب ، وغادرت دون أن تأخذ ما يخصها ، فصرخت عليها رضوي قائلةً :

- أنا أقول لكِ أن العظام كانت تحت البلاط .. فلماذا طالبة طب ستخبئ العظام تحت البلاط ؟! لماذا يختار الكلب غرفتي دوناً عن باقي الغرف في المنزل ؟! كيف لي أن أستيقظ في الليل و ليس في النهار ؟! أنتِ أخبرتني أنكِ عشتِ هنا مدة ليست بالقليلة ، فأخبريني هل حدث معك ما حدث معي ؟! أم أن الجنون يختار مرضاه ؟! و أنا أصبحت واحدة من مرضاه حقاً ؟! فهذه البلد ليست ودودة أو حتي مراعية لمشاعر البشر ، أود أن أرجع إلي بلدي ، أن أخذ نفسي و نمشي من هذا المكان !!

كانت آلاء تستمع إلي رضوي دون أن ترد عليها ، حتي أخبرتها أنها تريد أن تغير مكان إقامتها ، فتعجبت منها و سألتها عن المال المتبقي معها ! فلم ترد ، فلقد ضاع كل ما كانت تملكه من

مالها الشخصي ، أو ذاك الذي أعطاها إياه مصطفي ، فكسرت آلاء صمتها هذا طالبةً منها أن تصمت ، وأن تترك هذه الترهات ، وأنها إذا كانت تكره البيت يمكنها حينها أن تبقي في الكلية ، ولكن لا يمكنها أن تترك حلمها ، وترحل مثل السابقات ، وأنها سترسل إليها سيارتها حتي توصلها وهي عائدة في الليل ؛ حتي لا يزعجها أحد ، فأُعجبت رضوي بالقرار ، ووافقت عليه ! ليس لشيء إلا أنها لا تملك خياراً غيره .. إلا أنها تخلت عن كل شيء ، إلا أن تكون كالسابقات .. تخلت عن حلمها و طموحها و خوفها ، وكل ما كانت تفكر فيه قبل مجيئها أو بعده ، و فكرة واحدة بقت في ذهنها أنها ستُكمل ؛ لأنها بدأت ، فصبرت ، وكافحت ، حتي خسرت الآن روح المكافحة و المحاربة من أجل حلمها ، فذهبت بعقلها لتبحث عن شغف جديد يخدم حلمها ، فأضحت تريد أن تكون غير من سبقوها ، وتتفوق ، كما أنها لم تكن متأكدة مما يحدث حولها بسبب تلك الحبوب التي تشربها كمسكنات ، فقد أخبرها الطبيب مسبقاً وهي في بلدها أن جرعة زائدة يمكن أن تتسبب بالنوم ، أو تتسبب بهلوسة وشعور مزري ، فقررت أن تدرس في الكلية و لا يمكن لها أن تتصل بأي شخص .. لا مصطفي ، ولا ندي ! فلم تعرف أن ندي تمت خطبتها ، وأن زوجها مصطفي مع أمه التي ستخضع لعملية كبيرة ، وأنه لا يمكنه أن يذهب حتي إلي أبيها عندما طلبه من أجل أن يأخذ أماني حتي

تري أمها ، فهي لم تكن تعرف أن أمها مريضة و ستدخل خلال أيام إلي المشفى ، ولم يكن أبوها يعرف فلم يخبره مصطفي أي شيء ، وانتظر حتي انتهت أمه من الإشاعات ، و ذهب ليحضر أخته لها فسأله حماه عن رضوي ، فكادت أماني أن تخبره أنه لا يعرف عنها شيء منذ أن سُرق هاتفها ، و لكن أخيها قد أشار إليها أن تنزل فنزلت و ركبت سيارته ، وظلَّ هو يطمئن عمه أنها بخير تام ، وأنه سيذهب إليها في أقرب فرصة ، ونزل مصطفي مسرعاً وذهب إلي أمه ، فرنت عليه ندي فلم يرد .. فغضبت ندي فهي لم تكن تعرف كيف تتواصل مع صديقتها الوحيدة المتبقية معها !! فنادت علي أمها و أخبرتها أنها لا تعرف أي شيء عن رضوي منذ قرابة شهر ! و أنها خائفة عليها من الوحدة و الغربة وبخاصة أنها كانت تتلمس بها الحزن في آخر مكالمة لهما ! وأن زوجها حتي لا يرد فيطمئنها ، فهدَّأتْ الأم ابنتها وأمرتها أن تدعي لصديقتها ، فإن للدعاء سحر المعجزات ، ولكننا نغفلها باستعجال الاستجابة ! نسينا أننا نتعامل مع من هو أرحم علينا من أمهاتنا !! نسينا أنه لا يجب أن نُرهق أنفسنا أكثر مما ينبغي في التفكير فيما يحدث معنا ! نظرت ندي لأمها وكانت متعجبة من هدوئها الذي قد فارقها منذ تعب ابنتها ، فسألتها عن سبب كلامها بهدوء ، فقالت لها :

- بنيتي ! لقد كنت أموت و أنا أراكِ تتألمين من أعصابك ، ومن

معدتك ، ومن كثرة الأدوية ، فكنت أرجع أبكي علي سجادتي ، وأناجي ربي متضرعة .. كنت أقول - يا الله أليس هذه نبتتي ، فلماذا ستذبل قبل حصادها ؟! يا رب ألم تكن هي الفرج من عندك بعد صبر سنين ؟! أنا يا الله لا أريدها إلا أن تحيا ! لا أريد أن تذبل قبل أن أزرعها ! يا الله أنت من بيدك ملكوت كل شيء فاستجب لي يا الله ! - .. صدقيني يا ندي حينها لم أكن أتذكر إلا كلام أبيك حين قال عنك أنك نبتة الخير خاصته التي في الأرض ، وهو كان في الغيبوبة لا يدري بما حدث معك ، فلم يكن لي إلا الله ! أنتِ أخبرتني أن الله مع الصابرين ، وأبوك أخبرني أن الله معين رؤوف لا يبخل علي عباده بشيء ، بل إن الدنيا عنده لا تساوي جناح بعوضة ! فكنت أدعي ، وها أنا الآن أري نبتتي تفتَّحت ، وستتزوج ! علي الرغم أني لم أطلب أن أفرح بزواجك، إلا أن الله أعطاك زوجاً طيباً خلوقاً .. إن الله يا ابنتي يرزق من يشاء بغير حساب .. فاضحكي يا صغيرتي و حاولي أن تعيشي فرحتك ، وأدعي لصديقتك ، فإن أهلها نعم الأهل !

ابتسمت ندي من كلام أمها ، وطلبت منها أن تسمح لها بأن تذهب إلي أهل رضوي لتسألهم عنها ، ولكن أمها رفضت وأخبرتها أن تصبر .. فماذا إذا كانوا هم أيضاً لا يعرفون كيف يصلون إليها؟! فهاتفها مغلق باستمرار .

فانتظرت أسبوع حتي حان موعد خِطْبَتُها ، فكان الجميع فرحين،

وكانت هي أيضاً ، و لكن عقلها كان مشغول برضوي ! كيف تكون ؟! و ما حالتها المبهمة ؟! و لماذا تغلق هاتفها ؟! وهل هي بخير أم لا ؟! بل شعرت أنه طالما بالها مشغول لهذه الدرجة ، فمن المؤكد أنها واقعة في مشكلة ، وكانت علي حق حيث تعبت مما تراه في غرفتها ، بل تمادي الأمر ليصل إلي حرم الجامعة ، و إلي المدرج ، و إلي كل شيء ، مما جعلها تتوقف عن تلك المسكنات، فأضحت تتألم و لكن الأمور الغريبة التي كانت تحدث معها ، قد توقفت حتي ذهبت إلي آلاء و هاتفت زوجها ، وأخبرته أنها توقفت عن علاجها ، فقلق عليها ، وظل يفكر .. هل يمكن أن تكون شكوك حماته صحت ؟! فسألها متي موعد الفحص الدوري لها ؟! ولكنها لم تجبه ، فكانت هذه كذبة قالتها هي عندما كانت محتجزة ، فلم تستطع أن ترد ، بل هرعت و تركت الهاتف من يدها ورحلت عندما رأت زوج آلاء ، حتي أنها لم تنهي المحادثة مع زوجها ، فبعد أن رحلت حزنت عليها آلاء و ظلت تتأوه عليها، ولكنها تعبت فسافرت حتي تستريح نفسيتها ، وستكون بعيدة عنها ، وأخبرت رضوي ألا تغادر البيت مهما حدث ؛ لأن العلماء يتوقعون زلزالاً خلال الأيام القادمة ، فسمعت كلامها و أصبحت وحيدة في غرفتها بدون كل شيء ، فحتي كتبها قد سرقت منها ، فاضطرت بعد مدة أن تذهب لتبحث عن عمل لها ، بعد أن اجتازت الكورس وأخذت شهادته ، وبالفعل استطاعت أن

تعمل في أحد المحلات ، وكان أجرها مربحاً ؛ حيث كانت تعمل في المطبخ ، ولكن كانت زميلتها في العمل تكرهها وتبغضها لسبب لا تفهمه ! فتغاضت عنها و ركزت في عملها حتي تستطيع أن تحقق شيء ، ولا ترجع إلي أهلها خالية الوفاض .. كان كلام أمها يصبرها في كل هذا ، وما يصبرها أكثر أنها كانت تدخر مبلغ ليس بالقليل، حتي تستطيع أن تتواصل مع أحد بعد أن انقطعت عنها آلاء ، و كانت قلقة علي مصطفي ، وكان يبادلها نفس الشعور ، بل يزيد ، فشعر أنه يُقتل من القلق ، فحاول أن يصبر حتي تنتهي عملية أمه و شفائها ويذهب إليها ، وما كان يغضبه أكثر اتصالات ندي به ، فما كان ليملك جواباً علي أسئلتها عن صديقتها ، فلم يكن يرد و أرادت ندي أن تذهب إلي أهلها حتي تسألهم عنها ، و لكن أمها أوقفتها طالبةً منها أن تنتظر و تترفق بهم ، فصبرت و ظلت تتضرع لله من أجل أن يعين صديقتها ، التي باتت أخبارها مقطوعة تماماً ، وأضحت الأخبار مقطوعة لمدة لم تكن هينة علي رضوي ، فكانت تري البيوت تهتز من حولها ، والجميع يصرخ، والمطعم الذي كانت تعمل فيه قد وقع إثر الزلزال ، وانقطع عنها مصدر رزقها الوحيد ، فذهبت إلي آلاء بعدما فقدت الأمل، و لكن وجدت بيتها هو أيضاً قد وقع .. لم يستمر الزلزال سوي لبعض دقائق ، ولكنه هدم كل مكان تعرفه سوى كليتها .. كانت تعرف أن هذه البلد تحدث فيها زلازل ، ولكنها لم تعرف أنها

ستخسر كل شيء فيها ، لم تكن تعرف إلي أين تذهب ! و كانت مشتتة تبكي وحيدة ، ولم يكن أحد آخر يبكي ، حتي أولئك الذين قد تهدمت بيوتهم لم يبكوا ، فكان الجميع يعرف بأمر الزلزال، وأن حكومتهم ستعوضهم عن الخسائر ، ولكن ما خسرته هي كيف سيعوض !! ومن الذي سيعوضها ؟! فلم تجد أمامها سوى أن تذهب إلي الكلية ، وتطلب منهم مكاناً للإقامة ، ولكن الكلية رفضت نظراً لعدم توافر هذا الشرط في المنحة ، فذهبت إلي آلاء فلم تجدها ، فساعدها زوجها فأعطاها مسكناً آخر غير الذي وقع ، بل ساعدها أيضاً أن تجد عملاً .. تعجبت منه و بخاصة عندما اشتري لها كتباً غير التي سرقت أول مرة ، وأخبرها أنه ما كان ينبغي أن تشتري هي الكتب ، بل كان ينبغي أن تذهب إليه مباشرةً وتخبره بالسرقة ، فلو علم لاشتراها لها ، فهذا واجبه ! خرجت من عنده سعيدة متجدد لديها الأمل أن هناك من يقف بجانبها ، وركبت سيارته التي ستنقلها إلي البيت الجديد ، فكان صنيعه هذا له الأثر الحسن في أن تغير وجهة نظرها فيه ، بل وجهة نظرها في آلاء ، فزادت غرابةً .. ذهبت إلى البيت الجديد، وكانت غرفتها في الطابق الثاني .. كان المكان هادئ ، مريح ، أجمل من سكنها القديم ، حتي غرفتها كانت أكبر ، فكانت تعادل غرفتين إلا أن غرفتها لم يكن بها حمام ، بل كان هناك حمام واحد في البيت كله ، فهذا ما أزعجها ، إلى أن اكتشفت أن كل من في

البيت طلبة مثلها ، هذا أراحها بعض الوقت وأتي إليها زملائها في السكن ، وسلموا عليها و أحبتهم ، وبعد أن رحلوا .. نامت طيلة النهار ، واستيقظت في الليل وأخذت ورقة و بدأت تكتب ..
(لم أكن أعرف كيف يتعايش الناس بخطر الزلزال ، حتي أضحي اليوم الزلزال شيئاً عادياً في حياتي ، يتم الإعلان عنه قبل وقته بمدة ، ويتخذ الناس إجرائتهم ، و تعوضهم الحكومة عن نسبة من خسارتهم ، ولكن ليس هذا فقط ما يساعد في تخطي الأزمة ، فوجود أناس طيبون يساعدون دون تكبر ، بل يتبرعون من تلقاء أنفسهم !) .. وذهبت بعد ذلك إلي الحمام ، ولكنها كانت تشعر بنفس أحد ورائها ، وكلما نظرت لم تجد أحد ، فلم تدخل الحمام و رجعت غرفتها ، وفي الصباح ذهبت إلي الجامعة ، وفوجئت أن الجميع يذهب إلي عمله ، ومن تهدَّم بيته كان يساعد في بناءه ، فتعجبت من السرعة في إزالة أثار الهدم ، بل ببداية البناء أيضاً ، وفي كليتها وجدت حملة كبيرة من المتطوعين في مساعدة الآخرين، فاندهشت بتصرفهم ، وأن الكلية قد أجلت الامتحانات من أجلهم ، فرجعت إلي بيتها ، وكانت طوال طريق العودة تشعر بأن أحد معها ، فخافت حتي دخلت غرفتها و بدأت ترى أشياء تمشي علي الحائط ، فاتصلت بزوج آلاء و أخبرته ، فطلب من آلاء أن تذهب إليها ، فسألته هي من أين أتي لها هذا الهاتف فهاتفها قد سرق !! فأخبرها أنه اشتري لها واحدًا ، حتي إذا ما

أرادت شيء طلبته منه ! تضايقت من تصرفه هذا ، وذهبت إلي رضوي التي قابلتها بغضبٍ شديدٍ ، وبعيونٍ عاتبةٍ علي تصرفاتها، فلم تفعل شيء سوي أنها سلمت عليها فقط ، بل و سألتها عما تريد بكل جفاء ! فردت عليها أن هذا الحائط كانت تمشي عليه مخلوقات منذ قليل ، فلم تفهمها و سألتها أين اختفت الآن ؟! فلم ترد عليها رضوي ، بل تركتها و جلست علي سريرها ، ورحلت آلاء دون أن تسألها شيء ، أو حتي تتكلم معها ! تذكرت رضوي زوجها ، وأنه الوحيد الذي كان يسأل عليها ، وصديقتها ندي ، فحاولت أن تهاتف زوجها ، ولكنه لم يكن يرد عليها .. كان حينها مشغولاً مع أمه ، ومع هذا جاهد حتي يرسل إليها من يحضرها، ولكن جميع الخطوط الجوية إلي البلد التي تقطنها الآن معطلة نظراً للزلزال ، فكان حزيناً لأنه لا يستطيع التواصل معها ، حتي أنه بات لا يذهب إلي أهلها ، ففي آخر مرة كان هناك كان أبوها قلق عليها ، وظل يسأله عنها ، وهو كل ما كان يقوله أنها بخير ، هي فقط مشغولة بامتحاناتها ، وكانت تساؤلات حماته الصامتة المحملة في عينيها تؤلمه ، وتزيد قلقه ، فكان الجميع قلق ؛ حيث كانت رضوى قلقة وخائفة من هذا الصوت الذي بات يتبعها في كل مكان ، ولم يكن في وسعها أن تجلس في الجامعة لتدرس ، فبيتها الجديد بعيد .. كما أن عملها الجديد ليس جيد ، فكانت تقضي نهارها ما بين الكلية و عملها ، وفي الليل تكون وحيدة دون

ونيس ، ولم تكن تريد أن تظهر خوفها لزملائها في السكن ، وظلت تتحمل هكذا لمدة أسبوع حتي ذهب كل من في السكن ، فبدأت أمور غريبة تحدث .. بدأ صوت النفس يتزايد .. بدأت تري أناس داخل غرفتها لوقت وعندما تنهض كانوا يختفون ، فتأكدت أن ما كان يحدث لها ليس بسبب المسكنات ، فهاتفت زوج آلاء وأخبرته، وطلبت منه أن يغير لها السكن ، فغيره لها ، وذهبت إلى سكن جديد كان غرفة صغيرة تحوي سرير يكاد يحملها ، وما أغضبها أن الحمام كان مشترك ، ولكنها هدأت عندما عرفت أنها الوحيدة التي تعيش في البيت .. ظلت رضوي ترن علي مصطفي كل يوم ، ولكنه لم يرد وأتت لها آلاء فجأة في بيتها ، ولكنها لم تستقبلها و تذكرت كلمة صديقتها ندي .. (عندما يكون أكبر طموح تملكه في خيالاتك لشخص هو الابتعاد ، فعليك أن ترجع لأرض الواقع حينها ، لربما تري أنه انقطع الأمل في الاشتياق وتحتمت الاستحالة علي اللقاء ، بل ووجب عليك الرحيل !) .

فلم تُرِدْ أن ترهق نفسها مع واحدةٍ لم تطمئن عليها .. واحدةٍ تغير هيئتها ما بين الاحتشام و التبرج ، ما بين المودة و الجفاء ، فأرادت أن تنهي هذا الغضب ؛ لأنها لا تعرف سواها في هذا البلد ، فسألتها لماذا لم تسأل عليها كل هذه المدة ! و ما سبب زيارتها لها ! فأجابتها أن مصطفي يتصل بها ، ويريد أن يطمئن عليها ، ولم تتوقف بل ردت علي سؤالها ، وسألتها لماذا تكلمها بهذا الشكل ؟!

ولماذا تسألها عن سبب زيارتها ؟! فردت عليها رضوي بكل حنقٍ قائلةً :

- أتسأليني أنا ؟! كان من الأوجب أن تسألي نفسك ؛ علك تلومينها علي ما فعلتْ بي ! كم قضيت من الوقت و أنا أسأل نفسي .. لماذا تفعلين كل هذا ؟! ولكن عجزت عن الإجابة ، وأُرهقت حتى اعتزلتك ، وخصوصاً آخر مرة كنتِ هنا فيها ، أنا أتذكر مدي تألمي من طريقتك .. أنا أتذكر أنه من كثرة ما حزنت نسيت ماذا قلتِ لي حينها ! كل ما أتذكره هو تهكمك وسخريتك من خوفي !

تحولت حينها كل مشاعر الخوف إلى غضب ، فكانت تعبِّر عن كل ما أغضبها ، وما أخافها .. كانت مشاعرها قد وجدت الفرصة حتي تنصبُّ علي أحدٍ ، ولكن سرعان ما شعرت و أشفقت علي دموع آلاء ، التي تقف أمامها ، تسمعها دون أن ترد ، فحاولت أن تصحح جزءاً من رشق مشاعرها علي الفتاة الباكية المنتظرة أن تأذن لها بالدخول إلي غرفتها ، فأذنت لها ، بل واعتذرت علي كلامها بهذا الشكل وصوتها العالي ، وسألتها عن مصطفي ، وطلبت منها أن تعطيه رقمها واعتذرت منها ثانيةً ، فقطعت آلاء كلامها قائلةً :

- هل تشعرين أن حلمك قد بَعُد عنك ؟! هل تشعرين بالضياع يتوغل في قلبك لهذه الدرجة ؟!

رضوي ! كان زوجي يقول لي دائماً .. (لسنا مولودين بأحلامنا !

كلا ، بل نحن من اخترنا البعض ، والبعض أُجبر علينا ! نحن من فشلنا في البعض ، والبعض تغيَّر ، فاعلمي أنه إن لم تساعدنا أحلامنا علي الوقوف علي الثقة ، لا يحق أن نقول عليها أحلاماً ، بل وجب أن يقال عليها مهدمات للنفس ! الأمر ليس في دخول كلية بعينها ، أو حتي أن تثبت نفسك فيما ستدخله لاحقاً ، الأمر هو أن تعرف أن الله يرزقنا علي قدرنا ، ليس شرطاً علي جهدنا فقط ، ليس شرطاً أن نرزق لأننا نتمنى ، ولكنه يرزقنا لكي نعيش ونتعلم ، لكي نقوي ، يرزقنا بحكمة قد نظل طوال حياتنا و نحن نجهلها ، ولكن الصبر يداوي كل حلم قد ضاع .. يداوي كل جرح من عدم الاستجابة .. الصبر يداوي صاحبه ، وربما تكونين تدعين بما سيرهقك فلا يجيبه لكِ الله ؛ حتي يرحمك ، وربما تكون هذه الرحمة استجابة لدعاء والديك !) .. كنت قد دخلت كلية لم أرغب بها ، وكنت أتمنى أن أثبت نفسي فيها ، ولكني أرهقت و لم أحقق شيء ، حتي انتقلت مع عائلتي ، ونجحت وسعدت في حياتي سعادةً لم أكن أتصورها !

لم تكن رضوي تفهم شيئاً ! كيف تقول آلاء أنها انتقلت مع عائلتها ، وهي قالت لها أنها عاشت أياماً في تلك الغرفة التي كانت تسكنها ، حتي تزوجت ، وحينها انتقلت إلي بيت زوجها ، فسألتها قائلةً :

- آلاء ! لا أعرف لماذا تخبريني عن الحلم ، ولكن أريد أن أعرف .

ألم تقولي لي أنك أتيت إلي هنا في منحة ؟! فكيف تقولين لي الآن أنك أتيت مع أهلك ؟!
- كلا يا رضوي ، أنا أتيت إلي هنا مع عائلتي ، ويمكنك أن تأتي وتسألي زوجي !
تعجبت رضوي من كلامها ، ولكن بسبب دموعها قد سامحتها ، وتذكرت الموقف عندما حدث الخلاف بينها و بين ندي ، وتمنت لو أن تري صديقتها ، أو تهاتفها ، ولكنها لم تكن ترد ؛ حيث كانت في هذا الوقت مصممة أن تذهب إلي بيت أهل رضوى لتسألهم عنها ، فذهبت وأخبرت عمها أنها لا ترد عليها ، وأن هاتفها مغلق دائماً ، حتي أنها حاولت أمامهم فطلب أبو رضوى أن تتصل بمصطفي ، ولكنه لم يأت ، فغضب ، فهو لم يكن يعلم أن أمه مريضة ، فقلقت زوجته علي ابنتها ، وبدأت تبكي ! عادت ندي إلي أمها باكية تقول لها ليتني سمعت كلامك و لم أذهب ! لقد أقلقت الجميع الآن ، رأيت أمها تبكي و كأن ابنتها ماتت ، وزوج صديقتي لم يرد وهو الوحيد الذي يعرف عنها كل شيء ، هذا كان تخيل ندي ، وفي الحقيقة هو لم يكن يعرف أخبارها ، بل يظل يهاتف آلاء وأخيراً ردت عليه ، ولم تفده بشيء ، وهذا ما جعلها تذهب لتطمئن علي رضوي كل يوم ، وأخبرتها أن مصطفي يسأل عليها ، فاندهشت رضوي قائلةً بنبرةِ حزنٍ :
- و لكنه لا يرد علي مكالماتي ، وهاتفه دائماً مغلق !

فعارضتها آلاء ، و كررت إخبارها أنه يرن عليها يومياً ليطمئن عليها ، وقالت :

- إني بدأت أخاف أن يعرف زوجي بالأمر !

فسألتها عن زوجها و كيف يعاملها ! فغضبت من السؤال ، وأخبرتها أنه ليس من حقها أن تتدخل في حياتها نهائياً ، وأنها إذا كانت تساعدها فهذا لوجه الله ، فلم تصمت رضوي علي هذا الرد ، بل قالت :

- أنا حقاً لا أفهم !! أنت كنت هنا منذ أسبوع تبكين لكي تدخلي، وقبلها طردتني من بيتك ، وقبلها كنتي تبكين في غرفتي وتقولين لي أن زوجك يخونك !! هل أنت طبيعية ؟! أنا لم أعد أعرف هل أنا أتكلم مع شخصيتين أم ماذا ؟! ارحمي فكري و أخبريني لماذا تكونين في فترة محجبة جميلة و رقيقة ، و في أخرى العكس ؟! بتُّ أشعر أحياناً أني ضائعة في فهم شخصيتك !

- متي طردتك أنا من بيتي ؟! رضوي ! أنا أُجهد بسرعة فلربما كنت تعبة حينها و لم أستطع أن أقابلك ، أنا حقاً لا أتذكر ، ولكني دائماً ما أحاول أن أكون حسنةَ الخلق ، صبورةً ، ربما نتيجة للزلزال و لسقوط بعض الحجارة علي رأسي تأثرت دماغي ، ولكني مؤمنة أن البشر قد يفقدون ذاكرتهم ، لا يفقدون خصالهم و نواياهم ، وأنا أعرف أن داخلي نوايا حسنة ، وأني لا أحب أن أتصرف بخبث، أنا أستمد خصالي مِنْ مشاعر مَنْ أمامي ، فأنا أراكي غاضبة مني

و مع هذا عليَّ أن أكون لينة ، أنا لا أطلب أن تترفقي بي ، ولكن أقول لكِ أن تُحسني تصرفك معي ! أنا لا أتذكر أنكِ أتيت بيتي وطردتك ، ورغم تعبي إلا إني أتحمل كلامك ، بل وأتيت من أجل زوجك الذي يحدثني ، ويُشعرني أنه علي وشك الجنون !! هو أرسلني إليك برسالة يقول لكِ أن أمه مريضة ، وأنه سيأتي ليأخذك فورَ شفائِها .

كانت رضوي تستمع فقط حتي أنهت كلامها ، فقالت لها :

- هل يمكنني أن أعرف شيئاً ولو بسيطاً ؟! هل تتذكرين الورق الذي أخبرتك به ؟! وهذا كان قبل الزلزال ، هل تذكرين أنك شككت في زوجك ؟! فأنت لست فاقدة للذاكرة ، بل متعبة ، فهل تتذكرين ؟!

اعترضت علي كلامها ، وأوقفتها محذرة إياها من التدخل في حياتها الزوجية ، فغيرت رضوي صيغة السؤال قائلةً :

- هل تتذكرين أنك قرأتِ ورق ، وأنت في الغرفة عندما كنت تسكنين فيها ؟! انتظري سأحضره لكِ ، فهو في حقيبتي من وقتها ! ففتحت حقيبتها ، ولكنها لم تجد شيء بداخلها ، فظلت آلاء تنظر لها سائلةً إياها إذا كانت بخير ، و مخبرة إياها أنها لم تسكن في غرف من قبل ، بل كانت مع عائلتها ! فنظرت لها رضوي و طلبت منها أن ترحل ، فرحلت ! و ما إن رحلت حتي أغلقت باب البيت الكبير ، و رأت شيئاً يمشي في الحمام ، فأنارته فلم تجد

أحد ، ولكنها شعرت بصوت النفس ، وكأن أحداً معها في البيت ... لفت جميع غرف البيت إلا غرفة واحدة تركتها ، لم تبحث فيها من شدة خوفها ، ومن الرائحة المنبعثة من هذه الغرفة ، فدخلت ولم تستطع النوم ، وفي الصباح اتصلت بزوج آلاء حتي تطلب منه أن يرجعها إلي غرفتها السابقة ، كانت محرجة منه وهي تتصل ففاجأتها آلاء بالرد ، وأهانتها و طلبت منها ألا تتصل بزوجها مرةً أخرى ، فحزنت من ردة فعلها ، ومن كلامها ، وقررت بداخلها أنها لن تتكلم معها مرةً أخرى ، وأنها ستتحمل حتي تنتهي مدة دراستها ، فقد أنجزت الكثير في وقت قليل ، كانت تتمني أن تحتضن أبيها و ظلت تتخيل هكذا حتي أتي موعد ذهابها للكلية، وعند خروجها من غرفتها اشتمت رائحة قذرة تنبعث من الغرفة التي فوقها ، فصعدت و اكتشفت حينها أن الرائحة من البيت المجاور ، فنزلت إلي غرفتها فوجدتها متسخة كلياً ، فجَرَتْ من البيت ، وذهبت إلي كليتها وهي متخذة قرار أنها لن ترجع إلي هذا البيت مرة أخري مهما حدث ! فبعد ما رأته لم تكن لتجلس فيه و لو لثانية ، بل و أنها ستطلب من الكلية أن تأتي بالمسئول عن منحتها ، و لكنه لم يأتي .

ظلت تصرخ و تجري في الجامعة كلها ، فأمسكها أمن الجامعة و أرسلوها إلي مصح عقلي ، فدخلت رضوي إلي سليمي فسلمت عليها ، وخرجت سليمي من الغرفة ودخلت طبيبة أخري ، ولكن

قد تملكتها الرغبة في أن تعرف لماذا تعاملها سليمي بهذا الشكل؟! فكانت تعاملها بجفاء عندما حُبست أول مرة ! و لكن بعد ما رأته علي مكتبها لم ترد أن تتعالج عندها ! فعندما دخلت سليمي إليها تخبرها أن زميلتها ستتسلم حالتها ، وافقت فوراً ، وذهبت إلى الطبيبة الجديدة فسلمت عليها ، وأخبرتها بما حدث معها من أول ما خطت برجليها هذا البلد ، وما رأت في البيت ، وأن هذا هو ما دفعها إلي الصراخ ، فسألتها الطبيبة إذا ما كانت تتنزه أم لا ؟! فأخبرتها أنها ليس لديها الوقت ، وليس معها مال حتى لكي تتنزه ، فكتبت لها الطبيبة بعض الأدوية ، وأرسلت ورقة إلي الجامعة حتي ترسلها إلي المعنيّ بمنحتها ليعطيها مالاً حتي تتنزه ، وأخبرتها أن كل هذا إجهاد ، وأنه ربما عقلها لم يعد يتحمل ذاك الروتين الشاق ، فسألتها رضوي عن سليمي ، وعن الصورة التي علي مكتبها ، فلم ترد الطبيبة عليها ، بل أخبرتها أنه ليس من شأنها أن تتدخل في حياة الآخرين ، وأمرتها أن تأتي ثانيةً بعد أسبوع لتري حالتها ، فخرجت من عند الطبيبة وهي خائفة أن ترجع إلي تلك الغرفة ، فهي لم تقتنع بكلام الطبيبة ، ولم تقتنع أيضاً بما رأته ، فحاولت أن تتصل بآلاء و لكن هاتفها كان مغلق ، فتضايقت رضوي وأغلقت علي نفسها الباب جيداً وظلت تقرأ ما حفظته من القرآن ، ونامت ليلتها و ذهبت إلي الكلية ، و لاحظت أن الجميع ينظر إليها فتذكرت حالتها عندما

كان يضيق نفسها ، ويقف زملاؤها يشاهدونها .. تذكرت يومها في الكلية و ذهبت إلي عملها ، ولكنها ظلت تصرخ مجدداً فبدأت تأخذ العلاج التي وصفته الطبيبة ، فتحسنت حالتها و عندها أيقنت أن ما تراه إنما هو تهيآت ، وعندما رجعت إلي البيت كانت تفوح منه رائحة كريهة ، فمرت من أمام الحمام دون النظر إليه ، أو النظر حتي إلي الغرف وخصوصاً تلك الغرفة التي رأت فيها آلاء وهي مقتولة ، وجرت علي غرفتها و أغلقت الباب، وإذا بأشياء تسير علي الحائط و تصدر أصوات ، فأخذت رضوي العلاج فاختفي كل شيء ، فأصرت علي أن تذهب في الصباح إلي المصحة حتي تخبر طبيبتها ، ولكنها لم تكن موجودة بل وجدت سليمي ، فرفضت رضوي أن تدخل لها فنَفْسُها لم تصفَ منها بعد، فتذكرت نصائح الطبيبة لها ، وحاولت أن تتذكر ذكريات مفيدة لها ، فتذكرت زوجها ، وظلت تفكر كيف حالته الآن !! كانت تدعي لحماتها أن يشفيها الله ، وكان مصطفي في هذا الوقت عليه أن يأخذ أخته وهناء إلي أميمة ، التي تعافت بعد ما رأته من حالة انتحار التي معها في الغرفة ، أو سرقة الممرضة الأدوية التي خبأتها تحت سرير تلك الصغيرة ، ذهبا لكي تحتفل معهم ومع أختها نور الهدي ، تلك التي صبرت عليها حتي تتصالح معها، فأقامت لها هذه الحفلة إرضاءاً لها ! ذهب مصطفي إلي هناء ، ولم يرد أن يصعد إليها حتي لا تتواجه نظراته مع نظرات حماته

وحماه ، ولكنه قرر أن يصعد ، فصعد و أخبر حماه أن رضوته بخير ، وأنه قد كلمها منذ وقت و أن لديها هناك رفيقة تهتم بها ، وترعاها ، وأخبرهم أن أمه مريضة ، وأنها بعد أن تُشفى سيذهب إلي ابنتهم ويظل معها حتي تنتهي منحتها تماماً ، ففرح أهلها و ظلوا يدعون لابنتهم أن يرزقها الله بمن يساعدها ، ويأخذ بيدها ، فأخبروه أن يطمئن ندي ، فبينما تتجهز هناء لتذهب معه رن عليها ليس فقط بناء علي طلبهم ، بل علي طلب خطيب ندي أيضاً ، فطمأنها فكان فرحها سيكون بعد أيام ، وهي تجلس بجوار أمها تبكي علي صديقتها ، فما إن أخبرها أن رضوي بخير ، حتي فرحت و ضحكت ! فعلمت أمها دون أن تخبرها أن المتصل مصطفي ، ولكن أمها أخبرتها أنه لا يصح أن تتصل به ، فإن زوجها سوف ينزعج من هذا ، فنظرت ندي إليها قائلةً :

- من قال ؟! هل تعرفين أن زوجي يعرف كل هذا ؟! يعرف ، فعندما يتعلق الموضوع برضوتي و بقلقي عليها ، فإنه يمكنني أن أفعل ما أريد طالما لا يغضب الله ، هل تعرفين أن زوجي هو من اتصل بمصطفي ؛ لأنه لم يكن يرد علي فكلمه هو ، وحتي يطمئن قلبي طلب منه أن يحدثني ؟! ولكن لماذا رضوي دائماً هاتفها مغلق ؟! أنا لا أعرف حقاً ! فمصطفي يطمئن عليها من خلال صديقتها ، تذكري صديقتي يا أمي في دعائك كما تتذكريني ، فهي كوكب السعادة خاصتي ، لقد عكف قلبي على عشقها !

نظرت الأم إلي ابنتها و هي تكاد لا تصدق عينها ! فتلك الفتاة التي أمامها هي نفسها التي كانت تحتجز نفسها في الغرفة ، معتزلة الناس ، فأضحت تدعو لرضوي في كل صلاة ، وكانت رضوي تصلي و تدعو الله أن ينجيها مما هي فيه ، حتي استيقظت في يوم و وجدت حولها أناساً كثيرين ، يأتون و يختفون ففزعت من علي سريرها ، و ارتدت ملابسها ، وأتت لتخرج من الباب ، ولكنه كان يتحرك ، بل وكانت تري جثة آلاء علي سريرها ، فظلت تصرخ و لكن لم يسمعها أحد ووقعت علي الأرض ، وعندما أفاقت وجدت آلاء أمامها ، فظلت تصرخ فأخذتها آلاء إلي بيتها وعندما استيقظت وجدت حولها رجل ، كانت قد رأته من قبل ، ووجدت آلاء بجانبها فصرخت ، فسألتها عن سبب صراخها هذا ! وأنها بدأت تخيفها ، فأعطاها الرجل حقنة مهدأ ، فلم ترد رضوي عليها .. ماذا كانت ستقول لها ؟! هل رأيتك ميتة في الغرفة التي بجواري ؟! أم رأيت جثتك و هي تتدلي من السقف ؟! فلم ترد ، بل سألتها عن الرجل الذي أعطاها الحقنة ، فأجابتها أنها لا تعرفه ، وإنما هو ممرض أحضره زوجها حتي يعالجها ! أمر هذا الرجل آلاء أن تخرج ، فخرجت و تركت رضوي لوحدها ، فخافت منه ، ولكنها بدأت تصرخ ثانيةً عندما ألقي نفسه من الشرفة ، فسمع الخدم صراخها فدخلوا إليها فظلت تقول أحدهم رمي نفسه ، ولكنهم لم يردوا علي عليها ، بل أخبروها أن سيدتهم آلاء أتت بها إلي هنا

و تركتها ، ورحلت منذ أكثر من عشر ساعات ، فكادت أن تُجَنَّ ، فقامت و خرجت من هذا البيت لتجد الرجل أمامها ، فجرت و ذهبت إلي بيتها و أتي إليها طبيب من الكلية بعد يومين، وفحصها و أخبرها أنها أخذت كمية هائلة من حبوب الهلوسة ، وأنه يجب أن تحقق الشرطة معها ، حتي تعرف مصدر هذه الحبوب ، فاستعطفت الطبيب ألا يُدْخِلَ الشرطة في الموضوع فهي تعاملت مع الشرطة مرة وقد تدمرت حينها ، فرفق بحالتها و أمرها أن تمر عليه في عيادته بعد أسبوع ؛ حتي يتأكد من أن تلك الحبوب قد زال أثرها ، و تركها و رحل .

ظلت الأمور تشتد عليها حتي أنها أصابت نفسها في مرة ، فذهبت إليهم في الكلية تطلب رؤية ذاك الطبيب ثانيةً ، فلم تفهم الكلية منها شيء و أخبروها أنهم لم يرسلوا لها أي أطباء ، فأخذت القرار أن تذهب إلي المصحة وتقابل الدكتورة سليمي ، وتسألها من يكونا الرجل و المرأة في الصورة علي مكتبها ، ولكن قبل أن تذهب ، قد قابلت الرجل الذي أعطاها الحقنة فأُجبرت أن تغير الطريق الذي تسلكه ، وتاهت في الشوارع ، وأضحت لا تعرف كيف ترجع إلي بيتها مرةً أخرى ، بل رأتْ أناساً يهجمون عليها حتي أتت الشرطة و نجتها ، وطلبت لها طبيبا فطلبت منهم أن يحضروا لها سليمي، رفضوا في البداية و لكن لبوا طلبها ، فأتت و رأتها فلم ترد أن تدخل ، ولكن رضوي لم تطلب منها سوى طلباً واحدًا ، وهو أن

تعرف ما صلتها بالرجل و المرأة فقط ، فأخبرتها أن المرأة هي أختها آلاء الميتة منذ أكثر من أربع سنوات ، والرجل هو سُليّم أخوها الذي توفي حزناً على أخته بعد أن علم أنه تم الاعتداء عليها من قبل ذاك الرجل ، الذي هو مسؤول عن منحتها ! كانت رضوي تستمع و هي صامتة ! مصدومة ! لا تعرف ماذا تقول ! بل سألتها ماذا يجب أن تفعل حتي ترحلها الحكومة ؟! فسألتها سليمي عن السبب وراء السؤال ، فأخبرتها أنها حكت كثيراً و لم تجد مقابلاً ، ولكن صمتت قليلاً ، ثم قالت لها :

- ربما أنت الوحيدة تملكين الحق أن تعرفي .. أنا أتعامل مع أختك منذ أكثر من سنة و نصف تقريباً طيلة منحتي ، حتي آخر امتحان لي و رأيت أخاك حوالي ثلاث مرات ! ربما ستقولين عليَّ مجنونة ، ولكني أخبرك أنه أتي إليَّ طبيباً إلي بيتي ، وقال أنه من الكلية ، وعندما ذهبت إليهم أطلبه أخبروني أنهم لم يرسلوا أحداً، أنا كان باب غرفتي يتحرك أمام عيني ، حتي أني أصبت أنا أقول لكِ الآن ، ليس لتقولي لي أني مجنونة !

اندهشت سليمي فتركتها ، ورحلت ، واكتشفت في الصباح أن رضوي قد هربت .. اختفت رضوي دون أن يعلم عنها أحد ، حتي هي أيضاً استيقظت ، ووجدت نفسها في غرفتها مكبلة مع ذاك الطبيب ، فظلت تسأله من هو ، ولكنه لم يجب عليها ، بل رأت بجوارها اثنتين من آلاء ، واحدة محتشمة ، وأخرى متبرجة،

فصرخت ، فأخبرها الطبيب أن تهدأ ، وأن تتعاون حتي ينتهي بسرعة ، وحقنها في يدها ، فنامت واستيقظت بعد يومين ، وتمنت لو أن الطبيبة تذهب إلي بيت آلاء ، فتجدها فتتأكد أو تتصل بزوجها كما طلبت منها ، فذهبت واتصلت بزوجها مصطفي ، وأخبرته بكل شيءٍ !

الفصل الحادي عشر:-

- صراخٌ -

بعدما أخبر أمه بكل شيء و هو يبكي منهارًا كشخص مات عزيزه، سافر إليها دون أن يخبر أهل رضوي ، و لكنها كانت قد عادت إلي بيتها ، تجلس في غرفتها ، تبكي و هي تقول أنها لن تذهب إلي منحتها مرةً أخرى ، و أنها لن ترجع ! وأختها بجانبها تسألها عما حدث ، و هي تستند علي كتفها و تبكي ، فخرجت الأم و طلبت من زوجها أن يذهب إلي مصطفي ، ويسأله ماذا كان يحدث لها؟! فهو الوحيد الذي كان يتواصل معها ، فذهب الأب و جلس مع أمه فعلم ما كان يحدث لابنته ، و تفاقم الخوف لدي أمه و لدي الأب ، فالأم تريد وحيدها أن يرجع ، فهي لم تكن لتتجرأ أن تأمره أن ينتظر ، ويترك زوجته وحيدة في غربتها ، والأب يشعر بالتوجع ، فلم تستطع الأم كبح دموعها ، فطلبت منه أن ترى رضوي لتطمئن عليها ، ولكنها كانت في الحقيقة تريد أن تطمئن علي ابنها ، فأخبرها أنه سيحضرها غداً ، فرجع دون أن يعلم ماذا سيخبر زوجته ؟! بل و هو متألم لما حدث لابنته ! فهو لا يعلم حجم الفاجعة التي ألمت بها ؟! وكيف كانت تمر عليها الأيام ؟! فأضحى يشعر بضيق بداخله حتي أنه جلس في الشارع يبكي علي ما سمعه ، ثم رجع إلي البيت و كانت تتفجر بداخله شظايا من

الغضب ، شعر بنار تأكله ، فدخل و صرخ عليها وهو يبكي قائلاً :

- اصرخي ! اصرخي لكل شيءٍ ، لكونك صغيرة و تحملت بيت بأكمله و لم تتفوهي ! اصرخي لما تخافين أن تقوليه ظنًا منكِ أننا لن نفهمك أو نصدقك ! اصرخي فلقد استطعتِ حقن ثورتك من الغضب منذ وفاة أخويك ، فلتخرجيها الآن ! لقد ماتت بداخلك أشياء ، كنت أدفع ثمنها كلما أراكِ وأنت تدللين هناء ، فلتفلتي كل ما آلمك الآن ؛ لأن قلبي ما عاد يحتمل إحساسي بالعجز أكثر من هذا ، وكأن يداي قطعت ، فليس يا ابنتي العجز ببترٍ في الأطراف ، و لكنه عجزُ أملٍ و حلم ، عجزُ حياة ، وأنت يا صغيرتي الآن تعيشين عجز الكتمان ، لا تعتقدي أن صمتك هو تحمل و جلد ! كلا ، فصمتك له ثمن و هو اقتناص ما بكِ من حلو .

بدأ صوت الأب يهدأ ، فقد تعب و تغيرت نبرته ، و زوجته و هناء تبكيان فقط ، أما رضوي فهي تُهدأ أبيها ، فتعجب منها لدرجة أنه لم يعد يعلم ما يحدث لابنته وهي أمام أعينه ، حتي تحدثت لتقذف في فكره الرهب قائلةً :

- لا أعلم سوى أني بخير و لست بخير ! أشعر بأن هناك شيء ينقصني ، وكأن مشاعري بُترت ، كنت أستعفُّ في الصمت آهاتي،

ولكن هل يغنيك التعفف عن الوجع يا أبي ؟!

صمتت رضوي ، وظلت تنظر لأبيها و في خاطرها يجول في كل ما حدث لها ، فتبتسم وتردد هل ضعت هناك حقاً ؟! وتركت جزئي يهيم شاردًا في بلد كل ما أعلمه هو كم الوجع و القهر الذي قد يصيب الإنسان منذ أن يخطو برجليه ، بل بأنامله في بقعة منه ، فتجعله حطاماً قابلاً للتطاير تحت ركام الانهيار، بل إنه قابع تحته ، ولكنه لم يتخذ شكله النهائي بعد ، فيهاجر ضائعاً ، وليس باحثاً ، يبكي وحيداً و يأنُّ وحيداً ، و مع أن جميع جسدي يأنُّ عليه ، إلا أنه ما زال لا يشعر ، بل أنا التي لا تشعر به ، فأتحسس نفسي كل يوم ، وأسألها هل فقدتي شيء ؟! والإجابة في التحسس الملموس هي لا ، وفي التحسس المعنوي هي كلي قد فُقد وما تبقي لي فقط أشلاء من الحزن ، يثلجه برود لا أعلم من أين يأتي ، و لكن أعلم أن بأسفله يقبع جمرٌ لا يلهب ، بل يقتل و يكتسح كل شيء بي ، يصلح لأن ينهض فيكون أكبر من بدايته، فماذا سأقول لك يا والدي سوي أني بخير ؟! و لكن هل رأيت ذلك الخير ؟!

و لو كانت الملامح تنطق لردت عليها الغرفة نفسها قائلةً باكيةً :
- لتجعلي الخير فيما تبقي من بقاياكِ إذا كان لكِ بقية في نهر

الفرح ، فلتخلعي نعليك المتسخين بل الغارقين في قاع آلامك، ولتخرجي من ذاك المستقنع الذي لن يعود عليك إلا وأنت خاسرة ، حتي تلك البقايا التي تسأليها الآن معاتبةً قائلةً لها .. (أين ضاع كلك ؟!)

كانت الأم تبكي صامتةً ، و لكن الأحداث بداخلها كانت تتصارع ما بين الماضي و بين ما تتجرعه الآن ، وهي تري زوجها يبتلعه القهر الذي كان يتكتم عليه عندما ماتا ولديه ، والأنين الذي صدأ و تعفن في أركان قلبها ، الذي يُزال غباره الآن ليسطع نغم الغم مرةً أخرى ، ومع كل ذلك الشعور الذي خيم علي العائلة .

خرجت هناء من الغرفة و لم تدخل حتي حل الليل ، وبعد أن خرجا والديها ، أعطت رضوي ورقة محاولة بها أن تتسلل إلي قلبها ، كتبت فيها :

(أنت ثقة يتوارى فيها الخوف و البكاء ، اختلاطٌ بين الأنين الهادئ غصباً ؛ لأن حق الصوت قد أُغتصب منك ، والصمت الصارخ ؛ لأن صراخك لم يجد منفذاً مما مررتِ به فقرر أن يكون صامت ، و لكنه سيظل صراخ بينه و بين أنينك وبكاءك ، فجميعهم معترفون بأن هذا الصمت ليس عادياً ، بل صاخباً بالقدر الذي يسبب الضوضاء للمشاعر ، يسبب تلوث قهري للفرح ، ضحكةٌ تخبأ ألم الأيام ، تعفف عن فقر المشاعر بل عن تقهقر الفرح ، ولكن هل يُعهد للإنسان بالفقر دائماً ؟! ألا يمكن أن نستغني بالتعفف ؟!

ولكن التعفف لا يداوي الألم ، لا يشتري الدواء ، لا يكفينا جوع السكينة طيلةَ هذه السنين الذي أُلقينا فيه ، حتي بات دواؤنا لم يُكتشف بعد ، فكان البكاء و الغموض يحفُّ بيتنا من اتجاهي فقط ، الآن بات من اتجاه الجميع يا عزيزتي ، فترفقي بنفسك قليلاً !)

قرأت خطاب أختها و لم تشعر بشيء ، فتيقنت أنها ليست كما عهدت نفسها ، فظلت تبكي حتي أنها حاولت أن تصرخ ولكن ظلت صامتةً ، لا تهمس ، فقررت أن تخلد إلي النوم و بالفعل نامت ، و لكن لم يغفل لوالدها جفن ، فكان صراخ داخله لم يُصرَّح له بالخروج بعد ، فظل يبكي و أصر أن يذهب في الصباح إلي الطبيب بابنته ؛ ظناً منه أن حالتها النفسية في تدهور ، ولكنه هو الذي رجع متدهوراً من عنده ، فلقد صعقه الطبيب ! وكل هذا و رضوي تبكي في هدوء ، حتي رجعت إلي غرفتها و لم يعرف ماذا يفعل !! فهو طيلة الطريق يسألها و هي لا ترد ، فتركها لوحدها و بعد دقائق معدودة تأتي ندي لتطرق الباب ، فتقابلها الأم و هي تظن أن رضوي أخبرتها أنها عادت ، فطلبت منها أن تنتظر ، وذهبت وأخبرت زوجها ، فأخبرها أن تدخلها لها بعد أن استأذنت ابنتها ، فخرجت الأم و أخبرتها أن تدخل إليها ، فلم تفهم ندي ماذا تقصد !! حتي قالت لها الأم :

- رضوي تنتظرك !
فهرعت إلي الغرفة ، واحتضتنت صديقتها دون أن تعلم ما بها، أو أن تدقق في ملامحها حتي جلست ، فبدأت تسأل فحكت لها رضوي كل شيء ، حتي ما قاله الطبيب ، و كانت تستمع و هي هادئة ، فلقد امتص منها المرض قدرتها علي الاندهاش ، بل وحدتها و بكائها و تألمها دون أنيس ، فقد استهلكتها معنوياً قبل أن يستهلكها مرضها جسدياً ، ثم سألت رضوي :
- هل تعتقدي أن ما حدث معك كان حقيقي أم هلوسة ؟!
فاستحقرت رضوي السؤال ، ونظرت لها بغضب ، وقالت :
- و ما هو الفرق بين الحقيقي و الهلوسة في وجهة نظرك ؟!
- لا تغضبي من سؤالي ، ولكنكِ قلتِ أن هناك طبيباً فحصك ، وأخبرك أنكِ تتناولين حبوب للهلوسة ، وأعطاك حقنتين وبعدها توالت الأمور سوءاً ، فأنا أسأل فقط لماذا لا يكون الطبيب هو السبب في هذه المهدئات و المادة الغريبة ؟!
توقفت عن الحديث قليلاً ، ثم سألتها عن مصطفي ، فلم ترد علي سؤالها ، بل سألتها :
- أخبريني ! من أخبرك أني رجعت من السفر ؟!
- لم يخبرني أحد .. أنا جئت أطمئن علي والديك !
و لم تخبرها الحقيقة ، فكيف ستخبرها ما أتت لأجله ، و صديقتها الوحيدة التي غابت عنها مشردة نفسيًا ؟! فلم تستطع أن تتحمل،

وأرادت أن تغادر ، ولكنها لم ترد أن تترك رفيقتها في تلك الحالة بعد ما عانته ، ليس في الغربة فقط ، ولكن أيضاً في البوح بما حدث ، فظلت تستفسر منها دون أن تجهدها ، حتي نامت فتركتها و رحلت ، و بعد أن استيقظت ذهبت إلي أبيها لتسأله عن مصطفي ، فلم يرد ، ولكنه شعر أن عليه أن يأخذها إلي حماتها لتخبرها هي بكل شيء ، فما إن حكت لها حماتها حتي بكت ، وما زالت في حالة التيه ، فأخبر أبيها حماتها بما أخبره الطبيب ، مما زاد قلقها علي ابنها حتي بدأت رضوي بالتحدث :

- ابتعدوا عني ! خذوا كل وقتكم لتبتعدوا ! ابتعدوا قبل أن تلتهمكم نيران قهري ، ونيران تيهي ، فأنا كنت المتسببة في موت إخوتي ، وها هو زوجي الآن لا أحد يعرف عنه شيء بسببي ، حتي أني لا أتعرف عليَّ ، فلقد أحرقتني نار الغربة والماضي كما فعل غياب زوجي !

قالت هذا بهدوء ، ثم نامت و دمعها لا يفارق وجهها ، كما هي صديقتها ندي التي ظلت تبكي ، وأمها تهدئها ، وتحاول أن تفهم منها ما حدث ، حتي أخبرتها بكل ما حدث مع رضوي ، فبكت الأم ، وقالت حزينةً :

- أطفال ! و لكن الدنيا قد أكلت في فرحتكم حتي أوصلت البعض الخوف من أن يحلم .. أطفال ! و لكن متشردون في عالم لا يعطي الفرص إلا لمن ولدوا ، أو أصبحوا في فيهم معالق

من ذهب، والبقية عليهم صنع الفرص .. أطفال ! ولكن باكون هائمون .. أطفالٌ عُجُزٌ من أن يفكروا في تحقيق الطموحات !
صمتت وهي تنظر إلي عقارب الساعة ، حتي أتت الواحدة ظهرًا فأعطت ابنتها الدواء لتتجرعه .. دواءاً لا يشفي ولا حتي يسكن الألم ، فالوجع يأتي من الخارج وليس من جسمها فقط ، وبعدها قامت ندي فاتصلت بخطيبها ، وسألته إذا ما كان هناك مواد للهلوسة ، ومهدئة أيضاً ، فأجابها بالإيجاب ، ولكنها لم تصيغ له السؤال الصحيح في البداية ، حتي أعادت سؤالها ومعلومته قائلةً:
-هذا يعني أن بعض الأدوية تجعل المرء يهلوس ، و تجعله هادئ، بل بارد في القيام بالحركة ، وليس في المشاعر فقط !
فلم يعطها جوابًا صريحا ، ظلت تتحدث معه و تشرح له حالة رضوي دون أن تخبره بأي شيء عنها ، سوى عن أنها كانت مغتربة، ووصف لها طبيباً لعلاج ما آلت حالتها الحالية إليه و شعورها بالضياع ، فلم يعرف نوع أي دواء ، و لكنه طلب منها اسم الدولة؛ علّه يستطيع أن يتوصل لاسم دواء في هذه البلد ، فربما لم ينتشر بعد ، ولكنها لم تستطع أن تجمع الاسم فاتصلت بالسنترال حتي ينادي عليها لتكلمها ، ولكنها لم تكن قد رجعت من بيت حماتها ، كانت نائمة و ما إن استيقظت ، قالت :
- لو أودعتموني في صحراء لتأذّى النبات مني !
فبكي أبيها ، وأخذها ليرحل فأرسلت حماتها سائقها معهما ،

وعندما رأتها أمها بدأت دموعها تنزل ، فقالت لها رضوي :
-ألم يمض وقت البكاء !!
فنظرت الأم إلي ابنتها ، وسألتها قائلةً :
-ماذا بكِ ؟!
- ليس بي شيء .. فقط تعبت ، تعبت من إعطاء الآراء في أحلامنا و طموحاتنا ، تعبت من العالم ! فلا تسأليني سوى أين ابنتك ؟!
سالت الدموع من أمها ، ولكنها كانت تريد أن تصل معها لنقطة تتفهم من خلالها ماذا حدث لها ، فقالت :
-وأين ابنتي ؟!
-لا أعلم ! ربما في ذاك السوق ، سوق الرقِّ للوصول إلي الأحلام ، سوق الغربة التي تنهش فينا ، وكأننا ليس لنا قيمة ! فابنتك قد أودعت في مقر التيه !
كاد قلب والدتها أن يتوقف عن النبض ، ومع هذا استمرت في النقاش معها كما قال الطبيب ، فسألتها هادئة :
- وأين مقر التيه ؟!
فقهقهت رضوي ، وقالت باكية :
- مقره هنا !
و أشارت إلي رأسها .
-ماذا تقصدين بهذا ؟!
- أقصد عيني التي أرادت أن تري العالم بمنظور مختلف ، وكأنها

قد تملكت زمام إعادة التدوير ، وعقلي الذي هو مديرها !
صمتت قليلاً ، ثم قالت :
- مقر التيه حلمي ، سعيي لشيء أكبر مني بكثير !
هنا تأكدت الأم أن من يقف أمامها ليست ابنتها ، بل هي شخص لا يشبهها ، فأسندتها وأدخلتها إلي الغرفة و حبستها ، فعارضها زوجها فنظرت إليه ، وكانت تود أن تقول له أن جسدها قد امتعض بما يكفي من انتظار موتي ، فلا يريده للمرة الثالثة ... لا يريد أن يتمزق ؛ لأنه ليس به مكان يصلح لهذا التمزق ، فهذه المرة لن يحدث صوتاً بل سيموت إذا أصابها مكروه ، ولن تستطيع حينها أن تنتشلي ؛ لأنك ستكون في تلك الدوامة بجانبي، تاركين هناء تلحق أختها و أخويها .. تملكت ثورتها من وجعها المرضي من أجله ، حتي لا تجعله ينهار ثانيةً أمام نفسه ، ولكنها لم تكبح هيجان حزنها علي ابنتها ، فقالت له :
- هذه ليست ابنتك ، فأنا أعرف ابنتي جيداً !
نظر الأب إلي زوجته ، فتابعت الزوجة الحديث حتي سلم لها تماماً ، و وافقها و لكنهما خافا علي هناء ، فلم يعرفا ماذا سيقولان لها ؟! ولكن قد مر الأمر بكذبة علي الصغيرة ، فقد أخبروها أن رضوي أصيبت بعدوى ، فمرَّ قرابة شهر علي رضوي لا تفعل شيء غير أنها نائمة ، فقد فشلت مجموعة الأطباء التي أرسلتها حماتها أن تعرف ما بها ، سوى أنهم وجدوا بعض المواد الكيميائية في

الدم ، فكانت أمها تدعي ليل نهار أن يشفيها الله ، وعندما رأت ابنتها تذبل أمام عينها لم تجد مفر من تأخر حالتها ، فأخبرت هناء أن تدخل إلي أختها .. وبعدها بقرابة أسبوع بدأت تصح جسدياً ، ولكن ليس ذهنياً ، فهي كانت تهذي و تنام لأوقات كثيرة ، حتي أتت لها ندي في مرة فدخلت إليها ، فلم تتعرف عليها ، فسألتها :

- رضوي ! هل أنت بخير ؟!

فصدمتها الأخرى قائلةً لها :

- من أنتِ ؟!

فبكت ندي ، ولكنها قالت لها :

- ألا تعرفين من أنا ؟!

فظلت رضوي تنظر لها ، ويبدو عليها الحيرة و لم ترد ، فتمالكت ندي بكائها ، وقالت لها :

- ألا تعتقدين أني مألوفة ؟!

فصمتت رضوي ، فاستأذنتها ندي و خرجت من الغرفة ، وذهبت باكية إلي أم رضوي في المطبخ تسألها ماذا حدث !! وأخبرتها ما بدر من ابنتها فصمتت الأم ، ثم أخبرتها أنها في مرحلة التعافي ، وأنه يجب عليهم أن يصبروا حتي يتم شفائها ، فرحلت باكية .

و في الصباح أخبرت رضوي أبيها أنها تريد أن تري مصطفي ، وكان مصطفي لم يرجع من الخارج فهو كان سجيناً ، ولا أحد يعلم بهذا

.. كان يعاني وحيدًا .. يُسأل و كل الأسئلة كانت تتمحور حول رضوته ، ولكنه لاحظ أن من يسأله علي دراية شبه كاملة بزوجته و به ، فظن أنها آلاء و زوجها هما السبب ، فكلما يُسأل كلما يزداد خوفه علي زوجته ، فلم يكن يعلم أنها رجعت إلي بيتها ، ليست سالمة و لا غانمة ، وإنما تائهة ، فكانت تبكي لأبيها حتي تذهب إليه فيخبرها أبيها أنه سافر لمدة ، فتبكي له في الغد و كل يوم ، حتي أتت ندي بخبر سار من وجهة نظر الجميع ، إلا وجهة رضوي ، إذ فقدت أي وجهة نظر بل عقل لتفكر به ، فعندما سمعت الخبر صدمت الجميع برد فعلها ؛ حيث سألت ندي عن ماذا تتكلم ؟! وعن أي شهادة ؟! فعلم أبيها أن مصطفي ربما لن يرجع ! وإن تركوه فسيكون كابنته التي رجعت إليه وهي فاقدة لكل ما يميز البشر ، بل حتي المخلوقات فلا تدرك ما حولها و لا تتعاطف مع كل جميل يخصها ، فخرج والدها المكلوم ، وذهب إلي حماتها و سألها عن مصطفي ، ولكنها لم تكن تعرف عنه شيء، كما أن أماني تزيد حملها فهي تسأل علي أخيها كل يوم ، فلم يرد أن يزيد قلقها عندما سألته عن رضوي ، فأخبرها أنها بخير و أنها تتحسن ، ورحل و طلب من ندي أن تتحدث مع أولئك الناس، وبالفعل تحدثت معهم لتنهار بكاءاً في البيت ، فدخلت إليها أمها وسألتها :

- ماذا بكِ ؟!

- كنت ذاهبة لأخبر أهل صديقتي الوحيدة بزفافي ، فإذا بصديقتي تجن ! ولكن كيف أخبر أبيها أن ابنته ... .

قالت هذا باكية وأمها أمامها تخبرها أن تهدأ ، وأن تشرح لها ولكن ابنتها لم تتحمل الخوف ، فوقعت أرضاً لتدخل في نوبة مرضية ، تاركةً الجميع جاهلون للحقيقة ، فتغيبت عن الوعي و خطيبها يأتي إليها صباح مساء ليطمئن عليها ، وهو يدعوا الله أن يشفيها ، فقد تأجل الزفاف و ساءت حالتها ، وكان ينتظرها أبو رضوي لتأتي له بالأخبار ، فهو يري حالة هناء عندما ترجع من بيت أماني و تخبره أنها لا تنفك عن البكاء ، فذهب إليها لتخبره أمها بما حدث فيزداد الرجل قلقاً علي زوج ابنته ، ولكن كان الأحرى أن يخاف ممن لديه في البيت ! فخرج من عندها و هو موقن أن مصطفي يحتاج للمساعدة ، وبالفعل كان هناك أناس يبحثون عنه في الخارج ، وبعد تحسن حالة ندي قليلاً بدأت أمها تسألها عما حدث ، فأخبرتها كل شيء ، فقالت لها أمها :

- لقد عانيتي من الوحدة والصمت ما يجعلك تفهمين أن عليك الهدوء و تمالك أعصابك ، وأن الدنيا لن تفرغ من المشاكل ، وكذلك نحن لن نفرغ من أن نأمل في ربنا خيراً !

صمتت أمها و أخبرتها أن تتكلم مع هؤلاء الناس و تفهم منهم، ولكن اشترطت أن تتكلم من خارج البيت من مكان عام ، وتسألهم ماذا يريدون من صديقتها ؟! ولكن في الصباح التالي أتي ضيف

غريب إلي بيت رضوي ليطمئن عليها من خلال جيرانها ، وبعدها اتصل بسيدة وهنا كان أحد جيران رضوي يتصنَّت عليه بعدما سأله عليه ، فهو لم يطمئن له ، وبعدما سمعه تأكدت ظنونه ، وذهب و أخبر أبو رضوي و أمها ، وبعدما خرج قالت الزوجة :

- أنا حبستها لأنها لم تكن رضوي التي نعهدها قوية و طموحة .. خفت أن تؤذي نفسها .. و بعدها أضحت هشة غير متزنة عاطفياً، فتحدث معي هل لا يحق لي أن اجتهد في الحفاظ عليها؟!

نظر إليها زوجها لعدة دقائق ، ثم قال هادئاً :

- فيما سأتحدث ؟!

- في كوني أريد التكلُّم !

صمت زوجها ، ثم أخبرها بكل شيء حدث مع ندي ، وتركها و ذهب إلي ابنته في غرفتها ، وطلب من هناء أن تخرج فجلس معها قائلاً :

- ما كنت أعلم أنكِ أنهيتِ منحتك ، و حققتِ حلمك ، و ما كنت أعلم أنكِ لن تُسرِّي بأوراق اعتمادك عالمة من كلية كنتِ دائماً تطمحين إليها !

ثم صمت .. كان يود أن يعلم من هي آلاء تلك الملعونة التي لم تتركها إلا و هي بتلك الحالة ، فهو صبر بأمر من الأطباء حتي لا ترهق ، ولكن لقد نفد صبره ، فسأل ابنته ، و لكنها ردت عليه :

- لا أعلم أحدا بهذا الاسم !

فاعتقد الأب أن هناك من يخدع ندي ، وقد قام بالفعل بخداع مصطفي ، وربما أيضاً ... أوقف الرجل اعتقاده قائلاً لنفسه :
- خارت قواي و أنا أراكِ هكذا ، و تهدَّم فكري بغياب زوجك !
فقد كان يبني اعتقاده لكي يطمئن نفسه ، و لكن بعد أن أتي ذلك الغريب يسأل عن ابنته لم يستطع التمادي في وهم نفسه، ولم يستطع أن يكلم زوجته ، فخرج تاركاً البيت ، ذاهباً إلي المسجد ليصلي و يدعي الله ، بينما كان هناك آخرون يسعون وراء خاطفي مصطفي ، و وراء أخبار ابنته ، فبعدما أخبرتهم ندي بالتفصيل عن حالة رضوي علي مضضٍ ؛ خوفاً منهم ! وبعدها بأيام أرسلوا إليها رسالة صوتية و صورة ! لم تعرف ندي حينها هل هو حل لرضوي أم مصيبة أخري لها و فاجعة علي أهلها ؟!
فذهبت إلي خطيبها ، وطلبت منه المساعدة فسألها :
- كيف حال صديقتك ؟! هل ستتحمل هذا ؟! فهي حتي نست أنها تعرفك ، فربما نسيانها ... .
قطع حديثه ليأخذ شهيقاً يخفف من حدة صدمته .. كيف لبشر أن يفعلوا مثل هذا ، ثم قال لخطيبته :
- هل ستتحمل ؟!
شعرت ندي أن الأمر يتفاقم ، فقالت باكيةً :
- نعم نست ، وعندما تستفيق ستجد نفسها خسرت زوجها !
صمتت صاعقة خطيبها فلم يتكلم ، وحاول تخيل ردة فعل رضوي

و أهلها ، فأقنعها أن يذهب معها إليها ، فقالت له :
- أنا تحملت ! ألا تتعرف عليَّ ، ولكني لم أتحمل دمعها ! تحملت سفرها و غيابها ، ولكني لم أخبرها عن السبب الحقيقي وراء اختفائي ، حتي لا تغضب من نفسها ، فلا تخبرني الآن أنه علي أن أقول لها ، أو حتي أجعلها تري كم القسوة هذا !!
فأخبرها بأن يذهب هو إلي أبيها و يشرح له كل شيء ، ويقرر هو ما إذا كان سيخبرها أم لا ! كان بخبرته كطبيب يعلم أن رضوي ربما لن تتحمل الصدمة ، كما أنه كان مشفق علي أبيها ، ولكن لم يكن هناك مفر حتي يستريح الجميع ، ففي اليوم التالي ذهب ليقابل أبيها ، وأخبره كل شيء ، وكان علي ابنته أن تحل تلك العقدة المفقودة ، وكان عليهم أن يذكروها بكل شيء ، وهذا لم يكن سهلاً بل كان مستحيلاً ؛ لأن هذا الأمر لن يتم إلا بتدخل أحد آخر ، وهم لا يثقون فيه ، ولكن الطبيب نصح الأب ألا يخبر ابنته فقد يسوء الأمر ، فشعر بثقل ما يعانيه أبيها ، فقال له :
- أنا أعتذر لأني أبلغك هذا ، وأقسم أنه لو كان في موسوع ندي أن تنفذ طلبهم لجعلتُها ... .
فقاطعه قائلاً بحسرةٍ :
- ليكن ما يكن ! فما هو مقدر سيحدث رغم أنف الجميع ، فاللهم لا اعتراض ، واللهم رحمتك !
فنصح الأب أن يذهب إلي أم مصطفي أولاً و يرجع بعدها إلي

ابنته ؛ لأنها الوحيدة القادرة علي إنقاذه .. كان متأكداً أنها ليست نصيحة بقدر ما هي مجازفة بعائلتين .. حاول قدر استطاعته أن يساعد الأب بأن يعلي من روحه المعنوية ، ولكنه كان مصعوق بداخله علي ندي حبيبته ، ولا يظهر هذا فتركه و رحل فبكي الأب، فدخلت إليه زوجته ، فقالت له :

- مصطفي كرضوي ، فإن حدث له شيء في الخارج سنتألم ! فلنرجعه بأي ثمن ، وصدقني من يفعل الخير و نيته لله يعينه الله !

ارتاح الزوج حيث كان قلقًا علي زوجته الباكية التي كانت تريد أن تتحدث بالأمس ، فها هي تطيب خاطره اليوم ، فقرر أن يذهب إلي بيت مصطفي ، ولكن لابنته و ليس من أجل مصطفي، فطلب من هناء أن تذهب إلي أماني و معها أميمة حتي يجلسا معها ، بينما هو يتحدث مع أمها فطلب منها أن تعيد عليه ثانيةً كل ما قاله مصطفي قبل أن يسافر ، وعندما حان دور أن يطلب منها صورة ، ظهرت عليه الخنقة والضيق ، فقد قال لها :

- ابنتي الآن تنسى كل ما هو بعيد عنها ، فأنا أطلب منك أن تعطيني صورة لمصطفي حتي أريها إياها كل يوم ؛ حتي لا تنساه!

شعر حينها أن الغربة لم تغدر بابنته فقط ، بل بكلامه أيضاً يظلمها ، فهي تبكي ليلها .. تتمني أن تراه .. فكيف تنساه !! شعر أنه يخذل مشاعرها وأنينها ، فأخذ الصورة و ذهب إلي خطيب ندي فأعطاها له ، وذهب إلي ابنته و هو يردد عليها كل شيء

مرة و إثنين و عشرة ، وابنته لا تتذكر فأخبر خطيب ندي بالأمر حتي يراسل أولئك الناس الذين لا يعلمون من هم حقاً ، فذهب خطيب ندي إليها و طلب منها أن يتحدث معهم ، و أرسل لهم صورة مصطفي و أخبرهم بحالة رضوي ، فأرسلوا له صوراً و مقاطع فيديو أخافته ، فلم يريها لندي ، ولكنه أخذها إلي رضوي فرآها أبيها ، فظل يبكي و يصرخ ، وبدأ يكسر أثاث منزله حتي وقع و نُقل للمشفى ، وكانت حالته خطرة ولكنه طلب من ابنته أن تشاهد تلك الصور ، وألا تشاهد المقاطع فرأت الصور ، ولم تتذكر شيء ، فطلبت منها أمها أن تري المقاطع فرأتها ، فارتعبت، واستندت على الحائط في ركن الغرفة ، وظلت تبكي و ترتجف ، حتي أن أطرافها تجمدت !

ظنت الأم أنها تفقد ابنتها ، وزوجها في المشفى لا يعي بشيء مما يحدث حوله ، فتماسكت رضوي و بدأت تسمع الرسالة الصوتية لتجعلها تلعن صديقتها الميتة ، وفي هذا الوقت كانت تُمَارسُ على مصطفي أساليب الضغط للجنون ، فقد كان يُساق إليه فإما أن يأتي إليهم بما عند زوجته ، أو يتركوه ليجن ! لم يري أنه لديه اختيارات ففي النهاية سيكون الموت حليفه و الحسرة حليفة أمه، فاختار زوجته التي الآن تبكي و تشعر أنها قُسِمت إلي ضفتين ، ضفة قلبه الذي لا يفكر إلا في زوجها فتحسها علي الذهاب إليه، وفي الضفة المقابلة سفينة عقلها تأبي أن تتركه يهلك ، وتأبي أن

تتصرف بهوجاء ، إلَّا أنها ما زالت تلعن في صديقتها الميتة التي سمعت خبر وفاتها و هي مريضة في الغربة ، ومع هذا تألمت لها فقررت أن تطلب من ندي أن تأتي إليها ، فكتبت لهم عن المكان الذي كانت محبوسة فيه حيث لا تري فيه الشمس و لا تعرف إذا كان في الخارج نهارًا أم ليلاً ، وعن صوت فتاة ، فأرسلوا إليها الصوت ففزعت !! لم يكن كل هذا سهلاً عليها .. لم تكن تتخيل أن من بكت علي موتها ستكون السبب في تدمير حياتها ، فذهبت إلي ندي تاركة أبيها بهذه الحالة ، ولكنها ذاهبة لتسأل تلك المتوفَّاة .. لماذا ؟! و لكن لم تجد الإجابة سوي أنها كانت كقطعة شطرنج في لعبة كان بناتها أناس بلا ضمير، وشهوتها حلمها فبكت ، وأرادت أن تأخذ حقها فذهبت إلي ضابط صديق زوجها ، وتحدثت معه، ولكنه لم يفهم لماذا قد تفعل صديقتها هذا ! فسألها :

- لماذا أدعت صديقتك أنها توفت ؟!

فأشارت برأسها أنها لا تعلم ، فطلب منها أن يسمع الرسالة الصوتية ، فكانت الرسالة :

(رضوي ! أعتذر عن كل شيء ! ليس بكِ شيء ، إنما هو مخدر حتي تنسي كل ما حدث لكِ هنا ، لقد سرقت هاتفك وكل ما يمكنك أن تتواصلي به ، إلا هاتف آلاء ، ولكِ أن تعلمي أنه ليس هناك آلاء ، وأنكِ لم تُمّسي بسوء ، وأن كل ما حدث معك كان مخطط من قِبَلِ أناس آخرون ، فلولا تدخلي لكنتِ ميتة الآن ، فلا تظلميني فأنا

فتاة وقفت أمام طلاب ، واعترفت بأنها لا تملك أصدقاء ، فكيف لي أن أضحي بكِ بعد ما فعلتيه لأجلي!!) .. فسألها :

- كيف عرفتي أنها صديقتك ؟!

- لأنها تلك التي وقفت أمام الطلاب قائلةً : - قد ماتت صديقتي - .

قالتها بسخرية فبعدما سمعت الرسالة ، ورأت الصور و الحالة التي وصلت إليها أمها و خطورة وضع أبيها ! كل هذا تكفل بجعلها قادرة علي إخفاء ألمها و وجعها ، فكل ما كان يشغل بالها زوجها الذي كان يصرخ من الوحدة متأوهاً في صمت علي حالته ، باكياً علي الظلمة التي يعيش فيها ، وعندما طلبوا منه أن يأتي إليهم بهاتف زوجته أخبرهم بأنه سُرق ، فتركوه في ظلمته تلك عاجزاً لا يملك حق أن يطلب الطعام ، فضعف و كذلك أمه ضعُفت حتي الموت ، لتبقي أماني وحيدة دون أهل ، فأخذها أبو رضوي عنده في البيت ، وقررت رضوي حينها أن تذهب إلي مصطفي .. كانت تود أن تطمئن عليه !! تمنت لو أن الساعة لم تُسرق منها !! تمنت لو تعلم أنه حيٌّ !! فلم تجد سبيل غير أن تتكلم مع صديقتها وتطلب منها أن ترسل إليها تذكرة حتي تبحث عنه ، ولكنها رفضت وأخبرتها بكل شيء .. كانت تخاف عليها فظلت رضوي تلطم وجهها ، وندي تهدئها ، فلم تفلح ، فنادت علي أمها لتهدأ تلك المذعورة أمامها ، ولكنها تلطم وتصرخ

قائلةً :
- أنا السبب !
و هما لا تفهمان أي سبب فاحتضنتها أمها ، وأمسكت ندي بأيديها، فبدأت ترفس برجليها ، فأحكمت الأم عليهما حتي خارت قواها وهدأت ، حتي بدأت دموعها تنزل بصمت ، فسألتها ندي هي السبب في ماذا ؟! فردت عليها :
- علمت أنكِ خُطبت ، فعندما تتزوجي و تنجبي علمي أولادك ألا يحكوا أحلامهم .. علميهم أن يحتفظوا بذكائهم وأهدافهم في جحر قلبهم ، لا يطلع عليه أحد و إلا قُتلوا حقداً أو حسداً أو جشعاً !! علميهم أن يعيشوا في صمت !!
و تركتها و رحلت ، وذهبت إلي أماني و احتضنتها وهي تبكي بحرقة ، وأخبرت أبيها أنه حتي يرجع مصطفي ، عليها أن تسافر فرفض الأب ، ولكنها قد اتخذت قرارها فانتظرت يومين ، ثم ذهبت إلي ندي و راسلت صديقتها ، وطلبت منها أن ترسل لها تذكرة ، فوافقت نتيجة لإلحاحها ، وبعدما أنهت حوارها سألتها مرةً أخرى :
- لماذا فعلتي بي هذا ؟!
- لأني مثلك ، ما كنت أعرف أبداً أن طيبة قلبي ستجعلني متهمة بالقتل ، وستجعلك ضحية نتيجة كلامي عنكِ !
فصمتت رضوي ، ولم ترسل لها أي رسالة أخرى ، والتفتت إلي

ندي، وقالت لها :
- متي ستتزوجين ؟!
- بعد أن يرجع مصطفي .
فنظرت لها دامعة العينين ، وقالت :
- تزوجي ! فهناك حياة تنتظرك وهي من حقك ، ففيما سيؤثر الزواج علي مصطفي ؟! هل سيرجعه ؟!
فقالت لها باكية ، وهي تربت علي كتفها :
- سيرجع بأمر الله .
و قبل أن تكمل كلامها رحلت ، فهي تسمع هذا الكلام مرارًا و تكرارًا دون أن يتخيل أحد أثره عليها ، فهو يخيفها ، يشعرها أن عليها أن تقبل بتلك المقايضة ، وتستقر علي الخيار الذي يضعها هي و زوجها في كفتين ، وليس كفة واحدة ، فليس كل ميزان عادل قابل للتعايش مع البشر لا يتفق مع مقولة .. (أن ما تملكه يكفيك ، وإلا فاجتهد أكثر ، ولكن بذكاء ، بخبرة الفشل السابقة، و بحماس البداية الأولي) .. و لكن إذا كان الميزان من صنع البشر فأنَّى له بالإنصاف !! فحتي الإنصاف له ثمن في زمننا هذا .
إن العدالة علقوها علي ميزان وسيدة لا تبصر !! فكيف لها أن تراه !! كان أولي أن يجعلوه سمعياً ، ولكن ربما تكون صماء هكذا هي أُذن العدالة !! كل هذا الكلام كان رداً بداخلها تكتمه ، فلمن ستبوح به وهي أضحت محطمة لدرجة تسمع فيها ما يوجعها،

وتريد أن تصرخ ، ولكن بداخلها يردد هل ينقصني كلامكم ؟!
فلتأتوا و تخبروني عن زوجي ، لا أخبركم أن ترجعوه لي ، فقط طمأنوني عليه ! كانت قد وصلت إلي أقصي حد من التحمل حتي موت حماتها ، بل أمها الثانية .. أتى هذا ليكون كالقشة التي قطمت ظهر البعير ، وما حطمه بكاء أماني و ضعفها ، حتي باتت تتوجع ، فذهبت إلي أبيها باكيةً قائلةً له :

- أبي ! أود أن أتحدث إليك .

كان يعلم فيما ستتحدث ، وعلي الرغم من رفضه للخوض في هذا الحوار ، إلَّا أنه قَبل ، فأشار لها أن تتحدث ، فقالت :

- إذا رأيتني يا ابنتي أظلم أحدًا فشُدي علي معصمي ، وذكريني أننا ألسنة تخطو نحو درب الآخرة ، أو درب المعاصي ! ذكريني أننا كنا جميعاً نحبو ، نلمس تلك الأرض التي سنكون تحتها !

أوقف ابنته فهذا كلامه ، ولكن لا يلائم ما تريده ، فهو لن يضحي بابنته ، فقال لها :

- اذهبي إلي ندي .. شاهدي المقاطع مرةً أخرى ، وشاهدي شكلك، وتعالي لتخبريني بما تعتقدي أني أستطيع الموافقة عليه ، فأنا لا أظلم زوجك ، بل إني أتمزق يومياً دون أن أهمس !

صمت الأب فذهبت ابنته لتنفذ ما طلبه ، وكانت مهلكة ، فقالت لها ندي بنبرة تملأها رحمة ، وتعاطف :

- أخبريني ما بكِ ؟!

- ماذا أخبرك ؟! هل أخبرك عن حب أحببته فأحب أن يقتلني؟!
أم عشق يُمارس ضده طرق لا إنسانية و ما زال محتفظاً بي ؟!
أم حلم أهلك صاحبه بل عائلتين ؟! فقط أخبريني بما ترغبين في سماعه ، عدا أني بخير !

نظرت إليها ندي ، وقالت لها في خجلٍ :

- أخبريني فقط ، هل ما زالت لديك ثقة لتكملي بها ؟!

فقهقهت رضوي ، وقالت :

- لدي ثقة في حزن من حولي ، تجعلني عاجزةً .

ثم توقفت ، وبكت قائلةً :

- لدي ثقة في الله لا يعتريها شك ، ولكن علي الإنسان السعي حتي يصل لمراده ، عليه أن يمسك يده من معصمه كل صباح حتي يحارب فشل الأمس ، وفي الليل يرفق بقلبه و يجذب فكره إلي أن الأمور بخير ، إنما فقط تحتاج الكثير من الإرادة .. و أنا إرادتي و مرادي زوجي !

صمتت ندي لأنها شعرت أن هناك ما تخفيه عنها ، فسألتها ماذا تنوي أن تفعل ؟! فلم ترد عليها بل طلبت منها أن تشاهد المقاطع ، وتخبرها كيف هو شعورها ، فرفضت ، فقالت لها باكيةً:

- رفضتي أن تري لأنكِ لن تخبريني بشعورك ، فاسألي نفسك كيف يكون شعوري و زوجي هناك ؟! أنا اتخذت قراري فكفى ! اذهبي لتتزوجي !

لم ترد عليها و لكن انتظرتها حتي غادرت ، وفتحت الرسائل فعرفت أنها ستسافر ، ودت أن تذهب و تخبر والدها حتي يمنعها، ولكنها خافت أن تغضب منها ، فذهبت إلي خطيبها و أخبرته ، فذهب دون علمها و تحدث إلي رضوي ، ولكنها أبت أن تستمع إليه ، فأخبرها أنه سيقول لوالدها ، فنظرت له نظرةَ سخريةٍ ، و كأنها تقول له :

- ألن يعلم أبي ، ولكن لن يفرق !

فتركها و ذهب و أخبر والدها ، فبعدما رجعت إلي البيت كلمها ، ولكنها لم تعطْه جواب سوى أنها قالت :

- لقد تصلبت !!

فنظر لها ، وعلي وجهه ملامح الاستغراب ، فقالت له :

- شاهدت المقاطع ، وشعرت أني حقاً كنت أُقتل دون أن أدري ، ولكن مصطفي الآن يقتل ، وأنا أدري !

فحاول أن يكلمها ، فأخبرته أنها اتخذت قرارها ، ولا رجعة فيه ، فنظر لها و أدمعت عيناه ، وقال :

- عندما نحتضن أبنائنا ليس لنخفف أوجاعهم بقدر ما تزول أوجاعنا تلقائياً بمجرد أن نلمس فرحتهم .. تذكري هذا يا صغيرتي!

فبكت واحتضنت أبيها ، ودخلت إلي غرفتها ، جهزت عدة سفرها، وقبل أن يستيقظ أحد ، كانت قد أرسلت لها صديقتها التذكرة ، وسافرت .. كانت تطأ بقدمها علي سلم الطائرة خائفة

أن تصعد ، فهذه المرة ذاهبةٌ و قد لا تعد ، هذه المرة وجع و ليس بهجة ، ضياع حلم و رجوع زوج ، وليس تحقيق فخر و طموح !! طيلةَ الطريق كانت تهدأ نفسها ، فما إن هبطت الطائرة حتي أجهشت بالبكاء ، وعندما رأت صديقتها تنتظرها انفجرت كل مشاعر الكتمان ، لم تستطع أن تتمالك نفسها فصفعتها أمام المطار كله ، فأخذتها صديقتها من يديها إلي السيارة جرّاً دون أن تتحدث معها ، فما أن أبعدت شفتيها عن بعضهما ، حتي قالت لها :

- من أعطاك الإذن حتي تدخلي حياتي وتجعليها حصناً للبكاء ؟! لعنك الله من أنثي في كل درب تسلكينه ، وفي كل حين ! كل ما أود أن أسمعه مكان زوجي .

فنظرت لها و لم ترد ، و أشارت للسائق أن يقود ، وتوقفت السيارة أمام بيت قديم مخيف أمامه قمامة ، و تفوح منه رائحة كريهة في منطقة غير مأهولة ، ففوجئت أن نزل السائق و فتح لها الباب و صديقتها تخبرها أن تنزل ، فنزلت خائفة وقدميها ترتجفان ، فقالت لها :

- لا تقلقي زوجك بفضل صفعتك سيرجع لك ، ولكنكِ لن تعودي!! أقسم لك أني كنت مضطرة ... .

أوقفتها رضوي و سألتها إذا ما عرفت مكان زوجها أم لا ، وأنها تريد أن تري سليمي ، فقالت لها بنبرةٍ هادئةٍ :

- أنت أمانة عُهدت إلي من قِبَل والدك ، فعليكِ أن تهدئي حتي لا نخسرك ؛ لأننا ربما بالفعل خسرناكِ !
تسمرت مكانها بعدما سمعتها ، فكان داخلها يسأل ما دخل أبي؟!
فإذا بصديقتها تشير لسائقها أن يدخل السيارة ، وقالت لها قبل أن تغادر :
- يتوجب علي الرحيل الآن ، ويتوجب عليكِ البقاء هنا ، ستجدي آلاء بالداخل ستمكث معكِ !
دخلت و كانت تحقن غضبها ، علي عكس أمها التي فرغت غضبها علي أبيها تلومه علي أنه سيكون السبب في موتها .. تلومه علي عدم ردعه ، وكل هذا أمام هناء وأماني ، فقال لها جملةً واحدةً :
- ما الفائدة من أن أشعرها أنها تخلت عن زوجها ، فأتركها لضميرها و شعور الخذلان يقتل فيها كل ثانيةٍ !!
ثم غادر البيت باكياً دون أن تراه ، مُقدِّراَ مشاعرها ، يُخالجه شعور تخبطِ أن ابنته لن ترجع دون أن ينطق ، حتي ندي كان بداخلها مغيب عن كل ما يدور حولها ، قلق علي رضوي ، ولكنها لم تستطع أن تؤجل الزفاف فأمها رفضت ، وأخبرتها أن خطيبها له حياته التي هي أضحت بنيتها ، فليس من حقها أن تسرقها منه ، وأنه متفهم لموضوع رضوي كله ، بل يساندها ، فأخبرتها أنه ذهب إلي أبيها و أخبره أنها تريد أن تسافر ، فصممت ندي حينها فهو لم يخبرها بهذا ، فشعرت أمها بغضبها ، فقالت لها :

- رضوي جزء منك و منا ، وعلينا جميعاً أن نقف بجوارها ، كما أنه شعر برغبتك أن تخبري عائلتها ، ففعل هذا من أجلك ، ومن أجل عائلتها .

نظرت الأم إلي إبنتها و عبرت عن رفضها التام لتأجيل زفافها ، فكتبت ندي إلي خطيبها جواب تقول له فيه .. (ساندتني في وقت كنت أراك فيه هبةً ، ورحمةً من عند الله .. رحمةً تخطت أي دعاء ، رفعت يدي لأدعوه يوماً باكيةً ، وفي ضيق أود أن أخبرك أني خائفةٌ ، هناك جزء بداخلي يرتعب يرتعد من الخوف ، فبرغم ما مررت به من مرض ووحدة حتي من أكبر كذبة كنت أمارسها علي حياتي ، وهي أني أجيد الهروب لأني ما استطعت أن أهرب يوماً ، بل ما كنت أُجِدُّ في الهروب ، فكنت أجلس مكاني و أردد لي أني هربت ، ويكون ما أهرب منه بجانبي ، بل بداخلي .. أهرب من كون أن رضوي يمكن أن تقتل ، ومما يحاولون أن يزرعوه بداخلنا أن هذا العالم سيء لدرجة لا نستطيع أن نعيش فيه ، مع أنهم يعيشون و يلعبون !! ربما يخبروننا أنهم سيئون أيضاً و ينصحوننا أن نكون مثلهم .

أمامك يا عزيزي صغيرة تخاف من حلم ، فتستيقظ وجسمها كله يرتعش ، فأنت أمامك ملامح طفلة بروح عجوز فُطر قلبها علي ما بها إلا ركن صغير بها يشع حباً وضحكاً يضفي علي تلك الروح ، التي تملكها شيبُ الفكر راحةً و سكينةً ، ينير لها مسلكاً ما كانت

لتحلم به يوماً .. مسلكاً مفروشاً بالأمل ، مرصَّعةً جدرانه تلك التي صمتت خصيصاً للتوكؤ عليها حتي النهاية .. بالرغبة في الحياة يشتق من هذا الركن النعيم ، فهل تعلم أن هذا الركن ملك لك فقط ؟! ينبع بداخلك ليصب بداخلي ؛ فيقهر كل مخاوفي !! إنك أنت .. أنت فقط .. أنت من أشتم بسيرته رائحة الطمأنينة !! ما كنت أتخيل يوماً أن يعطيني الله كل هذا الرزق !! وأنت رزقي ، لقد رُزقت عشقك ، فملكت حياتي !!) .. فحينما قرأ جوابها بكى ، وظلَّ يضحك بصوتٍ عالٍ ، فدخلت عليه أخته فوجدت الورقة ، فما إن أمسكتها حتي أمسكها منها قائلاً لها بفرحٍ :

- هل تريدين أن تأخذي ورقة اليانصيب الرابحة خاصتي ؟!

ضحكت أخته ، و قالت له : ندي ، أليس كذلك ؟!

فردّ عليها :

- ندي لا تُشبَّه بورقة يانصيب ، بل حياة بأكملها !! قليلٌ عليها ... إنها حياتي السعيدة المبهجة !!

فتنهدت أخته قائلةً له :

- و ماذا أكون أنا ، وأنا السبب في رؤيتك لها ؟!

فنظر لها خجلاً ، ولم يرد ، واحمرت وجنتاه ، وابتسم وأخفض رأسه ، فقالت له :

- أنا سعيدة لك و لها ، أمَّا سؤالي ، فهو من سبيل المداعبة .

فاحتضنها ، فلمست فرحته ، فشعرت بسكينة ، شعرت بأن أخيها

قد رجع إلي الحياة مرةً أخرى ، فحاولت بعدها بساعات أن تتصل بندي التي لم ترد ؛ لأن بالها مع رضوي ، تنتظرها أن ترسل إليها رسالة لتطمئنها حتي تطمئن عائلتها ، فكانت قلقة عليها ، وعلي غضبها من صديقتها تلك ، وكانت محقة في قلقها ، فقد كانت رضوي تنظر لآلاء بازدراء ، ثم قالت لها :

- من هي آلاء ، ولماذا ضحيتي حتي بوجهك ؟!

فنظرت لها ، وقالت :

- لما تسأليني ؟! فما دومتي تعرفين هذا ، فلابد أنك تعرفين كل شيء !

فأخبرتها أنها لا تعرف شيء سوى أن الجميع هنا ليسوا هم ، أنه لا يوجد أحد يُدعى آلاء ، فأخبرتها آلاء أنها واحدةً ممن عانوا بسبب أحلامهم ، فقالت لها :

- أنا لم أري والدي الذي أملكه من الدنيا منذ سنين ، لا أعرف عنه إلا القليل ، أخاف أن أقترب منه فيسألني من أنا فلا أرد ، و لكني عندي الرد فاسمعيه سأقول .. - أنا المهزومة و سأبكي بحرقة كل الليالي التي كنت أراه فيها من بعيد ، ثم سأمسك يده و أضعها علي رأسي الذي كان يملس عليه كلما أحزن .. سأقول له أن ينظر في عيناي الذي كان يخبرني أنه يريدهما أن تحلقا نحو العلا .. سأحكي له عنك .. سأقول له تعرفت علي فتاة طيبة وقفت بجانبي بمشاعرها ، شعرت أنها أختي .. سأسأله إذا ما كان ينتظر

رجوعي أم كان يظنني مِتُّ ؟! سأسأله إذا كان يشعر بي عندما أكون بقربه ؟! سأحتضنه وأصرخ بأعلى صوت لي ، وأخبره أن يهمس لي ، ليس كابنته بل كغريبة أني بخير فلا تنظري لي هكذا؛ لأنك في فترة كنتِ تعطيني شعوراً تطيب له النفس .. لا تنظري لأني أراكِ رُغْمَ ما بكِ أفضل مني !! -

فصرخت عليها رضوي ، وهي تحرك يدها بغلظة علي رأسها ، وتقبض يدها الأخرى قائلةً :

- لستم بشراً ، فقدتم إنسانيتكم بسبب أنكم ظلمتم !!

هدأت رضوي ، واعتذرت منها .. لقد شعرت أنها تظلم آلاء ، أو أياً ما يكن اسمها ، فقالت لها :

- الأوجاع لا تقارن ، فهناك شاب محبوس لا يعلم أن أمه توفت، وأن أخته لا تنام كل يوم إلا إعياءاً من البكاء ، و أن زوجته قد تلتحق بأمه قريباً !! فإياكِ أن تصنفي آلام الآخرين ، أو تضعيها في خانة مقارنة الأوجاع ؛ فلكل منا ألمه و هو يخصه فقط .

لم تكن تحاول أن تخفف عنها بعدما صرخت عليها ، بل تحاول أن تعرف منها كيف ظُلمت ؛ علها تصل إلي مصطفي ، فأخبرتها أنها أتت هنا للدراسة علي حساب والدها ، وتعرفت علي فتاة تدعي آلاء توفيت ، واتهموها و صديقتها ، وشخص آخر في قتلها بسبب أختها ، ولكنهم لم يعثروا علي الجثة ، فأشار عليها طبيب كانت تحبه ، وأشارت إليها قائلةً :

- أنت قابلتيه ، هو الذي أعطاك الحقنة .
فلم ترد عليها رضوي ، فاستكملت حديثها مخبرةً إياها أنه أشار عليها أن تغير وجهها إلى وجه آلاء ؛ لأنهما كانوا سيحبسا حتي لو لم يجدوا جثتها ، فهذا هو القانون هنا ؛ لأن ثلاثتهن في غرفة واحدة ، فلا تخرج إلا معهما ، ولا تأكل إلا معهما ، فوَكّلت لهما إدارة الكلية رعايتها ؛ لأنها كانت مصابة بمرض في القلب ، فوافقا ووقعا علي الورقة ؛ لأن هذا كان سيزيد من درجاتنا ، حتي استيقظا في يوم ليجدا فراشها كله مغطي بالدماء ، وعندما فحصوها وجدوها دماءها ، ودمائي ودماء صديقتها ، بكت آلاء ، ثم قالت :
- كنا نعمل تحت أيدي طبيبة مباشرة ، وكان بعد غدٍ سوف نستلم شهادتنا ، ولقب العبقرية ! ذلك اللقب اللعين الذي يُمكنك من أن تنشري اختراعك و أن تربحي منه و يذيع صيتك في كل البلاد .. كان الاختراع مشاركة بيني وبين صديقتك ، وما زال الاختراع في طيِّ الكتمان !
زاد بكاء آلاء ، فمسحتها ، ثم قالت لها :
- ظللنا فترة كبيرة محبوسين ؛ لأنهم كانوا ينتظرون ثالثتنا أن تظهر، ولكن كيف و أنا ألعب دورين في هذه القصة !! فاضطررت حتي نخرج من ذاك الحبس اللعين ، فهو كان تحت الأرض لا هواء لا ماء و لا طعام ، حتي نتحدث كانوا يسمحون لنا بالمقابلات كل

وقت مرةً ، لا أعرف المدة فنحن كنا لا نفرق بين الليل والنهار !!
فقاطعتها رضوي ، وقالت مندفعةً :
- لقد سُجنت هناك ، لابد أن مصطفي هناك !
فربتت آلاء علي كتفها قائلةً :
- البلد كلها هنا سجن تحت إمرة امرأة ، ففي كل بيت ستجدين تحته مخبأ فيُسمى للعائلة مخبأ ، ويسمي للغرباء سجن !
فصمتت رضوي ، وطلبت منها أن تكمل ، فرفضت و أخبرتها أنه عليها أن تكلم ندي حتي تطمئن والدها ، فرفضت وطلبت منها أن تكمل ، فأخبرتها أنها ستكمل لها غداً ، أما الآن فيتوجب عليها أن تستريح حتي تقابل سليمي ، وقالت لها بتحذيرٍ :
- عليكِ أن تهدئي ، فعصبيتكِ لن تفيدك معها !
لم تهدأ ، بل زادت خوفاً و قلقاً من كلامها ، فإذا كانت بدلت وجهها و ابتعدت عن أبيها ، فماذا ستفعل هي حتي يتركوا زوجها!! كانت تريد أن تعرف باقي حكاية آلاء ، ليس لشيء سوي أنها تشغل بالها ، وتكتسب معلومات كما أخبرها الضابط، فما زاد خوفها أكثر أنه كان عليها أن تنام ، فهي ما كانت تأمن لشرهم، ولكن قد هلكتها رغبة النوم ، فنامت تاركةً أهلها وندي قلقين عليها ، فكانت أمها جالسة بجانب أبيها تبكي ، ولا تنطق ، وكانت أماني بجانب هناء تصبرها ، فقالت لها هناء :
- علَّ الأمور بخير ، أما زلتي لا تريدين أن تفضفضي ؟!

فتنفست أماني بعمقٍ ، وقالت لها :
- لقد ماتت أمي .
فصمتت هناء تماماً ، ثم قالت :
- ما حال حزنك اليوم ؟!
فردت عليها بهدوء :
- لقد مات أبي ، وأعيش في بيتك ، واختفى الوحيد المتبقي لي من عائلتي دون علم إذا كان حيًّا أم ميتاً ، فكيف حالك أنت ؟!
لم ترد هناء ، فماذا ستخبرها ؟! فإذا تكلم شخص بهذا الشكل ، فما الذي سيفرق معه ؟! فسألتها قائلةً :
- ألم تشتاقي لأميمة ؟!
- بل اشتقت لأمي .. هلا نمنا ؟! فأنا أود أن أنام ، وأنا أعتذر !! أعرف أنك قلقة علي رضوي ، ولكني أرغب في النوم !
لم تنم ، بل كانت تمسح دموعها ، فقامت هناء فجأةً قائلةً لها :
- ما هو الليل ؟!
فردت عليها :
- الليل نجاة .. قد يشع نوره أكثر من نور الشمس ، حتي و إن كان في آخر الشهر ، نور دعوة استجيبت ، و نور سجدة نتضرع فيها .. الليل وحشة ، وأنس ، وحشة للأشخاص ، وأنس مع الله !
فُجعت هناء من ردها ، مما جعل دموعها تنزل بهدوء ، وكأن قلبها هو الباكي ، فخلدت إلي النوم ، لتستيقظ فزعةً على صوت

بكاء أماني ، فسألتها .. ما بها ؟! فردت عليها :
- حياتي عالقةٌ علي الفقدان ، متوقفةٌ علي الصبر ، وعزائي الوحيد البكاء ، فلا تسأليني ، ولكن كلميني !
فقالت لها هناء عن أكثر خاطرةٍ تحبها :
(لسنا كما نبدو ، فلا تأخذوا ملامحنا إن لم تعجبكم علي محمل الجد .. لسنا كما نبدو فترفقوا بقلوب تعرف وحشة الليل .. لسنا كما نبدو فإن رأيتم دموعنا اسعوا للتخفيف منها ، أو اتركوها تسيل في صمتٍ .. لسنا كما نبدو بل نحن نتلاعب أدوار المشاعر وكأننا نحيا في ارجوحة الحياة ، وتلك الأرجوحة لا تعطي إنذارًا قبل هبوطها ، فلطفاً بنا !) .. ثم نظرت لها و أضحت تتحدث عن ارجوحة الحياة ، فالأرجوحة تارةً في أعلى الهواء ، فنري حينها المنظر من بُعد فيكون جميلاً مُبهجاً ، ثم تهبط بدون مقاييسٍ ثابتةٍ ، فتارةٌ تهبط و كأنها صاروخ فيتملكنا حزن لا نعرف كيف أصابنا ، و تارةٌ تنزل بوتيرة هادئة تُهلك مدامعنا و نتخبط فيها مع الفرح أحياناً ، وتارةٌ تحط تلك الأرجوحة في الطين فنتسخ ، وتُرهق قلوبنا ، وتتوجع أجسادنا ، ونحن الآن يا أماني في مرحلة الطين ! فصبرٌ فإن الطين يُغسل أو يقع وحده عندما يجف ! فصبرٌ فإن الثقة في الله تُلطف وجعنا .. تجعلنا نؤمن أن ما يؤلمنا الآن ربما لحكمة نجهلها ، وقد لا نعرفها كرحمة ، ولكن كبصيرة كتفاؤل أن أي شيء سيمرُّ كما مرَّ ما قبله ، فإذا لم نري رحمة الله

في تقوية قلوبنا حيث تصبح لينة علينا وعلي غيرنا ، فنترفق بنا وبغيرنا ، و كيف لا تكون رحمة ؟! فمهما اشتد البلاء و تملكنا الحزن وقتها ، فإن ما سيخلفه سيكون كفيل أن ينسينا شعور الفاجعة ، متعلمين دروس الابتلاء فعلى الرغم مما يحدث لأختي، أنا أؤمن أن الله سيرزقنا الخير ما دمنا نسعي و نجتهد ، ونتضرع في سجدة ، أو في جوف ليل تفاؤلي بما هو خير .. لا يخذل الله العباد فهو الرؤوف و الجبار و المعين !
نظرت أماني لها و شكرتها علي كلامها ، واعتذرت عن ازعاجها ، وخلدت إلي النوم بينما هناء لم تنم حتي حلول الشمس لتشرق علي الكوكب أجمع إلا علي قلب رضوي ، لتنير آلاف الكيلومترات إلا بقعة التفكير خاصتها .. يرى الجميع بداية يوم جديد و هي تري ملحمة تتزايد بداخلها ، ولكن كل هذا لم يكن كافياً لهم ، فيجعلوها تستيقظ علي بكاء آلاء و تجريحها لوجهها ، وصراخها ، فتمسك يدها و تمسح لها وجهها وهي تتساءل بداخلها من منهم الصادق ، فهدأتها ، فقالت لها آلاء :
- لقد تعبت من هذا الوجه .. أمقته كما أمقت آلاء الحقيقية التي لا نعرف سوى دماؤها ، حتي لا نعرف إذا ما كانت حية أم ميتة ؟!
فنظرت لها رضوي ، وطلبت منها أن تخرج ما بداخلها ، وأن تُخبرها ما الذي فعلته حتي تخرج من السجن ، فأخبرتها آلاء أن

الطبيب صديقها الذي كان يعمل في السجن أشار عليها أن يغير لها وجهها لوجه آلاء ، وأن هناك فتاة توفيت سيخبرهم أنها هي، وأرسلت الجثة إلي أبي فأوقفتها ، وسألتها قائلةً :

- كيف يتلاعب بالجثث ؟! ألا يتأكدوا من الجثة قبل خروجها من السجن ؟!

فردت عليها بسخريةٍ مبكيةٍ قائلةً :

- هل تتعرفين على أحد بلا وجه ؟!

ففتحت رضوي عينيها وفمها حتي أنها أخافت آلاء ، فأخبرتها آلاء أنه من يموت يأخذوا وجهه و جميع أعضاءه ، ويرسلوا الجثة أو ما تبقي للأهل ، يعتبرون هذا تكفيراً عما ارتكبوه ، ولكن سليمي لم تتركهما ، وشأنهما ، وكأنها تنتقم فهي لا تصدق أنها أختها ، لهذا رفضت أن تعطيهما البحث فاستعانت بكِ صديقتك، فقاطعتها رضوى قائلةً :

- و ما فائدتي أنا ؟!

فلم ترد عليها ، واستأذنتها حتي تتجهز حتي يخرجوا .

لم تصدق حرفًا واحدًا ، بل لم تستطع أن تستوعب ما يزيد عليها يومياً ، وهنا تذكرت كلام صديقتها ندي حينما قالت لها بعد فترة مرضها دون أن تخبرها عنه .. (ربما حياتنا توقفت عند نقطةٍ ما ، فقدنا قبلها مصداقية مشاعرنا ، بل جهلناها و كأنها ليست حياتنا، ولا مشاعرنا ، بل كأننا مغيبون عن الاستيعاب ، عن قدرة

تصور قوتنا التي اكتسبناها ، فبعد كل هبوط كنا نقوي للنهوض ، ولكن كفانا وقوعاً من على سلم الحياة ، ألا يوجد مصعد ؟! ولكن من يدري لربما انقطعت عنا الكهرباء ، فحينها سنموت بعيداً عن الهواء العليل الذي يأتي و يصطدم في وجهكِ وكأنه سيقتلع عنقكِ حزنًا !) .. تذكرت ردها عليها بغلظةٍ قائلةً لها :

- أصبحتِ تشاؤمية يا ندي !! معاذ الله أن تصبحي هكذا !!

و لكن الآن ها هي ترى نفسها في المصعد تختنق و تموت ، و لا يكفي هذا ، بل تلعب آلاء و قهرها دور الهواء لتخاف أكثر مما ينتظر زوجها .. كانت تمسح دموعها قبل أن تسيل علي وجهها ... كان عليها أن تختبأ تحت ناظر الأمل و لو قليلاً ، فهي وحدها أمام كذب ما كانت لتتخيله ، فدخل إليها الضابط صديق زوجها، وأخبرها أنه عليها أن تصمد و أن تتملك أعصابها ، وإلا ستنقلب الأمور عليها ، فتمالكت نفسها وعلى الرغم من أنها تحتاج لندي حتي تتحدث معها علَّ ضيقتها تنفرج ، ولكنها خافت عليها ، وتركتها حتي تتزوج دون أن تتسبب في زيادة لوعتها ، فكان يقينها بالله يهدهد حنينها لزوجها ، يجعله يطيب لفكرة أن زوجها سيرجع بخير .. كانت تُقتل وجعاً ، ولكنها كانت تسيطر علي أعصابها حتي لا تُكشف ، ولكن شعورها بحالة والديها تفقدها تركيزها .. حاولت أن تطمئن عليهما ، ولكن حذَّرها الضابط من أنه قد يُمسَك بها ، وما كان في مقدوره أيضاً أن يرسل أحداً حتي

يطمئنهم و يطمأن قلبها ، فهو أخبرها كل شيء قبل أن تسافر .
ظلت علي حالتها تلك .. تارةً تفتقد الجميع و تارةً تدعو الله حتي تنتهي من هذا الوضع المقيت ، وبالفعل آلاء قد ساهمت في إنهائه ؛ حيث أخبرت صديقتها أن علي رضوي أن تري زوجها مهما كلف الأمر ، ولكن تكلفة الأمر كانت شبه قاتلة ، حيث أخبرتها أنه عليها أن تري حقيقة تلك السجون حتي تعرف ما ستواجهه في حال فشلوا أن ينقذوها وزوجها ، فأخذتها آلاء و نزلت إلي أسفل البيت لتجد أنه مقسم لغرف كريهة الرائحة ، شديدة الظلام ، هالكة للنفسية ، محطمة وحدها ، فاقدة للتنفس ، ينهزم فيها الأمل أمام كل العجز الذي يطيح بفكرك في اللحظة التي تطأ فيها قدمك وتشتم أنفك تلك الروائح ، فتقتل بداخلك أي رغبة ! حتي الرغبة في العيش .. فظلت تبكي بهيستريا ، فأخذتها آلاء و صعدت و ناولتها ماء ، ولكن رضوي لم تشرب ، فأخبرتها آلاء أنها ستموت قريباً بهذه الحالة إن لم تأكل وتشرب ، فأتتها صديقتها ، وأخبرتها أن سليمي ستأتي لتقابلها ، وأنه عليها أن تختفي مع آلاء في تلك الغرف الكريهة ، فقالت لها باكيةً :
- أخبريها إن لم تأتي ، ومعها زوجي ، فأنا لا أريد رؤية وجهها !
و طلبت من صديقتها أن تخبرها .. لماذا تسببت لها في كل هذا؟!
فقالت لها صديقتها :
- لساني يا رضوي أم حبي لكِ !! لا أعلم !! ربما أود أن ألوم حبك،

فلومت ثرثرتي !
فنظرت لها متعجبةً ، فأخبرتها أنها دائماً ما رددت اسمها أمام سليمي ، وبعد مع حدث معها و مع آلاء كانت تعلم علم اليقين أنها ستسعي وراءها ، فحاولت أن تحميها ، فأرسلت لها حتي تنفذها من براثنها ، ولكنها فشلت ، ولا تعلم السبب . كانت رضوي تعلم السبب ، ولكنها لم تخبرها و صمتت حتي سألها الضابط عن أخي آلاء ، فسألتها ، فلم ترد عليها ، فلم تصدقها و أخبرته بهذا، وسألته تحليله للهجتها وملامحها ، فأخبرها ألا تأمن شرها طيلةَ انتظارها رد سليمي على صديقتها ، فبدأت تشعر أن آلاء تراقبها، فهاجت و صرخت عليها حتي تصعد إلى فوق الأرض، ولكن آلاء رفضت خوفاً من أن يُكشفوا ، فلم تصدقها رضوي فرفضت أن تنصاع لكلامها ، واشتدت حالتها المرضية ، فبدأت أنفاسها تتسارع ، فاضطرت آلاء أن تخرجها ، ولكن مغمضةً عينيها !

الفصل الثاني عشر :-

- انفراجة -

قررت رضوي أن توافق علي شروط سليمي ؛ لأن أحاسيسها كلها تصب ضد آلاء و صديقتها وليس ضدها ، فحاولت وطلبت من الضابط أن يطمئن علي أبيها ، و لكنه حاول أن يصبرها فهو كان خائف من أن تكون عائلتها مراقبة ، وحينها ستكشف ، فتخيلت حالتهم ، فبكت و كان تخيلها مصيبًا حيث كان كلاً من أبيها و أمها لا ينامان إلا و عيونهما تبكيان ، وأختها هناء و أماني صامتتين أمام والديها ، صارختين علي أحزانهما في الليل ، ولكنها كفت عن البكاء و نست كل هذا عندما أتت إليها صديقتها تخبرها أن سليمي وافقت ، فسألتها عن أخي سليمي ثانيةً ، فأجابتها قائلةً :

- إنه ليس أخيها بل زوجي .. كان يرعاها كأخته ، ولكنه علم أنها قتلت آلاء فتبري منها ، فدبرت له حادثةً لقتله انتقاماً منه !

فسألتها ، وملامحها تظهر عدم تصديقها قائلةً :

- أنا لا أراه قط !

فلم ترد صديقتها عليها ، و ذهبت و طلبت منها أن تتجهز في الليل لتري سليمي ، وتركتها لآلاء ، التي قالت لها :

- تريدين أن تعرفي أين هو ؟!

فهزت رضوي رأسها بالإجابة ، فقالت لها :

- لقد ذبحته سليمي ، وهي تهددنا الآن بأن تفعل بنا هذا إن لم نعترف !
فزعت رضوي ، وظلت تبكي ، ثم قالت لها :
- أتوسل إليك أن تفهميني ماذا تريد مني ؟! فأنتم قتلتم أو لم تقتلوا أختها ، و لكن أين ذنبي أنا و زوجي ؟! ذاك المسكين !!
لم تتحمل فأجهشت بالبكاء خائفةً علي زوجها ، حتي أتت صديقتها وأخذتها إلي سليمي ، ورأته فوجدت أنه في صحةٍ جيدةٍ، وأنها تهتم به ، ولكنه لم يعرفها فشكت ألا يكون هو ، فسألته عن حاله فأخبرها أنه بخير ، فذهبت إلي سليمي لتعرف ماذا تريد ؟! و لكنها صُعقت حينما قالت لها أنها لا تريد منها شيء ، إنما كانت خائفة أن تسلم زوجها إلي صديقتها فتؤذيه .. كان هذا الحديث أمام صديقتها ، فنظرت رضوي إليها ، وكأنها تطلب منها أن تدافع عن حقها ، فقالت صديقتها مصدومة لسليمي :
- لماذا لم تعطيني البحث إذن ؟!
- أين أختي ؟! لماذا لم تأت معك ؟! وأين صديقتكم الثالثة ؟! أنا متيقنة أن أحداً منكم فعل شيئاً سيئاً !
تشوشت رضوي من كلامهما ، فلم تعرف مَنْ تصدق ، فهي تري ملامح الصدق علي سليمي ، وملامح الدهشة علي صديقتها ، كما أن صديقتها تطالب ببحثها ، فلم تتكلم و لكنها سألتهما إذا ما كان يمكنها أن تأخذ زوجها ، وتعود لديارها ؟! فقالت لها سليمي:

- زوجك كان مسئوليتي .. حافظت عليه و لكن قد أخذ المخدر الذي ينسيه كل ما حدث في هذه البلد .. كما ستأخذينه أنتِ في المطار .

خرجت رضوي دون أن تتكلم ، وهي منهارة تبكي ، ثم تحدثت مع الضابط ، فقالت له باكيةً :

- لا ترجعني إلي أهلي أنا و مصطفي بتلك الحالة .. هم لن يستحملوا !

فقال لها و هو متعجب :

- لماذا ذلك المخدر تعطيه الدولة للجميع ؟! وإذا كان ... .

صمت ، ثم قال مندفعاً :

- إذا كان هذا حقيقياً ، فكيف أرسلت لكِ صديقتك الشهادة ؟! لابد أنهم يدبرون لكِ شيئاً !

صدمه رد رضوي ؛ حيث قالت له هادئةً :

- لم يعد يفرق معي ما دمت سأفقد ذاكرتي ، فهذا يكفيني ! ألا يكفيك ما جري لصديقك ، وما جري لي !! صدقني كل ما بي يخبرني أن أرحل بعيداً آخذةً يد زوجي ، و لعنةُ الله علي هذه الأرض !

رآها مصدومة شبه ألا تكون واعية ، فكان يحاول جعلها أن تدرك الموقف في نفس الوقت الذي كانت تسأل فيه صديقتها سليمي قائلةً :

- سنتركها ترحل فهي لن تتحمل أكثر من هذا ، إنها تلعننا صباحَ مساءٍ !

- أنا أعرف أنها لن تتحمل ، ولكن لا يمكننا أن نتركها ، فإنها ليست رضوي .

فنظرت لها متعجبةً قائلةً :

- ماذا تقصدين ؟!

- لقد نجحت !

فرحت صديقتها ، فسألتها قائلةً :

- ستمارسين عليها التعذيب أنت هذه المرة .

- تعذيب !! ما هذه الكلمة ؟!

قالت سليمي ثائرةً عليها :

- نعم تعذيب ، بل قتل .. هل كنا نفعل هذا لنحميها ، أم لأجلنا؟!

قالت هذا باكية و رحلت .. أُحتجزت رضوي ، و زوجها في بيت تحت الأرض ، لا تعلم أين هي و آلاء التي علمت بكل شيء ، فكانت تُكِنُّ لها حقداً يخشي المرء علي سلامة عقله منه ، ولكنها باحت به قائلةً بنبرةٍ تحقن فيها غيظها :

- مباركٌ لكِ !

شعرت رضوي أنها تخبأ شيئاً ، فردت عليها قائلةً :

- بارك الله لي في زوجي ، وأبعدني عنكِ !

- رضوي ! أهنئك علي بحثك ، وليس علي رجوع زوجكِ إليكِ !

هنا صدمت رضوي و نادت علي الضابط ، وأخبرته أنها قد كُشِفت، فهدأها ، فقالت له مذعورةً :

- إنهم لن يرجعونا .. أنا الآن تجسيدًا لمقولة .. - أنا الكائن الذي عاش الحلم ، فعاش يبكي ، ولكني لست من عاش يبكي فقط ، بل عاش فقيدًا . -

فسألها بنبرةٍ هادئةٍ ، و كأن هناك من يستمع له :

- ماذا تنوين أن تفعلي ؟!

- أنا العاجزة الباكية التي لا تملك حق الصراخ ، فكيف لك أن تسألني مثل هذا السؤال ؟!

صمتت قليلاً ، ثم قالت له باستعطاف ، وكأنها تستنجد به :

- هل يمكن أن أكون أخطأت في ظني ؟! وماذا ستفعل إن أصبت؟!

علم حينها أنها في حاجة لأن يطمئنها أحد ، ولكنه لا يملك بيده ما يطمئنها به ، فقال لها :

- لننتظر قليلاً ، وتحدثي مع آلاء حول ذاك المخدر !

لم تفهم رضوي مغزى سؤاله ، ولكنها فقدت السيطرة ، فكانت بحاجة لمن يقودها ، فركزت مشاعرها علي أن تسأل آلاء ، وبالفعل سألتها قائلةً :

- هل علمتي ما حدث عند سليمي ؟!

فأومأت برأسها بالإيجاب ، فقالت لها :

- ما هو هذا المخدر ؟! و لماذا الدولة تعطيه لجميع من يزور

أرضها ؟! أفلم يكن من باب أولي ألا تشجعوا المنح ، فتتركوا كل طالب في بلده سالم مؤمن بمشاعره ، بل بكونه بشر ؟!
فقالت لها آلاء :
- لقد كُلفت بإخبارك الحقيقة حتي نريحك ، و لكن كيف حالك؟!
استنكرت رضوي سؤالها ، ولم ترد ، فقالت لها :
- ما أخبار أمك ؟!
فردت عليها رضوي مذعورةً :
- ما شأن أمي ؟!
فصعقتها قائلةً :
- أمك لديها مرض في مراحله الأخيرة ، وليس له علاج في العلن إلى الآن !
فانهارت رضوي ، فاستكملت أسئلتها فسألتها عن ندي ، فنظرت صامتةً ، وعقلها ينتظر لتخبرها بمصيبة حول ندي ، وقد كان ؛ حيث أخبرتها بحقيقة مرضها ، فردت عليها كإنسان قد تحطم ولم يبقي له شيء سوى الهاوية قائلةً :
- كم الألم الذي عانوه من مرضهم لا يقارن بتوجعهم مما فعلتموه لي ، فأخبريني ما الحقيقة التي عليكِ إخبارها لي .
فنظرت لها آلاء ، وخرجت من الغرفة تاركةً إياها تراجع نفسها حتي توافق علي ما سيطلبونه ، فهم الآن جعلوا حالتها مثاليةً تتوافق مع طلبهم ، فقد حطموها كاملةً ، فذهبت آلاء إلي

سليمي ، وقالت لها :
- لا أظنها ستوافق .. فما الحل الآن ؟!
فردت عليها بهدوء :
- إن لم توافق ، فسنري حينها ماذا سنفعل ؟!
فردت صديقتها مندفعةً :
- سنتركها ترحل هي و زوجها .. أعلم جيدًا أننا حينها قد نموت و لكن هي ستعيش !
فذهلتا من اندفاعها ، فقالت لها سليمي بيأسٍ :
- حاولي أن تقابليها !
- أيًّا فيهما ؟! رضوي المحطمة المستبدلة ، أم التي تبحث عن زوجها ؟!
قالتها صديقتها وهي تبكي ، فعنفتها سليمي قائلةً :
- لماذا فعلنا كل هذا من البداية إذن ؟!
فردت عليها صارخةً :
- لنحميها !
فهدأتها آلاء قائلةً :
- حاولي ، وإن لم توافق فسنموت ! لم يعد يفرق معي شخصياً !
- من صدق أو خال عليه الكذب لن يصدق ، كما أنها تلعني فما الذي سيتغير بمقابلتها ؟!
و بعد إلحاحٍ شديدٍ من سليمي وآلاء ، ذهبت إليها فلم تعرف

كيف تبدأ كلامها ، فقالت لها رضوي بنبرةٍ يتفجر فيها حزنها وغضبها :

- ما عهدتك منذ أن أتيت إلي هنا بقلبٍ ، فأخبريني أنت الحقيقة!

فردت عليها :

- أيُّ حقيقةٍ تريدينها ؟!

- الكذب .. هل تملكين سوي هذه الحقيقة ؟! فأنت يتفجر من كل ثنايا جسدك الكذب والشر ! فأخبريني هل سنرجع أنا وزوجي؟!

تملَّكت صديقتها كل مشاعر القهر والخذلان اللذان مارستهما ضدها ، قائلةً :

- حسناً يا رضوي .. سنرجعك ، ولكني أريد أن أراكِ مرةً واحدةً !

- لن تريني قط ، فلقد شللت منكم !

صدمت صديقتها ، وقالت لها :

- استحلفك بالله .. هل شللتِ أم أنك تضحكين علي ؟!

- ماذا تريدين مني ؟! ألا يكفيكم أني لا أعرف من منكم الشرير؟! أنا لن أقابلك فأخبريني !

فأخبرتها صديقتها أنهم بحاجة إلي بحثها القديم ، وليس الذي قدمت به المنحة ؛ حتي تتركهم جميعاً يرحلوا إلي أي مكان يريدون .

كان الضابط بجانب رضوي ، فطلب منها أن تعرف ماذا حدث لها؛ علهما يفهمان ، فسألتها قائلةً :

- أخبريني .. ماذا حدث لكم ؟!
فأخبرتها صديقتها أنها أتت إلي هنا منحةً من الجامعة ، وما حدث إلي آلاء ، و كيف أنهم خرجوا من السجن .. كان نفس كلام آلاء ، إلَّا أنها قالت لها :
- لا أظن آلاء ماتت ، بل إني أعتقد أن كل شيءٍ مدبَّراً !
صمتت رضوي ، ثم سألتها :
- حسناً .. لماذا أنا أتيت إلي هنا ، بل كيف ؟!
- أنا رشحتك لدى الجامعة ، فهكذا النظام هنا .. عرضت عليهم فكرتك فرحبوا بها ، ولكنك أتيتِ ببحثٍ آخر مختلف !
- أيُّ بحثٍ ؟!
ما كادت ترد عليها حتي قالت لها :
- لا تُظهري أي مشاعر ؛ لأن للكذب مائة ألف وجه ، ولكنهم يبعثون على النفس كل شعور مقزز مهما كان شكل هذا الكذب، حتي لو كان مرتدياً زيَّ الطيبة ، وأنا أُكِنُّ لكِ سوءكِ !
فردت عليها :
- أنا أخبرتهم عن بحثك عن الإنسان الآلي الذي يتصل معكِ عصبياً، ويكون مرناً ، لا يصنع من حديد و إنما من مادة تشبه جلدنا ، فلا يستطيع أحد أن يعرف أنه ليس إنسان ، كما أنه يتصرف علي طبيعتك ، ولكن بطريقته وهذا بفضل اتصاله بكِ ، وأيضاً فكرة أنه يصور بجسده كل ما يحدث حوله ، حتي من تحت الملابس ،

ولكن أظن أن ما أعجبهم هو فكرة الدم التي تسري في جسده ، فقد أثار هذا فضولهم ! كيف لإنسان آلي أن يسير بداخله دم !!
صمتت رضوي تماماً ، فاستكملت صديقتها :
- أنا أعرف أنه من يجلس أمامي هو الإنسان الآلي ، وأعرف أنكِ الآن مرتبكة ، فلقد نجحتِ في صنعه ، وفي اتصاله بكِ أنا أريد أن أراكِ !
- أخبريني من يريد هذا البحث ؟!
- رئيسة هذه البلد .. أم سليمي .
صعقت رضوي ، فهنا الأمر تعقَّد ، وزاد حنقها ، فردت عليها :
- و ماذا لو لم اعطها البحث ؟!
- سنقتل نحن ثلاثتنا !!
- ستقتل ابنتها ؟!
- نعم !!
ذُعرت رضوي ، فأخبرتها صديقتها أن سليمي لم تخبرها شيئاً ، فهي لم تعرف أنكِ نجحتِ .
- لماذا لم تخبريني الحقيقة ، ولماذا اتصلت سليمي بزوجي إن كنتم حقاً لا تريدون البحث عني ولا ترغبون في أذيتي ؟!
صمتت صديقتها ولم ترد ، فقالت لها رضوي :
- لماذا أعطيتموني المخدر ؟!
- لأني كنت أريد أن أجعلك تبدئين من جديد .

- هل تصدقين نفسكِ ؟!
قالتها رضوي وهي تختنق ، وكأنها تريد منها أن تكفَّ عن الكذب، فسألتها :
- هل آلاء شخص قد كان موجودًا في هذه الدنيا من الأساس ، أم أنها بقية كذبكم ؟!
صمتت صديقتها ، ثم أخبرتها بكل ما قد قالته لها آلاء و أزادت على حديثها جملة ..(لا أظنها ماتت ، ولكنا نحن من سنموت!)
.. فسألتها رضوي متي يمكنها أن ترجع مع زوجها إلي بلدها !! فصدمتها حيث أخبرتها أنه يجب أن يُقتل إنسانها الآلي !! فأخبرتها أنه جزءًا منها لا يمكنها أن تقتله ، وإن حدث فإنها سوف تتضرر بسبب اتصال جهازها العصبي به ، فأجابتها أنه ليس هناك سوى هذا الحل ، فبدأت رضوي تناقش الضابط ، فسألها :
- كيف ستتضررين ؟!
- لأننا مرتبطان عصبياً .. نعم ، أنا من أتحكم به عصبياً وبرمجياً، إلَّا أننا لا يمكننا الانفصال ، وكأننا متلازمان ، فهو يشاركني في جهازي العصبي .
لم يفهم من كلامها شيء ، وكان يظهر على ملامحه ، فقالت له :
- لو تضرر لن أستعيد نفسي إلا بعد مدة ، لا أعرف مقدارها ، وأنا لا أريد أنْ أتضرَّرَ !
فشعر أنها خائفة ، فسألها إذا ما كانت تخاف أن يخرج ذاك

الإنسان الآلي عن سيطرتها ، فأخبرته بحقيقة شعورها أنها لا تثق فيهم ، فإذا قتلوه فهم سيقتلون زوجها بحجةِ أنه لا يمكن لأحد أن يخرج من البلد ، فأقنعها أن تطلب من صديقتها أن تخرج مصطفي من عند سليمي ، وتحضره إلي ذاك المكان مع الإنسان الآلي ، وتسأل صديقتها كيف ستخرجهما من البلد !! فقالت له :

- هل تصدقها ؟!

لم يُفصح عما يشعر به ، ولكنه قال لها :

- ستخرجين منها بإذن الله !

هدأت رضوي ، وظلت تفكر في زوجها الذي يجلس بجانبها ولا يعرفها ، ولا يدري بما حوله ، حتي دخلت عليهما سليمي ففزع ، وانتفض بجانبها ، وكأنه طفل صغير يتخفَّى في عباءةِ أمه .. علمت رضوي حينها مدي الضرر الذي وقع علي زوجها من سليمي تلك ، ولكنها لم تتحدث ، بل تركت لها المجال ، وكانت ستوافق علي أي شيء بشرط خروج زوجها من هذه البلد ، فقالت لهما :

- لن تساعدينا .. أليس كذلك ؟!

كانت رضوي بقرارة نفسها لن تتخلي عن هذا البحث ، ولو علي حسابها ، ولكن ليس على حساب زوجها ، فردت عليها :

- لا أستطيع أن أعطيكم بحثي ، إلَّا بشرطٍ واحدٍ !

تنفست سليمي الصعداء ، فتعجبت رضوي منها حيث استشعرت الضعف فيها ، وليس القوة ، فهي لديها صاحبة البحث ولديها

زوجها ، بل و تعرف مكان عائلتها بالكامل ، فشعرت بأن هناك شيءٌ لا تعرفه ، ولكن سليمي قطعت تفكيرها ذاك قائلةً :
- و أخيراً أخبريني ما هو ، وسألبِّيه لكِ ، ولكن لكِ أن تعلمي أني كنت آتيةً لكي أخرجكما من هذه البلد تماماً ، أقول لكِ هذا لتعلمي حسن نوايانا !
كلامها عن حسن النوايا أشعل في رضوي نار غضب لو تركتها تخرج لقطعت سليمي إلي أشلاء صغيرة ، بل لا تري بالعين المجردة ، وبعد هذا ما كانت لتُفرغ طاقتها كلها ، ومع هذا ردت قائلةً :
- أنا أصدقك .. فقط أريد أن يخرج زوجي من هذا البلد الآن !
فوافقت سليمي ، وبالفعل أخذت مصطفي و قطعت له تذكرة سفر ، ولكن قبل هذا كان لها شرطاً وافقت عليه رضوي .
رجع مصطفي إلي بيته ، ومعه الضابط كان منتظره في المطار ، متخفي و أرسل إلي بيت رضوي فأتوا جميعاً في الوقت الذي كان يجهز ما طلبته منه ، فهي لم تنم لمدة ثلاثة أيام حتي تنقذ أهلها .. جهز كل شيء ، وما إن دخلوا ورأوا مصطفي في هذه الحالة ، حتي فزعوا ، وكادت أماني أن يُغشى عليها ؛ حيث كان في حالة يرثى لها ، فسألوه عن رضوي ، فأخبرهم أنها بخير ، هو فقط يخفيها حتي لا يصيبها مكروه ، وتركهم يجلسوا معه ، ودخل إلي غرفة المكتب .. أخذ كل الأوراق و الأموال من الخزنة ووضعها في سيارة كانت داخل البيت ، ثم عاد إليهم و بدأ يظهر أولئك

الأناس الآليين .. كان ليس لهم شكل فأخبرهم أنه عليه أن يأخذَ جزءاً من دمهم ، من أجل رضوي ، فأشار لهم مصطفي أن ينفذوا ما طلبه ، فقال له أبو رضوى هامساً :

- هل ابنتي بخير ؟!

تحيَّر الضابط فظل صامتًا يفكر ماذا يرد عليه ؟! وهو تركها هناك، ونسبة قتلها تتجاوز المئة بالمائة ، فربت علي كتف الأب ولم ينطق ، فوقع الأب في الأرض ، فهرعت إليه زوجته وابنته وأماني التي تحتضن أخيها بدأت بالصراخ ، فأوقفها الضابط ، وأسند الأب لينهض ، وعندما سألت الزوجة زوجها إذا كان بخير لم يرد ، فأشار إليه الضابط ألا يتكلم فهو يعلم ، أن تلك الأم مريضة بل خولت له ابنتها الغائبة أن يسأل علي صحتها ، فكان يحاول أن ينقذ ما بين يديه ، فهدَّأ الرجل زوجته بقوله أنه بخير ، وأجلسها فبدأ الضابط بأخذ الدم ، ووضعه في الآليين ، فإذْ بهم يأخذونَ هيئة صاحب الدم !! الجميع تسمَّر مكانه متعجباً ، فأخبرهم أنه عليهم الرحيل بسرعة ، فذهبوا إلي السيارة وانطلقوا إلي مكان مهجور اختاره الضابط ؛ حتي يعلم إذا كان مراقب أم لا ، وبعد أن تأكد أنهم آمنين استأذن من أم رضوي أن يسألها سؤال ، فسألها وزوجها وحدهما إذا كانت مريضة و علي وشك الموت ؟! فصمتت فعلم أنها مصابة ، وإذا بزوجها ينظر لها فتركهما وخرج لمصطفي والابنتين ، فلم يتكلم الزوج ، بل احتضنها وبكى ، ثم

قال لها :
- أحبك .
فبكت ، ثم قالت له :
- طالما أحببتني ، وطالما حييت بحبك و تنفست به .. طالما أحببت نفسي كجزءٍ من عبوديتك لله ؛ حيث تزوجتني فأديت فرض كفاية، وأكرمتني فكنت كريم .. كنت دائماً الذي تربط علي دموعي وحزني ، وما زلت تشدني معك إلي الجنة .. أعلم أنك تعشق من استندتْ عليك دائماً ، اتكأتْ علي حبك و سارتْ به أمام الجميع ، ولكني ما زلتُ أنا أتعكز بعشقك علي العالم ، لم أخبرك يوماً أن حبك أزاد إحساسي بك ، وبألمك ، فكان يكفيك ألم من تعشقها ، وهي ليست بين يديك ؛ لهذا كنت لا أزيد عليك!! لا تقلق عليها فأنا أصدق الضابط .. أصدق أنها بخير .. لا تقلق !!
لم يتكلم الزوج ، ولكنه أخذ بيدها و خرجا إلى مصطفي ، حيث نادت عليه هناء بأمر من الضابط حتي يستأذن منهم للرحيل لبعض الوقت ، ولكنه قبل هذا سألهم عن مكان يمكنهم أن يذهبوا إليه ، فأخبرته أماني عن بيت أميمة صديقتها ، ولكن عمها أوقفها و أخبر الضابط أنه لا يوجد مكان ، فتركهم و ذهب إلي ندي ليسألها هي أيضاً إذا كانت مريضة أم لا ، بل إذا كانت تتوجع من مرضها ، ولكنها لم تكن في البيت ، فأخبر أمها أنه صديق

زوج رضوي وأتى ليخبرها أنه قد عاد ، فاتصلت أمها بها، فأتت مسرعة هي و زوجها ، فهي قد تزوجت وما إن رأت الضابط حتي علمت من هو ، فهي تعرفه من رضوي ، فقد أخبرتها أنها ذهبت له ليساعدها ، فخافت أن تسأله عنها فيخبرها بشيء لا تتمناه، فصمتت ، فأخبرها أن رضوي أرسلته ليسألها إذا كانت مصابة بمرض أعصاب لم يجدوا له علاج !! اندهشت ندي وبداخلها يتآكل .. تريد أن تسأل علي صديقتها ، ولكنها مازالت خائفةً فرد زوجها قائلًا :

- نعم ، ولكن لِمَ هذا السؤال ، وأين رضوي ؟! أنت قلت أنها ارسلتك .. هل هي بخير ؟!

فأخبرهم أن هناك علاج لمرضها ، ولكن حتي تأتي به رضوي عليها التخلي عن بحثها !

فرفضت ندي و زوجها ، وأخبرته ندي قائلةً :

- قل لها أن علاجي رجوعها لي كاملةً .. أخبرها بمقولتها لأمها .. (تلك الأحلام يا أمي التي لم تجد مستقراً لها في الدنيا ، قد أوجدت مستقراً في عقلي ، بل أوجدت كل السكينة والراحة .. لم تأتِ لتخرِّبَ عليَّ حياتي كما يعتقدون ، ولكنها أتت لتجعلني أطمح في غدٍ أفضل ، لتجعلني أكثر فخراً بنفسي ، وابتهاجاً بتحقيقها حتى لو لم أحققها ، وظللت طيلةَ العمر أحاول !! في يومٍ ما سوف أصل لها ، فما العمر إلا لحظة يولد فيها فرح ، يُنسي كلَّ اللحظات ، أو

ذكرى تبنى عليها حياة ، أو حلم يعطي أملاً ورغبةً في الاستيقاظ؛ لنعيش !!) .

رحل الضابط ، وكان حقاً متعجباً من الحب الذي حظت به رضوي، حتي من صديقتها التي تنسى نفسها ولا تفكر إلا في رجوعها ، حتي أنها لم تفكر في مرضها ، بل بكت من أجلها ، وتمنت رجوعها .

ذهب إلي بيته حتي يخبرها بما فعل ، وبعدما راسلها ، طلبت من آلاء أن تستدعي سليمي وصديقتها ، فأتوا ، فقالت لهن :

- لماذا فعلتم بي هذا ؟!

فقالت لها سليمي :

- ألن تقابلينا ؟! لقد رجع زوجك إلي بلدك ، فنحن لا نريد أن نتكلم مع إنسان آلي !

- حسنًا ماذا كانت نواياكن ؟! و ماذا لو لم أوافق علي أن أقابلكن؟! أنا أراكن و أسمعكن و ذاك الإنسان يتحدث بما أشعر ، بل ربما يتمالك كلامه ، فلم أبرمجه على معاملةِ أمثالكن بعد !

فردت عليها سليمي :

- أنت أتيتِ هنا بترشيح قامت به صديقتك عندما كانت تتلقى المنحة علي نموذج عن إنسان آلي ، وأقنعت أخي رئيس الجامعة أن يقبل بك حتي تساعدينا في مشكلة وقعنا بها ، فهو يعلم أننا بريئات .

- غربتموني من بلدي من أجل حلم قد تغرَّب من فكري ، ولكنه رجع بسببكم ، أريد أن أعلم ما هي المشكلة ؟!

- نحن ثلاثتنا سيتوجب علينا السجن إلى الأبد بعد مهلة أسبوعين بتهمة قتل الفتاة التي أخبرتك آلاء أنها هي ، ففي الحقيقة آلاء هي آلاء نفسها ، وهي بمثابة أختي ، فنحن لدينا قانون أنه إذا اختفت فتاة وهناك اشتباها لقتلها ، فإذا لم يجدوا القاتل فسيحبس المسؤول عنها ، إذا أشتبه به أو كان هناك دليل واحد و لو ضعيف على أنه السبب ، فبصدد هذا القانون وجدوا دليلاً ؛ حيث كانت هناك دماؤنا مختلطة مع دمها علي السرير ، وأقسم لكِ أننا لم نقتلها ، ولا نعرف عنها شيئاً ، فقط لأننا نجلس معها في الغرفة ، فكانت مسؤوليتنا !

صمتت رضوي قليلاً ، ثم قالت لهن بحسرةٍ :

- هذا يعني أن آلاء لم تقم بأي عملية لتغيير لوجهها ، بل هي حقاً اسمها آلاء ، وهي بمثابة أختك ، لستن أعداء !

صمتت رضوي قليلاً ، ونظرت إليهن ، ثم قالت بسخريةٍ :

- أنا بحثي عن إنسان آلي ، وليس عن استحضار الأرواح ، أو عن معرفة من قَتَلَ !

قاطعتها صديقتها اعتراضا علي سخريتها قائلةً :

- أنتِ تملكين بحثاً يمكنه أن يبرءنا ، بل ونفذتيه أيضاً ، وها نحن نتحاور معه الآن !

فعلا صوت رضوي قائلةً :
- بحثي للأحياء !! فكيف سيتصل إنسان آلي بمثل فكرتي بميت ؟!
- لا نريده أن يتصل ، كل ما نريده هيئتها ، وأنت قلتِ أنه حتي تتمثل الهيئة ، نحتاج إلي دمٍ فقط ، ونحن لدينا الدم الذي كان علي سريرها !
- لما لا تقوموا بعملية تبديل وجوه ، كالتي أخبرتني عنها آلاء ؟!
فأخبرتها صديقتها أنه هنا يطابق فحص الدم بكامله ، حتي يتأكدوا من هوية الشخص ، وهذه العملية تكون مراقبة من بدايتها ، فلا يمكن للطبيبة أن تسير سوى في طريق معين من بداية أخذها العينة حتي ظهور النتائج ، بل حتي ما تراه الطبيبة تحت المجهر يراه الشعب في نفس الوقت ، فلا يمكنهما تزويرها ، وخاصةً إذا كانت ابنة رئيسة الدولة متهمة .
ظلت رضوي تنظر إلي ثلاثتهن ، حتي قالت صديقتها :
- أنا آسفة ! أعتذر على ما حدث لكِ ، وإن كنا لسنا لنا علاقة به !
ثم قالت آلاء :
- و أنا كذلك ! فأنا كنت أحاول أن استميل قلبك لتساعدينا ، حتي عندما كلفوني أن أخبرك الحقيقة ، كذبت عليكِ .
ثم قالت سليمي ، وهي تبكي بنبرةٍ حادةٍ :
- أنا لم أعذب زوجك ، بل أني حاولت أن أعامله جيداً ، فقط سألته علي بعض أجهزتك التي ربما يكون عليها البحث ؛ حيث

كان هاتفك و حاسوبك المسروقين خاليين عن أي معلومة عنه !
هدأت نبرتها ، وكأنها بدأت تشعر بأنين رضوي ، وقالت :
- أعرف أنكِ لن تسامحي أيّاً منا ، ولكن نحن مظلومون من ظنونك كلها ، فأنتِ قُبلتِ في المنحة لتفوقكِ ، وأقسم أنه ليس من أجل أن تخرجينا مما نحن فيه ..أ قسم لك ، أستحلفك بالله أن تصدقيني !!
فأجهشت بالبكاء ، فحاولت آلاء تهدئتها ، ولكنها فشلت ؛ حيث ردت عليها رضوي قائلةً :
- ماذا سيفرق إن صدقتك أم لا ؟! فإني لن أغير قراري ، أمَّا عن زوجي فيكفيني انتفاضته عندما رآكِ !
فنظرت آلاء إلى رضوي ، وكانت تريد أن تقول لها أن تعطف علي سليمي قليلاً ، ولكن سليمي قالت لها بنبرةِ شخصٍ حقاً لا يريد أي شيء من هذه الدنيا :
- لم يعد مهم ، فأنا قد تحولت تماماً نعم أعترف أني السبب في الحالة التي وصل إليها زوجك ، أنا فقط اتصلت به حتي يتفهَّم حالتك عندما ترجعي ، لم أخبره أن هناك أناس في جامعتك أعطوك حبوباً مهلوسة ، كنت فقط أريده أن يقف بجانبك ويُقدر حالتك، لقد ذهبت لبيت آلاء لأخبرها أنكِ لن تتحملي ، ولكني فوجئت به هنا ، وحينها حاولت أن أصل لبحثك ، فظللت أسأله عن أي شيء قد يعرفه عن البحث ، ولكنه التزم الصمت .

نظرت لها رضوي نظرات احتقارٍ ، وقالت :
- ألستم أنتن من السبب في هلوستي وكل ما مررت به ؟!
فأقسمت لها آلاء أنهن ليسوا لهن علاقة بهذا ، وإنما بعض الطلاب في الجامعة قد استطاعوا أن يدخلوها في حالة هلوسة، فكان عليهن أن يحبسونها في مكانٍ بعيدٍ عن غرفتها ، وهذا ما قامت به سليمي عندما حبستها في ذاك المكان لتقيم لها تحاليل، وتطمئن عليها ، وقاموا بتنظيف الغرفة فوجدوا مواداً مهلوِسةً، بل أنهم لم يكتفوا بهذا ، فبدأوا يظهروا أمامها بأشكال مخيفة، فصرخت حينها في السوق ، وتعبت وحالتها الصحية ساءت ، وبدأ جهازها التنفسي يتضرر ، فتعين على آلاء أن تأخذها إلي بيتها حتي تتحسن صحتها ، فهاجت عليها رضوي قائلةً :
- نعم و هم قد جعلوكِ ميتةً و سليمي رغم أنها متهمةٌ بجريمة قتل ، إلَّا أنها ما زالت محتفظة بوظيفتها كطبيبة ، وآلاء مسؤولة عني من الكلية ، رغم أنها أتهمت بقتل صديقة السكن .. أتتخيلوني مجنونة لأصدقكم ؟!
فأخبرتها صديقتها أنهن فقط متهمات ، وطيلةَ هذه المدة من حقهن أن يعملن و أن يمارسن حياتهن ، وكأنها تأهيل لدخول السجن طيلةَ الحياة ، وأخبرتها أن آلاء لم تكن مسؤولة عنها ، كما أن سليمي ليست طبيبة نفسية ، وأن الخبر الذي قرأته عنها يُنشر يومياً من قبل طلاب الجامعة وتستقبله بأريحيةٍ تامةٍ ، وآلاء هي

من خُوِّلت لها لتساعدها في البداية ، حتي عندما قرب موعد دخولهن السجن فاضطربن ، وأردن أن يحصلن علي البحث ! أما ما حدث قبل هذا فلم يكن منهن ، فسليمي كانت موجودة في مشفى الطب النفسي ، فهذا مكتب أختها كانت هناك تتعالج، وفوجئت برؤيتها ؛ لهذا رفضت أن تقابلها ! أما عن الصورة فهي لآلاء وخطيبها .. كان هذا بداية اقتراف الخطأ ، حتي ما فعلته من تمثيلية أنها ذهبت إلي بيت آلاء وإخبارها لزوجك لم يكن تمثيلية ، بل كان الهدف أن يساندك أحد عندما ترجعي ، ثم فكرت آلاء أن تستخدم معكِ مصل حتي تنسي كلَّ شيءٍ ، و لكن أتى مصطفي ، ولأن الخوف من الموت قاتل و مميت وحده ، قامت باحتجاز مصطفي ، وأنت تعرفين الباقي .. أشارت آلاء إليها لتصمت ، وقالت وهي تنظر في عينيّ رضوي :

- لم يكن قصدنا نعلم أننا كذبنا حتي النهاية ، ولكن ما حدث كان بعضاً من الطلاب ، وبعضاً من خوفنا .. نعترف بذنوبنا !! فقط سامحينا ! نحن سنتقبل كل ما يحدث !

كانت رضوي تستمع ، واستشعرت الصدق في قلوبهن حتي دخلت رئيسة الدولة ، فهرعت سليمي إليها ، واحتضنتها ، فظلت تمسح علي رأس ابنتها المنهارة من البكاء بحضنها ، فأجلستها ، وقالت لرضوي :

- أنا أعتذر عما فعلته ابنتي ، وزميلاتها ، ولكن يُتْمَ المشاعرِ شيءٌ

لا يُحتمل ، فما بالك بالمنبوذين ؟!
تخشبت رضوي مكانها .. لم تستطع التكلم ، باعدةً شفتاها ، ومبحلقةً عيناها بشدة ، فقالت الرئيسة :
- لا تعتبريني رئيسة ، بل أم تعتذر على الخطأ الوحيد لابنتها ، تذكرتك حُجزت .. يمكنك العودة إلي بلدك غداً ، نعتذر عن كل الضرر النفسي الذي قمنا به ، فأنا أم واحدة ممن صبوا عليك مظلمتهم دون وجه حق ، فلستِ أنت بظالمتهن .
فأجهش الجميع بالبكاء ، فهدأتهن أم سليمي ، ثم تركتهن ، ورحلت فهي لا يمكنها البكاء أمامهم ، وقبل رحيلها طلبت من ابنتها أن تذهب معها ، فنظرت سليمي إلي رضوي بعينٍ دامعةٍ ، فقالت لهن رضوي :
- أسامحكن جميعاً ، ولكن لا يُمكنني أن أفعل ما تطلبونه !
ففرحن جميعاً ، وشكرن رضوي ، وقالت سليمي :
- كان ما يُهمنا بعد أن رأينا حالتك ، وحالة زوجك ، هو أن نكفر عن ذنبنا .. نعم ، تمادينا كثيراً ، ولكن لقد أفرجتي عنا بسماحك! رزقك الله بسعادة تعوضك ، بل تنسيكِ ما فعلناه بكِ !
احتضنت سليمي آلاء و صديقتها ، واستأذنتهن و رحلت مع أمها ، فرحةً تاركةً ورائها الخوف من ظلم رضوي التي تنظر إلي صديقتها الباكية أمامها ، فقامت و ربتت على كتفها واحتضنتها، وقالت لها :

- أنا أراكِ ، وأسامحكِ ، سأرحل غداً .. صدقيني أن ذاك الإنسان الآلي الذي يقف أمامك ويحتضنك ، فإن ذلك لأنني أريد أن أحتضنك ! أقول لكِ هذا فقط لتعرفي أني سامحتكِ ، قومي اغسلي وجهك ، وامسحي دموعك .. أنا سأرحل الآن !

رحل الإنسان الآلي من هذا البيت ، وذهب إلي صاحبته ، و في الصباح غادرت رضوي إلى بلدها ، وعادت إلي أهلها ، فكاد قلب أمها أن يتوقف من الفرحة ، واحتضنتها أماني وهناء باكيتين ، وزوجها يبتسم لها ويبكي ، فسلمت عليه وظلت تبكي ، وتسأله عن صحته ، فأخبرها أنه قد رجع إلي طبيعته ، حيث أعطته سليمي قبل رحيله مصل يلغي مفعول مخدر النسيان .

كان يبكي منذ يوم رجوعه عندما علم بموت أمه ، واعتقد أن زوجته ستموت ، فظل يبكي بعد كلامه ، فهو كان يتذكر أمه .. مرَّ اليوم بسلام ، فكانت رضوي فرحةً برجوعها ، وفي الصباح أخبرتهم بكل شيء ، فسألتها أمها :

- ماذا ستفعلين بذاك الإنسان الآلي ؟!

- لا شيء .. أنا سأدخل أمسح كافة المعلومات من عليه ، ثم سأُدْخِلُ إلي دمه فيروس يأكل تلك المادة التي هو مكوَّنٌ منها ، وبعدها سأهشم رأسه .

فقال لها أبيها :

- ألن يضرك هذا ؟!

- لا يا أبي ، بهذا الشكل هو لن يؤثر ، فالتخلص منه على فترات سيضعف اتصالي به ، حتي ينعدم ذاك الاتصال ، فيكفيه ما حدث له ، لقد بكى دموعاً ، حتي أني خفت أن تنتهي تلك المادة التي تسيل على خده وأُكشف ، لقد انتهي كل شيءٍ ، حتي دور الحزن، لقد توقف التفافي في تلك الدائرة المقيتة !

احتضنتها أمها ، وبكت ، وبعدها بوقتٍ ذهبت إلى ندي ، فظلت ندي تصرخ ، واحتضنتها ، فهنأتها علي زواجها ، وقالت لها :

- لماذا لم تخبريني أنكِ مريضةٌ ؟!

فردت عليها مبتسمةً :

- إنسِ مرضي ، وكأنكِ لم تعرفي إذا أمكنكِ ، فأنا بخيرٍ طالما أنتِ بخيرٍ !

فقالت لها رضوي :

- إذا بكِ أي شيء ما زال يوجعكِ .. إذا ما زالت بكِ غصةٌ تتصارخ علي صمتك حتي تخرجيها ، فأخبريها أن صديقتك قد عادت ، وأخرجيها لتسحق تحت أقدام الحب بيننا !

صمتت ندي ، ثم نظرت لها مبتسمةً وقالت :

- كنت ألبس ملابس فضفاضة ، حتي عندما يرتعش جسدي من المرض أمام أهلي لا يلاحظوا ، فكنت أدخل غرفتي باكيةً .

فقامت و احتضنتها قائلةً :

- أعانكِ الله علي ما بكِ ، سأدعوه لكِ في كل صلاتي أن يعيدك لي

سليمةً ، ناسيةً كل لحظات الألم التي أوجعتكِ !
فضحكت ندي ، وظلتا يتحدثان ، وبعد هذا ذهبت إلي الضابط تسأله إذا ما كان أمامه متهم يعتقد أنه بريء ، ولكنه سيدخل السجن لا محالة ، فإذا أمكنه مساعدته بطرق غير قانونية ، فهل سيفعل ؟!
لم يرد الضابط علي سؤالها ، ولكنه أخبرها أن تنسى ما حدث لها في تلك البلد ، فهو كان معها يراقب تصرفات آلاء مع ذاك الانسان الآلي ، وكثرة كذبها ، ما جعله عاجز عن الوقوف في صفهن ، فرجعت إلي البيت ، وقضت الليل بأكمله تتحدث إلى هناء .. تلك الصغيرة التي بجانبها ، تدمع عيناها من الفرحة !!
و في الصباح ذهبت إلى مصطفي في بيته ، وأخبرته أنها مستعدة للزواج بعد شهر .. في هذا الوقت أرسلت أم سليمي صندوقين، واحد لأمها ، والآخر لندي ، وكان بهما رسالتين ، فذهبت ندي إلي رضوي تسألها ماذا تفعل ؟! ثم ذهبت إلي زوجها فبحث علي الإنترنت ، وبالفعل كان هذا علاجاً لحالتها ، وحالة أم رضوي قد تم الاعتراف به عالمياً منذ ساعاتٍ قليلةٍ ، و كان هذا العلاج صاحبته صديقتها و آلاء و سليمي و تلك الفتاة المختفية ، فأشفقت أم رضوي عليهن ، وسألت ابنتها إذا كان يمكنها أن تساعد هؤلاء البنات ، فأخبرتها أنها ساعدتهن بما يمكنها ، فهي قد سامحتهن على ما فعلوه ، ولكنها لا يمكن أن تنفذ مطلبهم ، فهي لا تعلم

صحة كلامهن ، كما أخبرت أمها أن هذا الحلم يجب أن يغرب من حياتها ، يجب أن يتغرب منها فهو سيضر بالأجهزة العصبية لدينا إذا ما حدث لهؤلاء الآليين أي شيء مباغت ، وهي أيضاً لا تريد أن تكذب على شعبٍ بأكلمه .

تابعت رضوي أخبارهن عن طريق النت ، وحزنت لوقت عندما نُفذ عليهم حكم السجن مدي الحياة ، وبعد شفاء أمها وتَحسُّنِ حالتها ، أقام مصطفي فرحاً ؛ ليتزوجا و يبدأن حياة جديدة ، ولم يحضر الفرح إلا الأقرباء المقربون ، وودعت رضوي بيتها وأهلها ، وذهبت إلى قصر مصطفي ، حاملةً على يدها الفرحةَ والسعادةَ .

تَمَّتْ بحمدِ اللهِ



01020439639